طه حسين

كما يعرفه كتاب عصره

ابراهيم الابيارى
أحمد كمال زكى
أنور الجندى
جورجيو ديلافيدا
رجاء النقاش
ريمون فرنسيس
سهير القلماوى
شكرى عياد
شوقى ضيف
صوفى عبد الله
عبد الحميد يونس
بد الرحمن صدقى
رانشيسكو جابريلى
كامل زهيرى
حمود تيمور
مود أمين العالم

دار الهلال

إهـــــــداء2006

ورثة الكيمياني/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية



طه حسين

كما يعرفه كتاب عصره

تحية إلى طه حسين

محمود تيمور

أستاذنا «طه حسين» تتبلور فيه أزكى نفحات النهضة العربية الحديثة ، من دعوات وهتفات فى الوطنية والسياسة ، وفى العلم والدين . وفى الثقافة والأدب ، فهو خلاصة مركزة لأعلام تلك النهضة : مصطفى كامل . ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول ، ولطفى السيد وأشباههم القليلين . أولئك الذين أوقدوا نار الثورة ، وأضاءوا منار الحرية ، وحملوا لواء التقدم والتطور .. وهو بذلك أعرف المعارف بين الشخصيات البارزة فى عصرنا الحاضر ، فما هو اذن بحاجة الى تعريف ، ومن يحاول ذلك فهو فى الحق يحد من نطاقه غير المحدود ، ويبغى أن يقرب الى الأنظار هذا الأفق البعيد ..

ولكنى مع ذلك يطيب لى أن أوجز تعريفه فى بضعة عناصر :

- فكر مستقل ، وروح خيِّرة ، وصبغة فنان ..

وقد التأمت هذه العناصر فى شخصية كمنت فيها بذرة النبوغ منذ البداءة ، وظلت تؤتى ثمرها على الأيام ولا تزال

بالفكر المستقل استطاع « طه حسين » أن يبث فى حياتنا العقلية والأدبية معنى الحرية بأقوى ما تدل عليه ، ويبعث فينا نزعة التجديد بأكرم ما تشير اليه ..

فحين شرع فى مطلع حياته يدرس الأدب العربى كان أجلى مظهر له فيما درس انه لم يذعن لما تواضع عليه السابقون من آراء ، وما ساقوه من أحكام ، ولم يستسلم لما تعارف عليه معاصروه من طرائق البحث وأنماط طرائق التأليف . ومن ثمَّ كان أول كتاب أخرجه ـ منذ نصف قرن ـ هو فى الواقع أول كتاب فى أدبنـــا العربى يدرس بيئة الأديب وشخصيته والمؤثرات التى اعتملت فيه ، على هذا النهج الذى تجلى فى كتاب « ذكرى أبى العلاء » ..

ثم توالت بحوثه ودراساته من بعد ، فى النقد الأدبى ، وفى الاصلاح التعليمى ، وفى التوجيه الاجتماعى ، وفى التثقيف بوجه عام ، فكانت فى جملتها مثلا عاليا لاستقلال الفكر ، وجدة الرأى ، وتميز الملامح الخاصة فى كل ما يعبر به ، ويدعو اليه

*

وبالروح الخيِّرة مضى « طه حسين » يرسم لنفسه ســـلوكا انسانيا رفيعا ، لم يحد عنه حين جرى قلمه بتصوير الحياة والأحياء ، وبالتعبير عن الوجدان الاجتماعى فى أصالة وصدق

ولم يحد عنه كذلك حين تمرس بالمناصب : أستاذا وعميدا جامعيا ، ووزيرا ورجلا من رجالات الدولة له سلطانه ومشورته وتوجيهه فى جلائل الأعمال ..

ان « طه حسين » فيما قرىء له من قول ، وفيما أثر عنه من عمل ، وفيما أسدى الى الناس من سعى ، انسان كبير القلب ، سمح النفس ، رهيف الشعور ، فلا غرو أن تلتف حوله القلوب ، وأن تألفه النفوس ، وأن يحوطه معاصروه بهالة وهاجة من مشاعر الحب والاعزاز ، سواء فى ذلك من تلقوا عنه ، ومن قرءوا له ، ومن اتصلت أسبابهم بأسبابه ، ومن أفادوا منه على قرب أو على بعد

وأما صبغة الفنان فى شخصية «طه حسين» ، فهى ميسم يطبع أعماله الأدبية جميعا ، حتى ما كان منها خالصا للبحث والدرس ، مما يفتقر الى

التجرد للتأمل والتفكير والاستنتاج ، وأعنى بتلك الصبغة فيه انه لا يتناول موضوعا ، ولا يرسم صورة ، الا كان فيما يتناول وما يرسم فنانا أصيلا ، يواتيه الخلق والابتكار ولا يكاد يخطئه أو يخلفه

*

وبهذه الصبغة التى استيسرت له أصبح « طه حسين » أغنى كتاب عصره عن أن يعلن اسمه بين يدى ما ينشر له . ذلك بأن أسلوبه طعما ومذاقا . بل اللفظ والعبارة ، انما هو أسلوب أديب فذ ، ينفرد بخصائصه ، ولا تخفى ملامحه ، هو أسلوب نابغة أدبنا العربى « طه حسين » ..

عميد الأدب ومعجزة الأيام

عبد الرحمن صدقى

« عميد الأدب » لقب ارتضى العربى فى كل مكان أن يطلق فى عصرنا الحاضر على واحد دون غيره من الأدباء والأعلام ، هو الدكتور طه حسين ، تسليما بأنه الحرى بأن ينفرد به .. لأنه ليس بين الأدباء أبناء عصره ولداته ، من اجتمعت له فى طويل السنين مقوماته وصفاته .. فقد اجتمعت للدكتور طه حسين ثقافات عديدة لم يأخذها من الكتب وحدها ، ولكنه عاشها ! ..

● عهد الدراسة فى مصر ●

شهد الشاب طه حسين حلقات الدرس فى الأزهر سنوات « ١٩٠٥ — ١٩٠٨ » تلقى فيها على أكابر مشايخه علوم العربية بما فى ذلك شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك فى النحو ، ومعها سلم العلوم فى المنطق ، فضلا عن أصول الفقه الاسلامى ، وكان من أساتذته فى التوحيد الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وفى الأدب الشيخ سيد المرصفى ..

ثم ترك الدراسة الأزهرية الى الجامعة المصرية حيث الأساتذة المحاضرون من صفوة العلماء العرب الذين يجمعون الى وفرة محصولهم من الثقافة القديمة العربية سعة الاطلاع على الثقافة الحديثة الاوربية ،

فضلا عن نخبة صـالحة من أعلام المستشرقين لتعليم اللغات السامية والتعريف بالشرق القديم وتدريس تاريخ الفلسفة الاسلاميـة وتاريخ الفلك عند العرب وتاريخ تراث الأدب العربى على مناهج مستحدثة من البحث والتحقيق ..

وكانت تلقى فى الجامعـة المصرية دروس فى الأدب الفرنسى ، كان الطالب طه حسين حريصا على حضـورها بعد أن تعلم اللغة الفرنسية واستأنس فى نفسه القدرة على متابعة ما يلقى بها على طلاب الآداب الأجنبية ..

وخرج طه حسين من هذه المرحلة بالباكورة الأولى من آثاره الباقية ، وهى رسالته « تجديد ذكرى أبى العلاء » التى نوقشت فى ١٥ مايو سنة ١٩١٤ ونال عليها أول دكتوراه منحتها جامعة مصرية

● عهد الدراسة فى الخارج ●

وعلى أثر ذلك تقرر ايفاده فى بعثة على نفقة الجامعة المصرية وتحدد لسفره يوم ٢ من أغسطس . فاعترضه نشوب الحرب العالمية فى ٢٨ مايو وتقدم الجيوش الالمانية فى زحفها على فرنسا حتى أوشكت أن تبلغ نهر السين متجهة الى العاصمة الفرنسية ، وكان قد بلغ من توقع دخولها باريس أن انسحبت الحكومة منها الى الجنوب (بوردو) فى ٢ سبتمبر ، تاركة أمر الدفاع عنها الى حاكم عسكرى

لكن الطالب المصرى انتهز ما وردت به الأخبار بعد ذلك عن تمكن الجنرال « فوش » من وقف تقهقر الجند الفرنسيين والتحول بهم الى الهجوم ، والنجاح فى صد الجيوش المغيرة والحيلولة بينها وبين التوغل فى فرنسا ، فسعى عضو البعثة الى اقناع أولى الأمر بالسماح له بالسفر ، ونجح فى سعيه ، وتقرر أن يسافر فى نوفمبر الى فرنسا ، على ألا يذهب الى باريس لقربها من ميدان القتال ، واعتاض عنها فى الجنوب من فرنسا بجامعة مونبلييه الشهيرة .

وفى مونبلييه ، عكف الشاب العالم العربى على اتقان اللغة الفرنسية ، والاختلاف الى الجامعة لحضور دروس فى الأدب الفرنسى والتاريخ الحديث فضلا عن دروس العلامة فوكو فى علم النفس . وانقضى عليه فى مونبلييه عام كامل واذا بالجامعة المصرية التى أوفدته تستدعيه ، لعجز فى مواردها ، فيضطر للعودة ، وبعد أشهر قلائل تتدخل جبهة عليا فى أزمة الجامعة وينصلح مركزها المالى

وسرعان ما يعود عضو البعثة الى فرنسا فى ديسمبر ١٩١٥ ، ولكنه لم يعرج هذه المرة على مونبلييه بل قصد الى باريس والتحق بكلية الآداب بجامعتها . وهنا درس ما يتصل بمصادر الحضارة الأوربية كالتاريخ اليونانى والرومانى وكان يدرس اللغتين فى الوقت نفسه — فضلا عن التاريخ الحديث ، وحضر دروسا فى علم الاجتماع على ايميل دوركايم ، ثم على سلستان بوجليه ، وكلاهما فى مادته العلمية من الثقات ذوى الشهرة العالمية ، وقد عكف تحت اشرافهما على تحضير رسالته فى الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون ، ونال بها الدكتوراه فى يناير ١٩١٨ ..

والى جانب ما تقدم من الدراسات كان الدكتور طه حسين يدرس كذلك ، على أساتذة آخرين من الأعلام ، تاريخ العصور الوسطى عامة وتاريخ بيزنطة خاصة ، فضلا عن الأدب الفرنسى وفلسفة ديكارت

فى أثناء ذلك كله كانت الحرب قد تحولت من حرب ميادين الى حرب خنادق ، فطالت حتى أملت ، فلما أهلت سنة ١٩١٨ كانت لم تنته بعد ولكنها كانت مشرفة على الانتهاء . وأما الدكتور طه حسين فقد كان جهاده العلمى كما رأينا على أشده طوال هذه الحرب العالمية

ولقد انتهت الحرب فى ١١ نوفمبر عام ١٩١٨ ولم ينته جهاده الا فى يونية ١٩١٩ ، وهو تاريخ تقدمه للحصول على دبلوم الدراسات العليا برسالة تتصل بالقانون المدنى الرومانى ، وقد كان عليه فى تأدية الامتحان الاستشهاد بالنصوص فى أصلها اللاتينى ، فأدى الامتحان على أتم نجاح ،

وحصل على الدبلوم بدرجة ممتاز.

وهكذا عاد الفتى المصرى يحمل ـ فوق ما حصله فى بلاده قبل سفره ـ ما حصله بعد مغادرتها فى بعثته من هذه الثقافات. كلها التى تزود بها من جامعات الغرب ، عائدا الى الوطن العربى لينفع بما حصله جميعا أبناء العروبة أجمعين

● العودة الى الوطن ●

وعلى أثر عودة الدكتور طه حسين الى الوطن عين أستاذا بالجامعة المصرية ، وكان أول ما تولاه تدريس التاريخ القديم (اليونانى والرومانى) . وفى أثناء ذلك أخرج كتابه « الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها فى المدنية » كما ظل ينشر فى صحيفة الجامعة ما كان يلقيه على الطلاب من دروس فى التاريخ القديم

وفى الوقت نفسه أخرج الى جمهور القارئين كتابا يجلو عليهم فيه صحفا مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان ، ثم اشترك فى ترجمة كتاب « الواجب » تأليف جول سيمون عن الفرنسية ، وأعقبه بترجمة « نظام الأثينيين » لأرسطو عن اليونانية ، ثم « روح التربية » تأليف جوستاف لوبون عن الفرنسية

وكانت فى مصر وقتئذ حركة مسرحية ناهضة ، فأخذ على نفسه تنبيه الوعى المسرحى بتعريف جمهورنا بروائع المسرح الفرنسى لتربية ملكة النقد عندهم ، فمضى ينشر كل شهر فى مجلة « الهلال » ملخصا تحليليا لروائع المسرح الفرنسى مع التقديم لها والتعقيب عليها

كذلك رأى فى عنايته بتنشئة الشباب أن يرفع نصب عيونهم نماذج مثالية من نوابغ البشرية ليكونوا لهم بمثابة المرشد الهادى والقدوة الصالحة ، فطلع عليهم بكتابه « قادة الفكر » يستمتعون فيه بأمتع ما يكون من العرض الشائق لتلك الشخصيات ، وينتفعون منه بأنفع ما يكون من التعريف الموجز الوافى بتلك الأفكار العميقة الشامخات.

كما استفتح بابا للأدب خاصة لقراء الصحف بسلسلة أحاديثـه فى صحيفة « السياسة » عن الشعراء المجددين فى العصر العباسى ، ومن بينهم بعض المجّان العابثين باعتبارهم يمثلون من عصرهم بعض نواحيه ، فلا تكمل له صورة بغيرهم

● أزمة الشعر الجاهلى ●

ولما كان الدكتور طه حسين ، مع ولعه بالتراث القديم واحاطته به وحرصه عليه ، مولعا بالتجديد فى دراسة هذا التراث ، مبتدئا بتحقيقه وتمحيص مصادره لينتهى الى اعادة تقييمه تبعا لما ينجلى من حقيقته ، فقد أصدر كتابه « فى الشعر الجاهلى » متوخيا فيه أن يفسح المجالات لمختلف النظريات يأتى بها ، غير محاول التحيف من صراحها ، أو اشراك غيره فيها للتخفف من تبعتهـا ، وقد قامت القيـامة على هذا الكتاب وصاحبه ، وكان عامل الحزبية المعارضـة هو المحرك الأول لها . وقد هددت الوزارة القائمة يومئذ بالاستقالة ، فانتقـل الحزب المعـارض بالخصومة من البرلمان الى النيابة التى انتهت الى الحل الذى ينهى الأزمة ، وهو حجب الكتاب عن البيع فى المكتبات

هذه الضجة التى أثارها هذا الكتاب من كتب الدكتور طه حسين لم تكن الأولى من نوعها ، فقد سبقتها منذ سنوات ضجة أخرى خرقاء من أجل كتابه « تجديد ذكرى أبى العلاء » اذ قدم أحد أعضاء الجمعيـة التشريعية سؤالا فى الجمعية التشريعية ، مطالبا فيه بحرمان «طه حسين» من حقوق الجامعيين لأنه ألّف كتابا فيه الحاد وكفر ، متناسيا ان ذلك الكتاب أجازه للدكتوراه ثلاثة من أئمة مشايخ الأزهر العلمـاء الذين لا يمكن أن يجترىء السائل أو غيره على التعرض لهم فى دينهم أو علمهم بأدنى الشبهة وأيسر النكر

ولقد اتفق فى ذلك الحين ان كان رئيس الجمعية التشريعية سـعد زغلول ، فدعى صاحب السؤال الى العـدول عن سؤاله ، بحجة أنه

لا يسيء الى الجامعة الحديثة المقصودة بالاساءة وحدها ، بل الى الجامعة والأزهر جميعا ، فلم يكتب للضجة أن يطول عمرها ويندلع شرها فى تلك المرة . أما فى هذه المرة الأخيرة فقد كان للسياسة الحزبية فيها الشأن الأكبر ، اذ كان التطاحن بين الاحزاب على الحكم يستخدم فيه كل سلاح ، ولو كانت فيه الجناية على من ليس عليه جناح ، طالما امتد أثر الاصابة من قريب أو بعيد الى الحزب الآخر فنال منه ، وأحرج موقفه ، وزعزع استقراره وأفقده مكانته ..

● عميدالادب ومعارك العمادة ●

ولم تكن هذه الأزمة التى مر بها الدكتور طه حسين لتفت فى عضد الجامعة المصرية الشابة ، أو لتضعف من الروح الاستقلالية عندها ، فلقد أعلنت ارادتها عام ١٩٢٨ بتعيين الدكتور طه حسين عميدا للأدب فيها مكان العميد الفرنسى . وهنا تجددت الأزمة السياسية اذ كان الوزير فى هذه الآونة من غير الحزب الصديق ، فرغب الى الدكتور طه حسين أن يستقيل .. وحسما للأمر قبل الدكتور أن يستقيل بشرط اعتماد تعيينه أولا ، فعيّن يوما وقّع فيه بعض الأوراق فى الصباح ، وفى المساء قدم استقالته ، وأعيد تعيين العميد الفرنسى

فلما انتهت مدة العميد الفرنسى سنة ١٩٣٠ عادت الكلية فانتخبت الدكتور طه حسين عميدا للأدب ، ووافق على تعيينه وزير المعارف فى الوزارة الجديدة . وبعد يومين طلب منه أن يستقيل من الحكومة ليصبح رئيس تحرير فى جريدة الوزارة الجديدة وحزبها الجديد . فرفض وآثر البقاء عميدا للأدب ..

فنقمت الحكومة عليه وأضمرت له الحفيظة ، الى أن جاء يوم أرادت فيه الحكومة منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين ، فأبى عليها عميد الأدب ذلك حفاظا على مكانة الدكتوراه ، فاحتالت

الحكومة للخروج من حرج موقفها الى العدول عن كلية الآداب الى كلية الحقوق ..

ولكن هذا الموقف من عميد الأدب الدكتور طه حسين ترتب عليه نقله الى وزارة المعارف ، فنفذ الأمر ، ولكنه رفض أن يزاول عملا الا فى كلية الآداب فى الجامعة اذ كان تعيينه بها فى صلب قرار انشائها

فلم يكن من رئيس الحكومة الا أن أحاله فى ٢٩ مارس ١٩٣٢ الى التقاعد ..

كل هذا الذى رأيناه من اقحام السياسة الحزبية لنفسها فى كل مكان ، هو الذى فتح الباب الذى كان منه مدخل الدكتور طه حسين الى الميدان السياسى ، واشتغاله بالكتابة الصحفية الى جانب العمل الأدبى ..

وتداولت على دست الحكومة هذه الوزارات الحزبية مرة بعد الأخرى. الى أن أعادته وزارة محايدة أستاذا فى كلية الآداب فى ديسمبر ١٩٣٦ ، فلما خلا كرسى العمادة عام ١٩٣٨ انتخب عميدا ، واستمر فى العمادة حتى مايو ١٩٣٩ ، ثم أعيد انتخابه ، فأبت الحكومة تعيينه ، فاضطر الى الاستعفاء من العمادة والبقاء أستاذا

● العمادة والقيادة الادبية ●

وأخيرا فى سنة ١٩٤٢ هادنه الدهر وصفت له الأيام ، فعين مستشارا فنيا لوزارة المعارف ومديرا لجامعة الاسكندرية معا . وفى هذه الفترة أسعدنى الحظ بالاتصال الشخصى به والعمل معه فى مكتبه ، الى أن أحيل ثانية للتقاعد فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٤ . ثم بعد خمس سنوات ونيف عاد لوزارة المعارف للمرة الاخيرة وزيرا ، فكان من مآثره أن قرر مجانية التعليم العام لايمانه بأن التعليم ضرورى للناس ضرورة الماء والهواء

ومع هذه التقلبات جميعا ، ظل الدكتور طه حسين ، عند القارئين أجمعين من أهل هذا البلد الأمين بل فى الوطن العربى كله ، وفيما وراءه عند سائر المستشرقين ، معروفا باللقب الثابت « عميد الأدب » . وذلك

أن هذا اللقب حين أطلق على طه حسين ، لم يعد منحصرا فى المنصب ، بل قد تجاوزه الى ما هو أعم وأسمى ، حتى أن فى النـاس من كانوا يخاطبونه به وهو وزير ، بل انى لأحسبهم مخاطبيه بلقب العمادة لو أنه لم يجلس قط فى كرسى العمادة . فالدكتور طه حسين يمت الى هذا اللقب بكل سبب ، فهو عميد الأدب بحكم دراساته الجامعية ، وبحكم ما تمرس به من الأستاذية ، وبحكم ما له من القدرة ــ رئيسا كان أو غير رئيس ــ على امتلاك ناصية الأمور وأزمتها القيادية . ونختصر هذا جميعه بكلمة جامعة وهى روحه الجامعية . وهو كذلك عميد للأدب بما سطره على هامش السيرة النبوية ، وما جلاه فى مرآة الاسلام من فضائل الاسلام ، وما استقصاه وحققه من تواريخ الخلفاء الراشدين العظام ، فضلا عن مؤلفاته الجمة فى كل فن من الفنون الأدبية المعروفة فى العربية ، وغير المعروفة الا فى الآداب الغربية ، ثم ما خص به من الاستعدادات الشخصية لعقد أواصر المودة والتفاهم الفكرى بين الشرق والغرب ، وغير ذلك مما يمكن اختصاره فى كلمتين وهما نزعته العربية الانسانية

ولما كان هذا اللقب ، لقب « عميد الأدب » قد بلغ من اشتهار الدكتور طه حسين به أن صار باجماع العالم العربى كله علما عليه ، فاننا يحلو لنا هنا أن ننشد بين يديه ما قاله أبو العتاهية فى بيتيه المشهورين بعد التصرف فى لفظ واحد منهما :

أتته « العمـادة » منقـادة اليـــه تجرر أذيالهـــا

فلم تك تصـــلح الا له ولم يك يصلح الا لهـــا

وأما بعد هذه التحية المتواضعة التى نرفعها لعميد الأدب فى أوج مجده وعنفوان كهولته ، فاننا نستأذن فى التحدث الى القراء عن وصفه لحداثته فى كتاب « الأيام » ، ذلك الكتاب الذى أجتمعت كلمة القراء جميعا على انه من معجزات عبقريته ، بل أحبها اليهم وأشجاها فى نفوسهم ، وأقربها الى قلوبهم ..

● كتاب الايام ●

قرأت كتاب « الأيام » لأستاذنا الدكتور طه حسين أكثر من مرة ، فما أحسست مرة أنه ترجمة حياة يرويها ، بل كان احساسى فى كل مرة انه حديث من يحدث نفسه وقد خلا بها يناجيها ويسترجع ماضيها

والكتاب هنا ، هو الكتاب الأول للأيام الذى نقصر القول عليه لضيق المقام . هذا الكتاب كلما تناولته لأقرأه — وأنا كثير القراءة له — لا ألبث أن أذهل عن حسى ، فأحسبنى لا أقرأ ، وانما استرق السمع على نفس وصاحبها ، وهما يتناجيان ، ويتذاكران ما كان بحيث لايسمعهما انسان ..

فلا غرو اذا ألفيتنى — وأنا أقرأه — قابعا فى غرفتى ملتزما جلسنى ، وقد أمسكت أنفاسى ، مشفقا أن أتحرك أدنى حركة أو تبدر منى كلمة ، فتفوتنى لمحة من هذه الرؤيا أو ينقطع عنى وحى النجوى ، وأنا الذى لا أحرص على شىء حرصى على أن تتكرر تلك الذكريات فى جملتها وتفصيلها على عينى وسمعى وخيالى وذهنى جميعا .. تلك الذكريات الرائعة فى خصوصها وعمومها ، الشائقة فى مشاهدها الواقعة ومواقفها المثيرة الفاجعة ..

● ماساة صبى ●

هذا الكتاب لا يكاد تنفتح دفتاه ، حتى يتراءى لنا بطله فى صباه ، وهو يجاوز التاسعة من عمره ، وقد انفلت من بيته الى الطريق قبل غيره مكفوف البصر فى حيرة من أمره

وهذه المأساة من مآسى الحياة ، أظهرنا عليها الكاتب — فى براعة وأى براعة — فى مستهل كتابه ، حين همس الينا فى الابتداء بلفظ غنى بالايحاء ، يجمع فى تحفظه بين الحياء والكبرياء ، وهو قوله « لا يذكر » الذى جاء — كما يذكر القراء — فى أول عبارة انفرجت بها شفتاه ونطق بها فاه :

« لا يذكر من هذا اليوم وقتا بعينه ، وانما يقرب ذلك تقريبا . وأكبر ظنه ان هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم فى فجره أو عشائه . يرجح ذلك ، لأنه يذكر ان وجهه تلقى فى ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذى لم تذهب به حرارة الشمس . ويرجح ذلك لأنه ـ على جهله حقيقة النور والظلمة ـ يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورا هادئا لطيفا كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه . ثم يرجح ذلك ، لأنه يكاد يذكر انه حين تلقى هذا الهواء وهذا الضياء لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية ، وانما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه »

كذلك نرى صاحب الأيام عند استئنافه الحديث عن الصبى كاشفا لنا عن تصاريف حياته ، يحرص كل الحرص على كلمة الابتداء لما فيها من الايحاء ، فلا يبرح يردد قوله « لا يذكر » فى مواضعها المرة بعد المرة فى سائر كتابه ، ليردنا فى الفينة بعد الفينة الى ما ينبغى أن نظل فيه حتى النهاية ، ونعنى به ذلك الجو المبهم الذى يعيش فيه الصبى بطل الرواية

● القرية ودنياها ●

وطبيعى بعد ما تقدم من تعريف صاحب الأيام بنفسه وهو صبى ، أن ينتقل الى التعريف بقريته . والمعروف أن قريته هى عزبة « الكيلو » التى يرجع اسمها الى كونها على مسافة كيلومتر من مدينة مغاغة . ولكن المؤلف الفنان لا يسميها ، لأن تحديدها يحد من خيال القارىء أولا ، ومن ناحية أخرى لأن المؤلف لم يردها قرية بعينها ، وذلك لتكون على هذا الوجه من الاطلاق ، ممثلة للقرية المصرية فى أواخر القرن الغابر عامة ، مذ كانت سائر القرى متشابهة لا تكاد واحدة تتميز عن الأخرى بشىء فيها ..

وأيا كانت الحال ، فان الصبى لم تبق له من هذه الآونة ذكرى واضحة بيّنة ، فهو على حد قول المؤلف :

« لا يذكر من القرية الا ذلك السياج الذى كان يقوم أمامه من القصب ، والذى لم يكن بينه وبين باب الدار الا خطوات قصار . ويذكر ان هذا السياج كان يمتد عن شماله الى حيث لا يعلم له نهاية . وكان يمتد عن يمينه الى آخر الدنيا قريبا من هذه الناحية ، فقد كانت تنتهى الى قناة » ..

ومع ذلك ، فقد كان على الصبى أن يستكشف الدنيا هنالك ، بكل ما يستطاع من وسيلة غير حاسة الابصار.. ولقد استكشفها .. استكشفها فى الدار وسط الأسرة فى مقامه بين والديه وبين اخوته الكثار ، فاستبان نوع ما كان من علاقته معهم ، ومع أمه وأبيه من قبلهم ، وما كان واجده عند هؤلاء وهؤلاء مع الاشفاق عليه من الاهمال المشوب بشىء من الازدراء ، لم يلبث أن أحس حقيقته ، ثم أدرك على الأثر علته التى لا ذنب له فيها ، فكان ذلك يسلمه حين يذكره الى الصمت العميق الحزين .. أما استكشافات الصبى خارج الدار ، فهو يذكر فيما يذكره منها :

● مع شاعر القرية فى المساء ●

« كان يحب الخروج من الدار اذا غربت الشمس وتعشى الناس ، فيعتمد على قصب هذا السياج مفكرا مغرقا فى التفكير ، حتى يرده الى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتف حوله الناس وأخذ ينشدهم فى نغمة عذبة غريبة أخبار أبى زيد الهلالى وخليفة ودياب ، وهم سكوت الا حين يستخفهم الطرب أو تستفزهم الشهوة ، فيستعيدون ويتمارون ويختصمون ، ويسكت الشاعر حتى يفرغوا من لغطهم بعد وقت قصير أو طويل ، ثم يستأنف انشاده العذب بنغمته التى لا تكاد تتغير » ..

● مع العفاريت فى الليل ●

ولم يكن الأمر عند الفتى مقصــورا على ما كان يتولاه بنفسه من استكشاف للدنيا من حوله ، بل كان قد بلغ من وقوعه تحت تأثير ما كان يتردد على سمعه من أوهام أهل القرية ، ان استبدت به هذه الأوهام ، فكان اذا أخذه النوم فى مرقده من الحجرة الصغيرة :

« لا يلبث أن يستيقظ والناس نيام ، من حوله اخوته واخواته يغطون فيسرفون فى الغطيط ، فيلقى اللحاف على وجهه فى خيفة وتردد لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه

« وكان واثقا انه ان كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف فلا بد من أن يعبث به عفريت من العفاريت الكثيرة التى كانت تعمر أقطار البيت وتملأ أرجاءه ونواحيه ، والتى كانت تهبط تحت الأرض ما أضاءت الشمس واضطرب الناس ، فاذا أوت الشمس الى كهفها ، والناس الى مضاجعهم ، وأطفئت السرج ، وهدأت الأصوات ؛ صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطرابا وتهامسا وصياحا ..

*

« وكان كثيرا ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج ، ويجتهد فى التمييز بين هذه الأصوات المختلفــة ، فأما بعضها فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثا وكيدا . ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا يهابها لأنها كانت تصل اليه من بعيد ، انما كان يخاف الخوف كله أصواتا أخرى لم يكن يتبينها الا بمشقة وجهد ، كانت تنبعث من زوايا الحجرة نحيفة ضئيلة ، يمثل بعضها أزيز المرجل يغلى على النار ، ويمثل بعضها الآخر حركة متاع خفيف ينقل من مكان الى مكان ، ويمثل بعضها خشبا ينقضم أو عودا يتحطم

« وكان يخاف أشد الخوف أشــخاصا يتمثلها قد وقفت على باب

الحجرة فسدته سدا ، وأخذت تأتى بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة فى حلقات الذكر . وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة ، الا أن يلتف فى لحافه من الرأس الى القدم دون أن يدع بينه وبين الهواء منفذا أو ثغرة . وكان واثقا أنه ان ترك ثغرة فى لحافه فلا بد من أن تمتد منها يد عفريت الى جسمه فتناله بالغمز والعبث . لذلك كان يقضى ليله خائفا مضطربا الا حين يغلبه النوم ، وما كان يغلبه النوم الا قليلا »

هذه الغاية فى تصوير ما كان يؤرق ليل هذا الصبى ويعذبه من الهول والترويع ، لم يشأ صاحب الأيام أن يمضى فيها الى أبعد من ذلك ، فيفسد بالاطالة أثرها ويبعث على الملالة منها ، ومن ثمة نراه ينهى كلامه عن عفاريت الليل الوهمية ، ليعرض علينا صاحب الوهم نفسه الذى كان مثار قلقنا وموضع رحمتنا ، وقد تجول بالنهار هو نفسه عفريتا فى شغبه وعبثه بمن حوله وشيطنته ، ويحرص صاحب الأيام الحرص كله ، على ألا نفقد مع ذلك حبنا للصبى وحدبنا عليه ..

● الصغار عفاريت النهار ●

كان الصبى يستيقظ مبكرا ، أو قل كان يستيقظ فى السحر ، ويقضى شطرا طويلا من الليل فى هذه الأهوال والأوجال والخوف من العفاريت ، حتى اذا وصلت الى سمعه أصوات النساء يعـدن لبيوتهن وقد ملأن جرارهن من القناة وهن يتغنين « الله ياليل الله .. » عرف أن قد بزغ الفجر ، وأن قد هبطت العفاريت الى مستقرها من الأرض السفلى ، فاستحال هو عفريتا ، وأخذ يتحدث الى نفسه بصوت عال ، ويتغنى بما حفظ من نشيد الشاعر ، ويغمز من حوله من اخوته واخواته ، حتى يوقظهم واحدا واحدا . فاذا تم له ذلك ، فهناك الصياح والغناء ، وهناك الضجيج والعجيج ، وهناك الضوضاء التى لم يكن يضع لها حدا الا نهوض الوالد من سريره ودعاؤه بالابريق ليتوضأ . وحينئـذ تخفت

الأصوات وتهدأ الحركة ، حتى يتوضأ الشيخ ويصلى ويقرأ ورده ويشرب قهوته ويمضى الى عمله فاذا أغلق البـاب من دونه ، نهضت الجماعة كلها من الفراش وانسابت فى البيت صائحة لاعبة حتى تختلط بما فى البيت من طيور وماشية »

● التطور فى القرية وحياتهـا ●

ولقـد كره صاحب الأيام لنفسـه وللقارىء أن تسير الأيام مطردة متشابهة كأنها من التكرار يوم واحد ، فأكثر من الانتقالات ، على نحو أشبه بالوثبات ، معتذرا عن ذلك بقوله عند انتقاله الأول :

« ولكن ذاكرة الأطفال غريبة ، أو قل ذاكرة الانسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة ، فهى تتمثل بعض هذه الحوادث واضحا جليا كأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شىء ، ثم تمحى منها البعض الآخر كأن لم يكن بينها وبينه عهد »

*

واستنادا الى ذلك يكتفى صاحب الأيام باللمحـة التى سجل فيهـا صوت القرية وصورتها ذات يوم من الأيام الحاشدة فى حياته وحياتها ، ويقفز بالقارىء الى مثل ذلك ولكن فى المرحلة الثانية . فيقول عن صبينا أنه يذكر السياج والمزرعة التى كانت تنبسط من ورائه ، والقناة التى تنتهى اليها الدنيا ، ويذكر « سعيدا » الاعرابى الذى كان الناس يتحدثون بشره ومكره وحرصه على سفك الدماء ، وامرأته «كوابس» التى كانت قد اتخذت فى أنفها حلقة من الذهب كبيرة ، والتى كانت تختلف الى الدار وتقبل صبينا من حين الى حين فيؤذيه خزامها ويروعه ، فضلا عما كان من خوفه من كلاب العدويين . انه ليذكر ذلك :

« ولكنه يحاول أن يتذكر مصير هذا كله ، فلا يظفر من ذلك بشىء ، وكأنه قد نام ذات ليلة ثم أفاق من نومه فلم ير سـياجا ولا مزرعة

ولا سعيدا ولا كوابس ، وانما وجد مكان السياج والمزرعة بيوتا قائمة وشوارع منظمة ، وهو يذكر كثيرا من الذين كانوا يسكنون هـذه البيوت من الرجال والنساء ومن الأطفال الذين كانوا يعبثون فى هـذه الشوارع ..

ثم هو الى جانب هذا يذكر فى شىء من العجب انه كان يستطيع أن يتقدم يمينا وشمالا على شاطىء القناة دون أن يخشى كلاب العدويين أو مكر سعيد الأعرابى وامرأته ، بل كان يقضى ساعات من نهـاره على شاطىء القناة سعيدا مبتهجا بما سمع من نغمات « حسن » الشـاعر يتغنى الشعر فى أبو زيد ودياب ، وهو يرفع الماء بشادوفه ليسقى به زرعه على الشاطىء الآخر للقناة ..

كان الصبى يذكر هذا وأشياء أخرى الى جانب هذا ، ولكنه عاجز كل العجز ان يتذكر كيف استحالت الحال وتغير وجه الأرض من طوره الأول الى هذا الطور الجديد

● صور من الريف المصرى ●

ولو كان فى مجال القول هنا متسع لنا لمضينا فى عرض كتاب الأيام كله لوحة لوحة ، فهو وافر الغنى باللوحات الحيـة التى تمثل الريف المصرى .. لا فى مشاهده الخارجية كالطوابع البريدية الملونة (كارت بوستال) التى تقف فى تمثيلها الأشياء عند القشرة الظاهرة التى يلمسها كل انسان ، بل الريف المصرى كما يصوره صاحب الأيام فيتجاوز ما أفاده من حسن الاستماع وأحاط به محفوظه ، الى النفاذ من كل شىء الى روحه ، فاذا الريف المصرى صورة وروحا تتمثل فى نفوسنا ، بفضـل ما أوتيه صاحب ذلك القـلم السحرى من الحس المرهف الخفى ونظر البصيرة الكشفى ..

ولمـا كان الريف المصرى الذى يعنى صاحب الأيام به العناية كلها ، ليس هو الطبيعة فى الحقول أو القنوات والسواقى والجسور فى ذاتها ، بل البيئة الريفية من حيث أهلها رجالا ونساء وأطفالا وسائر ما يتعلق بهم ، فى مجتمعاتهم ، وفى خلواتهم فى دورهم وما بينهم وبين أنفسهم ؛ فاننا لا نحسبنا نخطىء اذا قلنا ان معجزة « الأيام » والآية الكبرى لصاحبها انما هى ــ قبل كل شىء ــ فى تصويره للشخصيات ، فضلا عن الجماعات ..

فأما الشخصيات ، فقد أخذ صاحب الأيام نفسه فى تصوير ما صوره من تلك الشخصيات أن يصورها عن الحياة ، فجاءت وفيها ــ مع عطف المصور الفنان ولطافة لمسه ــ قسوة الواقع نفسه

وقد يكون خير مصداق على ذلك الصورة التى رسمها لأبيه الذى كان أبا لثلاثة عشر من بناته وبنيه . لقد عرفنا فيها الأب الذى كان يرفق به ، دون أن يخلو هذا الرفق من شىء من الازدراء له اذ كان لا يحسن أن يتصرف فى الحياة مثل الآخرين . ولكن ذلك لم يكن يمنع الأب الكريم أن يصحح للصبى غلطه فى بعض الأحيان ، ويعلمه ما ينبغى فى صوت حزين . وهذا الأب لم يكن بالفقير ، الا أنه يعد على كل حال ضيق الموارد محدودها ، بالقياس الى ما كان يثقله من النفقات .. كان له ــ كما رأينا ــ أبناء كثيرون ، وكان يحرص على تعليمهم وتهذيبهم ، وكان يشق عليه أن يؤدى نفقات ذلك التعليم ، فيستدين من حين الى حين ويثقل عليه أداء الديون ، فيطمع فى أن يزداد مرتبه ، وأن يتقدم درجة ، وأن ينتقل من عمل الى عمل . وكان يلتمس هذا كله عند الله بالصلاة والدعاء والاستخارة ، دون أن يتحقق الأمل . فلم يلبث الأب عندما بلغ صبيه التاسعة وانقطع عن الكتّاب ، أن هدته طبيعته التقية العملية الى وجه للانتفاع بصبيه الضرير ، فكان يطلب اليه أن يقرأ عنه « عدية ياسين » توسلا به الى الله لأنه صبى ولأنه مكفوف ، وهو بهاتين

الميزتين أثير عند الله رفيع المكانة عنده . « وهل يرضى الله أن يرد صبيا مكفوفا حين يطلب اليه أمرا من الأمور متوسلا بقراءة القرآن ؟ »

*

وهنا أيضا اهتدى الأب بطبيعته التقية العملية فجعل للصبى على كل « عدية » أجرا : فأما العدية الصغرى فأجرها قطعة من السكر أو الحلوى ، وأما العدية الوسطى فأجرها خمسة مليمات ، وأما العدية الكبرى فأجرها عشرة . فكان الصبى كثيرا ما يخلو الى نفسه ويقرأ سورة « يس » أربع مرات ، أو سبعا ، أو احدى وأربعين

ونقف من صورة الأب عند هذا الحد ، لنتوسم الى جانبها صورة الجد ، وصورة الأم ، وتلك الأخت التى كانت تشفق عليه فلا تراه فى العشية خارج البيت الا وتدعوه الى الدخول فيأبى ، فتخرج فتشده من ثوبه فيمتنع عليها ، فتحمله بين ذراعيها كأنه الثمامة وتعدو به الى حيث تنيمه على الأرض ، وتضع رأسه على فخذ أمه .. أو صورة الأخ الأزهرى بمكانته المستمدة من مكانة الأزهر الشريف العظيمة ، وما تزدحم به القاهرة من المساجد الجامعة وأضرحة الأولياء وفى مقدمتهم ضريح « سيدنا الحسين » وضريح أم العواجز « السيدة زينب »

وقد جاء ذلك الأخ الأزهرى لزيارة أسرته ، فكان من اكرام أبويه وحفاوة أهل قريته أن جعلوه الخليفة فى موكب مولد النبى ، حين أقبل ذلك اليوم المشهود الذى اعتادوا استقباله بتلك الزفة المشهودة . وكانت الحجة فى وقوع الاختيار على هذا الأخ من أخوة الصبى خليفة أنه أزهرى قرأ العلم بالأزهر ، وحفظ الألفية والجوهرة والخريدة . فلا جرم يضير حلم الصبى فى نومه ويقظته ، أن يصحب أخاه الأزهرى الى الأزهر فى عودته ..

هؤلاء وغيرهم ممن اتصل الصبى بهم ، وارتسمت فى ذهنه صورة لهم ، كان بودنا أن ننقل بعض ملامحهم من كتاب الأيام ولكن يحول دون ذلك ضيق المقام

فلنكتف اذن من أسرة الصبى كلها عا نقلناه من صورة الأب باعتباره رب البيت ، وننتقل الى كتاب القرية الذى حمل الصبى اليـه ليحفظ القرآن ، حتى تتمثل لنا صورة لما كان عليه التعليم فى القرية وتتعرف شخصية سيدنا كما يصورها صاحب الأيام مستهلا كعادته بالاعتذار بأنه الصبى :

« لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده ، وان كان يذكر من حياته فى الكتاب مواقف كثيرة ، منها ما يضحكه الآن ، ومنها ما يحزنه . ومما يذكره الصبى انه فى ضحى يوم من الأيام وجد نفسه جالسا على الأرض بين يدى سيدنا ، ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع »

والقارىء لكتاب الأيام لا يمكن أن ينسى صورة « سيدنا » وهو فى جلسته التى اتخذها على دكة من الخشب صغيرة ليست بالعاليـة ولا بالمنخفضة ، وقد وضعت على يمين الداخل من باب الكتّاب ، حيث يمر كل داخل بسيدنا وقد خلع عباءته ، أو بعبارة أدق دفّيته ، وجعلها فى شكل المخدة عن يمينه يتكىء عليها ، وهو مخلوع النعلين ، متربعا على الدكة ينادى الصغار بأسمائهم ، وهو يتطلع كالمبصرين اليهم ، مع أنه مكفوف البصر الا من بصيص ضئيل جدا من النور فى احدى عينيه ، يمثل له الأشباح دون أن يمكنه من تمييزها . ولكنه كان يخدع نفسه ، ويظن أنه يخدع من حوله . بيد أن ذلك لم يمنع سيدنا من أن يعتمد فى طريقه الى الكتاب والى البيت على اثنين من تلاميذه ، يبسط ذراعه على كتفى كل واحـد منهما ويمشى الثـلاثة فى الطريق هكذا ، وقد أخذوها على المارة حتى ليتنحى المارة لهم عنها

وكان منظر سيدنا عجبا فى طريقه الى الكتاب والى البيت صـباحا ومساء . كان ضخما بادنا ، وكانت دفّيته تزيد فى ضخامته ، وكان كما

قدمنا يبسط ذراعيه على كتفى رفيقيه ، وكانوا ثلاثتهم يمشون وكأنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضربا . وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتا ، ذلك أنه كان يحب الغناء ، فكان يغنى ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حينا ، والاستماع له حينا آخر . وكان سيدنا يعجبه الدور أحيانا ويرى ان المشى لا يلائمه فيقف حتى يتمه .. !

*

ولسيدنا هذا أكثر من حكاية مع الصبى وأسرته بين احتفاله واهماله فى تحفيظه القرآن ، وما جر اليه ذلك من المآسى والمهازل

وتختفى عن ناظرنا صورة سيدنا ، ليطالعنا صاحب الأيام بصورة أخرى لشخصية أرقى من مشايخ البندر : شخصية قاضى الشرع الذى كانت الدكة التى يجلس عليها فى المحكمة مرتفعة قد وضعت عليها الطنافس والوسائد ، لا تقاس اليها دكة سيدنا . وليس حولها نعال مرقعة . وكان على بابه رجلان يقومان مقام الحاجب . والى هذه المحكمة كان يذهب صبينا فى كل صباح ، ليقرأ على القاضى بابا من أبواب الألفية . وكم كان القاضى يحسن القراءة ! وكم كان صوته يتهدج بقول ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم   واسم وفعل ثم حرف الكلم

ويأتى بعد القاضى الشرعى شخصية امام المسجد ، المعروف بالتقى والورع ، ولذا كان أهل القرية يتبركون به ، ويلتمسون عنده شفاء مرضاهم وقضاء حاجاتهم ، حتى أصبح يرى فى نفسه شيئا من الولاية ، والى جانب أولئك العلماء الرسميين علماء غير رسميين ، ومن هؤلاء ذلك الخياط المتصل بشيخ من كبار أهل الطرق ، ومن هنا ازدراؤه العلماء لأنهم يأخذون علمهم لا من الشيوخ مثله ، « فهو يرى أن العلم الصحيح انما هو العلم الذى يهبط على قلبك من عند الله . دون أن تحتاج الى كتاب ، بل دون أن تقرأ وتكتب »

ومن هذا القبيل شخصية هذا الشيخ الآخر الذى كان لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يحسن قراءة الفاتحة ، ولكنه شاذلى من أصحاب الطرق ، فكان يجمع الناس للذكر ، كما كان يقعد اليهم ليفتيهم فى أمور دنياهم ودينهم ..

● لوحات حية لحياة الجماعات●

وأما تصوير صاحب الأيام للجماعات ، فانه يمتاز بالحركة امتيازا يقل نظيره . والى هذه الميزة يرجع ما نحسه من فرط الحيوية فى تلك اللوحات التى يصور فيها الجماعات . وليس أكثر من الشواهد على ذلك فى كتاب الأيام ، ومنها هذه اللوحة التى تصور لنا اختيار الخليفة فى موكب المولد النبوى الذى سبقت اليه الاشارة

« لقد ظفر أخوه الأزهرى بهذه المكانة الممتازة فى نفس أبويه وأخوته وأهل القرية جميعا . ألم يكونوا جميعا يتحدثون بعودته قبل أن يعود بشهور ؟ حتى اذا جاء أقبلوا عليه فرحين مبتهجين متلطفين ؟ ألم يكن أبوه الشيخ يشرب كلامه شربا ويعيده على الناس فى اعجاب وفخار ؟ ألم يكن أهل القرية يتوسلون اليه أن يقرأ لهم درسا فى التوحيد أو الفقه ؟ وماذا عسى أن يكون التوحيد ؟ وماذا عسى أن يكون الفقه ؟ ثم ألم يكن الشيخ يتوسل اليه ملحا مستعطفا مسرفا فى الوعد ، باذلا ما استطاع وما لم يستطع من الأمانى ، ليلقى على الناس خطبة الجمعة فى هذا اليوم المشهود ، يوم مولد النبى ؟ ..

« ماذا لقى الأزهرى من اكرام وحفاوة ، ومن تجلة واكبار . كانوا قد اشتروا له قفطانا جديدا ، ومركوبا جديدا ، وكانوا يتحدثون بهذا اليوم وما سيكون منه قبل أن يظلهم بأيام ، حتى اذا أقبل هذا اليوم وانتصف أسرعت الأسرة الى طعامها فلم تصب منه الا قليلا ، ولبس الفتى الأزهرى ثيابه الجديدة ، واتخذ فى هذا اليوم عمامة خضراء . وألقى على كتفيه شالا من الكشمير ، وأمه تدعو وتتلو التعاويذ ، وأبوه

يخرج ويدخل جذلا مضطربا . حتى اذا تم للفتى من زيه وهيئته ما كان يريد ، خرج فاذا فرس ينتظره بالباب ، واذا الرجال يحملونه فيضعونه على السرج ، واذا قوم يكتنفونه من يمين ومن شمال ، وآخرون يسعون بين يديه ، وآخرون يمشون من خلفه واذا البنادق تطلق فى الفضاء ؛ واذا النساء يزغردن من كل ناحية ، واذا الجو يتأرجح بعرف البخور ، واذا الأصوات ترتفع متغنية بمدح النبى ، واذا هذا الحفل كله يتحرك ببطء وكأنما تتحرك معه الأرض وما عليها من دور ، كل ذلك لأن هذا الفتى قد اتخذ فى اليوم خليفة ، فهو يطاف به فى المدينة وما حولها من القرى فى هذا المهرجان الباهر » ..

ومثل هذه الحركة نجدها فى مواضع عدة من كتاب الأيام ، كما فى الفقرة « ١٥ » التى تصور مشايخ الطرق فى الريف المصرى . وهى من اللوحات التى نجد فيها ألوانا مما عند صاحب الأيام من الفكاهة الباسمة حينا الناقمة فى معظم الأحيان ..

● فى الظلام مع اليأس والاحزان ●

على أننا نجد الحركة على أشدها فى تصوير المشاهد المروعة ؛ كمحاولة الصبى الضرير قتل نفسه من فرط يأسه على قفاه ، وهى ــ كما رسمها صاحب الأيام الفنان ــ صورة تجمع بين الفاجع الرهيب والمضحك الغريب . أما الحركة فى تصوير وقائع الارزاء فهى عنيفة فاجعة حقا ، مثل وفاة الطفلة أخت الصبى الصغرى فى اليوم الرابع من مرضها ، وهو اليوم الذى عرفت فيه الأم ان شبحا مخيفا يحلق على هذه الدار التى لم يكن الموت قد دخلها من قبل

وأعنف من ذلك وأفجع ، فجيعة الأسرة أجمع فيمن يعدّونه بين سائر الولد بمثابة واسطة العقد عند اصابته بالكوليرا الوافدة عام ١٩٠٢ ووفاته على الأثر فى الربيع الثامن من عمره يوم ٢١ أغسطس . وهذا

التاريخ لم يبرح مذكورا عند الصبى حتى يومنا هذا على نحو ما هو مذكور فى كتاب « الأيام » ..

« ومن ذلك اليوم تغيرت نفسية صبينا تغيرا تاما ، عرف الله حقا ، وحرص على أن يتقرب اليه بكل ألوان التقرب ، بالصدقة حينا وبالصلاة حينا آخر وبتلاوة القرآن مرة ثالثة . ولقد ذكر الصبى ان أخاه كان فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان الصبى يستمع من الشيوخ ان الصلاة والصوم فرض على الانسان متى بلغ الخامسة عشرة ، ولما كان أخوه من أبناء المدارس وأكبر الظن أنه كان يقصر فى أداء واجباته الدينية ، فقد قدر الصبى فى نفسه ان أخاه مدين لله بالصوم والصلاة ثلاثة أعوام كاملة ، ففرض الصبى على نفسه ليصلين الصلوات الخمس فى كل يوم مرتين ، مرة لنفسه ومرة لأخيه ، وليصومن من السنة شهرين شهرا لنفسه وشهرا لأخيه ، وليكتمنَّ ذلك عن أهله جميعا ، وليجعلن ذلك عهدا بينه وبين الله خاصة . وشهد الله لقد وفى الصبى بهذا العهد أشهرا ، وما تغيرت سيرته هذه الا حين ذهب الى الأزهر »

● فى القاهرة ●

ويروى لنا صاحب الأيام خبر صبينا وقد هبط القاهرة مع أخيه الأزهرى ليدرس فى الأزهر ، وقد أبى أن يدرس الا ما يدرسه أخوه ليكون مثله فى نظر أبيه وأهل قريته . فأراد أخوه أن يدل على امتيازه فقال له :

« ستذهب معى الآن الى مسجد كذا ، وستحضر درسا ليس لك وانما هو لى ، حتى اذا فرغنا من هذا الدرس ذهبت بك الى الأزهر »

فسأل الصبى : « ومن الشيخ الذى سأحضر درسه قبل الذهاب الى الأزهر ؟ » ..

قال أخوه : « هو الشيخ .. »

وكان الصبى قد سمع اسم الشيخ .. ألف مرة ومرة . فقد كان أبوه يذكر هذا الاسم ، ويفتخر بأنه عرف الشيخ حين كان قاضيا للاقليم . وكان أبو الصبى يسأل ابنه الازهرى كلما عاد من القاهرة عن الشيخ ودروسه وعدد طلابه . وكان ابنه الأزهرى يحدثه عن الشيخ ومكانته فى المحكمة العليا وحلقته التى كانت تعد بالمئات .. كان الصبى اذن يعرف الشيخ وكان سعيدا بالذهاب الى حلقته والاستماع له

*

وكم كان مبتهجا حين خلع نعليه عند باب المسجد ومشى على الحصير ثم على الرخام ثم على البساط الرقيق الذى فرش به المسجد

وكم كان سعيدا حين أخذ مكانه فى الحلقة على هذا البساط الى جانب عمود الرخام الذى لمسه فأحب ملامسته . وأطال الصبى التفكير فى قول أبيه : « انى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك صاحب عمود فى الأزهر » ..

وفيما هو يفكر فى هذا وللطلاب من حوله دوى غريب أحس أن هذا الدوى يخف ثم ينقطع ، وغمزه أخوه بيده قائلا فى صوت خافت : « لقد أقبل الشيخ »

اجتمعت شخصية الصبى كلها حينئذ فى أذنيه وأنصت : ماذا يسمع ؟ يسمع صوتا خافتا هادئا رزينا ملؤه شىء قل انه الكبر أو قل انه الجلال أو قل ما شئت . ولكنه شىء غريب لم يحبه الصبى

ولبث الصبى دقائق لا يميز مما يقول الشيخ حرفا ، حتى اذا تعودت أذناه الشيخ وصدى المكان ، سمع وتبين وفهم . وقد أقسم بعد ذلك أنه احتقر العلم منذ ذلك اليوم

سمع الشيخ يقول :

« ولو قال لها أنت طالق أو أنت ظلام أو أنت طلال أو انت طلاة وقع الطلاق ولا عبرة بتغيير اللفظ

يقول ذلك متغنيا به مرتلا له ترتيلا فى صوت لا يخلو من حشرجة ،

لكن صاحبه يحتال أن يجعله عذبا ثم يختم هذا الغناء بهذه الكلمة التى أعادها طوال الدرس : « فاهم يا أدع » هذا ما هو ؟

حتى اذا أتصرف عن الدرس سأل أخاه : « ما الأدع ؟ » فقهقه أخوه وقال : « الأدع الجدع فى لغة الشيخ »

ومضى به أخوه بعد ذلك الى الأزهر فقدمه الى أستاذه الذى علمه مبادىء الفقه والنحو سنة كاملة

وهكذا ختم صاحب الأيام الجزء الأول من كتاب «الأيام» بهذه الخاتمة المتهكمة ، أو على الأصح هذه الضحكة المكتومة المتفجرة . ساخرا بهذا النوع من العلم الذى يتعالم به ويلقنه لعشرات المئات من طلاب العلم بعض من اشتهروا من المشايخ الأكابر من علماء الجيل القديم . ولم تكن هذه الضحكة التى ختم بها صاحب الأيام كتابه بالضحكة التى ذهبت فى الهواء ، بل كانت ايذانا بالثورة العارمة على الجمود والرجعية ، واعلانا للحركة التقدمية فى بلاده العربية وانضماما الى ركب الحضارة العالمية ، وتأييدا للمنهج العلمى الذى يحمل مشاعل النور ويطلق الحرية للفكر والضمير ..

● صاحب الايام يحيى ملاكه الحارس ●

وبعد هذا كله ، وبالتحديد فى يونية عام ١٩٢٧ ، ينصرف عميد الأدب الى ابنته وهى فى التاسعة من عمرها ، ليظهرها على حياة أبيها وهو فى سنها ، وما عاناه من جهاد شاق فى صباه للتغلب على ما ابتلى به من عوائق فى نفسه ، من عجز فى بصره وضعف فى بدنه ، وما ابتلى به من عوائق فى بيئته الريفية ، من سيادة الأمية ، وغلبة الجهالة على المعرفة العلمية ، وتسلط الخرافة على الدين ، وغير ذلك مما أتى كتابه على وصفه ، مختتما بقوله :

« كذلك كان يعيش أبوك . فان سألتنى كيف انتهى الى حيث هو الآن ؟ وكيف أصبح شكله مقبولا لا تقتحمه العين ولا تزدريه ؟ وكيف

استطاع أن يهيىء لك ولأخيك ما أنتما فيه من حياة راضية ؟.. وكيف استطاع أن يثير فى نفوس كثير من النـاس ما يثير من حسد وحقـد وضغينة ؟ وان يثير فى نفوس ناس آخرين ما يثير من رضا عنه واكرام له وتشجيع ؟ ان سألت كيف انتقل من تلك الحال الى هذه الحال ، فلن أستطيع أن أجيبك ، وانما هناك شخص آخر هو الذى يستطيع هـذا الجواب ، فسليه ينبئك ..

« أتعرفينه ؟ أنظرى اليه ، هو هذا الملك القـائم الذى يحنو على سريرك اذا أمسيت لتستقبلى الليل فى هدوء ونوم لذيذ ، ويحنو على سريرك اذا أصبحت لتستقبلى النهار فى سرور وابتهاج . ألست مدينة لهذا الملك بما أنت فيه من هدوء الليل وبهجة النهار .. لقد حنا يا بنتى هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ، ومن الفقر غنى ، ومن الشقاء سعادة وصفوا ..

« ليس دين أبيك لهذا الملك بأقل من دينك ، فلتتعاونا يابنتى على أداء هذا الدين ، وما أنتما ببالغين من ذلك بعض ما تريدان »

*

هذا أيها القارىء كتاب « الأيام » الذى قرأناه منذ طويل السنين ، ولا نزال نقرؤه كل حين ، كما لا يزال يقرؤه أبناؤنا من بعدنا ، ومن بعدهم أبناء أبنائنا وأحفاد أحفادنا الى يوم الدين ، وهو فوق ذلك قد ترجم الى كل لسان ، وعكف على قراءته الملايين فى معظم أقطار الأرض . والحق أنه يستحق كل هذا وأكثر من كل هذا . فهو عندنا معجزة فى كل شىء : فى لغته التى لا يعدل بلاغتها غير بساطتها ، وفى صـدقه المطلق فيما يرويه عن قريته وأهل قريته والمدينة المجاورة لقريته ، بل فيما يتصل بذويه حتى أمه وأبيه ، ومن فوق هؤلاء أجمعين فيما يتعلق بذات نفسه . وأخيرا وليس آخرا ، ذلك الاحكام فى البناء الهندسى للقصة ، والقالب الفنى الذى اتسقت فيه الفصول ، وانصب فيه سياق الكلام ، حتى بلغ الكتاب بذلك كله حد الكمال والتمام

أستاذى طه حسين

د. سهير القلماوى

أسبوع فاصل فى حياتى . ما زلت أذكر أحداثه وأستعيد الاحساسات التى مرت بى فيه ، فأحسها وكأن دوافعها وأسبابها ما زالت قائمة . كان ذلك الأسبوع فى شهر سبتمبر عام ١٩٢٩ ، وكنت قد قدمت أوراقى وعانيت كثيرا فى جمعها وترتيبها . وسلمتها لمسجل كلية العلوم فى الجامعة المصرية ـ كما كانت تسمى اذ ذاك ـ وكنت كلما سألت عما تم فى شأنها يقال لى : « ان العميد الأستاذ « بانجهام » لم يعد بعد من اجازته ليفصل فى أمرها » ..

وفى أوائل الأسبوع المشهود . علمت بوصول عميد كلية العلوم الذى كان سيقبلنى فى السنة الأولى أو الاعدادية لكلية الطب أو لايقبلنى . كان بيده فيما كنت أتصور أن يفتح أمامى أبواب مستقبل ظلت أحلامه تداعبنى منذ استطعت أن أتطلع الى المستقبل حالمة مؤملة . ولكن الأستاذ الانجليزى ـ سامحه الله ـ عاد وقرر عدم قبولى طالبة فى الكلية ..

واستنجدت بناظرة مدرستى الثانوية وطلبت من العميد موعدا وكانت مقابلة تاريخية فى حياتى دار فيها الحديث على هذا النحو :

ـ اعقد لى امتحانا فاذا لم أنجح بثمانين فى المائة على الأقل لا تقبلنى ..

ـ ليس من سلطتى عقد امتحانات على هذا النحو ..

ــ اقبلنى تحت التجربة فاذا لم أنجح آخر العام بهذه النسبة فافصلنى ..

ــ آسف .. ليس فى القوانين ما يخول لى ذلك .. يا آنسة باختصار كل ما أقدمه لك فى حدود القانون انى أستطيع أن أستقبلك فى معامل الكلية باحثة حرة هاوية !

وانتهت المقابلة .. وقالت ناظرتى :

ــ ليس أمامك الا السفر الى الخارج

قلت :

ــ لن يسمح لى والدى بالسفر وأنا فى السابعة عشرة من عمرى ..

ومرَّ يوم ويومان لم أفتر ولم أنِ .. وطرقت كل باب . وجاء قريب لنا كنت أخاطبه بخالى لأنه أخ لخالتى فى الرضاع وقال :

ــ كل مجلس الجامعة كان يعطف على طلبك ولكن العميد الانجليزى هدد بالاستقالة اذا قبلت طالبة فى كلية الطب

وقبل أن أضيع فى عالم اليأس والحزن قال :

ــ ما رأيك .. نزور الدكتور طه حسين فى بيته فهو صديقى ونسأله المشورة ؟ ..

قلت :

ــ أى شىء الا أن أمكث فى البيت وأتزوج برجل لا أراه الا بعد كتابة العقد كما فعلوا بأختى ..

كنت أقرأ لأبى بعد أن ضعف بصره مقالات طه حسين ، والعقاد ، وهيكل ، وكان ــ رحمه الله ــ يصلح من لغتى ويهذب من لهجتى ويعلمنى الاعراب ، ويحيلنى الى كتبه لأقرأ مزيدا من شعر ونثر عربيين قديمين .. ولكنى لم أكن أحب من كل هذا شيئا .. كنت بكل ما فىَّ أسعى لأن أكون طبيبة ، وكان تفوقى فى العلوم والرياضة تفوقا أثار اعجاب مدرساتى هو الذى برر عندى هذا الاندفاع فى أملى الأكبر . كنت أكاد أعبد أبى

وكان أبى جراحا من طراز فريد وكانت سعادتى فى أن أناوله شيئا فى عيادته وأحس أنى أعاونه طبيا ..

*

ذهبت الى منزل طه حسين فى مصر الجديدة . قرب دير للراهبات هناك . وأحسست بالخشية والخوف . وزاد خوفى لما وجدت فى غرفة الاستقبال زوارا لا أعرفهم . ولكن خالى همس يشجعنى وما أن خلت الغرفة قليلا حتى بسط لطه حسين قصتى فاذا هو يعرفها واذا هو يقول :

ــ ماذا عليك ، أنا أقبلك فى كلية الآداب وفى قسم اللغة العربية وستجدين بغيتك من التشريح فى شعر جرير والفرزدق ..

وضحك ولم أفهم شيئا ..

ماذا ! قسم اللغة العربية ! انه انتحار لأنى قطعا سأرسب وأرسب الى ما شاء الله . قال :

ــ ماذا ؟ ألا يعجبك أن أدرس لك ..

والتفت وأنا كمَن خرج من بئر عميقة ، وقلت فى تلعثم :

ــ أبدا .. هذا شرف .. شرف كبير

وضحك فى حنان عجيب وأحسست من وراء ضحكه روحا حلوة وقارنته بسرعة بأبى فاذا فيه الكثير منه . ودار كلام كثير وأنا أحاول أن ألمَّ شتات نفسى ، وأن أتبين ماذا أنا مقدمة عليه .. ورنَّت كلماته :

ــ غدا فى كلية الآداب الساعة العاشرة موعدنا .. اتفقنا ..

منذ ذلك اليوم ولطه حسين فى حياتى منزلة الأب الروحى بكل معانى الكلمة . هو الذى أحال يأسى أملا وهو الذى شجعنى وأنا خريجة مدرسة درست فيها كل علومى بالانجليزية على أن أتخصص فى اللغة العربية . ما شكوت له عسرا حتى أحاله فى حنان الوالد الى يسر ..

ــ النحو عسير يا أستاذى ..

ــ لا عليك .. الاستاذ ابراهيم مصطفى سيعنى بذلك ..

وأتتلمذ عن قرب للاستاذ الكريم ــ رحمه الله ــ فيقول :

ـــ لو كانت درجتك على قدر المجهود الذى بذلته لاستحققت مائتين من مائة ولكن بالمقارنة بأقرانك درجتك دون المائة بكثير .. لا تيأسى ستصلين حتما ..

وأواصل الدرس وأتصدر الناجحين تحوطنى رعاية أساتذتى جميعا وطه حسين وحده له مكانته الخاصة ..

ولكن أستاذية طه حسين لم تكن عطفا ورعاية كلها ولم تكن دفعا قويا نحو المثل الأعلى عن طريق اللين دائما وانما كان يأخذنا ويأخذنى أنا أكثر من غيرى بالشدة أحيانا ..

*

أذكر فى أول عام وأنا أتهيب كل شىء حولى فقد كنت الطالبة الوحيدة فى القسم كله ، أنه طلب الىّ أن أقرأ بحثى على الطلبة لنناقشه .. وتلعثمت أولا . ثم راحت رهبة البداية واستمررت . وكان البحث عن « طرفة بن العبد » وقلت :

ـــ أنا لا يعنينى أن يكون طرفة بن العبد جاهليا أو اسلاميا أو حتى محدثا ما دام شعره هو هذا الذى أجد فيه متعة متجددة لأنه يصـــور النفس الانسانية ، ورد فعل فكرة الموت المحتوم فى نفس شاب مغامر فى الحب والحرب ..

واذا باستاذى يقول :

ـــ مرحى مرحى وفيم دخولك كلية الآداب يا هانم وأنت فى بيتك يمكن أن تحصلى على هذه المتعة . نحن هنا نبحث عن الشاعر وعن عصره وعن صلته بعصره ..

ومادت بى الأرض وعدت الى مكانى وقد كدت أقع فى طريقى اليه . ولما انتهى الدرس ودخلت غرفة الطالبات بكيت بحيث لم أستطع متابعة دروس اليوم فعدت الى بيتى ..

وكنا ونحن طلبة نسمع من أستاذنا نقد أعمالنا سواء أكانت بحثا أم شرحا فيقول دائما كلمات مشجعة مسرفة فى التشجيع ثم يقول بعـــد

ذلك « ولكن » وتأتى بعد و« لكن » تلك . طائفة من النقد فى الصميم وكثيرا ما كنا نقول من ذا الذى ينجينا مما بعد و « لكن » تلك ..

فى كل درس لطه حسين ــ وكان يحضر دروسه كل طلبة الكلية تقريباً ، يتخلفون عن دروسهم فى أقسامهم ويأتون معنا ليسمعوه ــ كنا نجد شيئين لا مناص من أن يوجدا فى درسه .. أفقا منفتحا فى الموضوع يغرى بشكل عجيب بالاستمرار فى البحث والدرس .. أفقا ينفتح ويمزج بين أطراف الموضوع وما يمكن أن يتصل به من موضوعات فى قدرة عجيبة خالقة ، تجعل من الحياة كلاً متكاملا لا مجال فيها لشىء وحده . أو لفكرة منفصلة عن غيرها فكان هذا يشعرنا بما يشعر به الانسان أمام الأثر الفنى الرائع المتكامل المنسجم ..

*

وأما الشىء الثانى فهو الفكرة اللماحة المضيئة التى تضىء هذا الأثر الفنى المتكامل بضوء ساحر فريد . لا بد من فكرة بل أفكار جديدة لها طلاوتها وحلاوتها ولا بد من أفق رحب تجول فيه هذه الأفكار يتسع ويتسع حتى يشمل الحياة كلها ..

ان علمه الدقيق المتخصص وثقافته الواسعة الرحبة التى وسعت الثقافات المعروفة كلها ، يتداخلان بشكل رائع فى درسه.. فيلهم طلابه دائما وكل يوم ..

ومرت الأيام ودخلت معه قاعة الدرس معيدة له . يحيل الطلبة على لأقرأ معهم نصا أو ألخص معهم كتابا ، وهنا اطلعت على بعض عاداته كأستاذ . ان طه حسين وهو من هو علما ومعرفة لم يكن يدخل قاعة الدرس قبل أن يعد درسه . كم مرة درس عمر بن أبى ربيعة مثلا ولكنه فى كل مرة كان يقرأ عمر بن أبى ربيعة من جديد . انه لا يعتمد كأستاذ جامعى حق على علم الأمس فى الأدب . ان الحياة تتجدد وتذوقنا للأدب يتجدد ، ومعلوماتنا تزداد .. ولزيادتها دخل كبير فى تذوقنا الجديد ..

ان عادة طه حسين التى علمنا اياها ، أن نجلّ الدرس وأن نحترم مقامه

فى حياتنا ، هى التى تجعلنا الى اليوم لا ندخل قاعة الدرس قبل أن نعد درسنا اعدادا جديدا ..

ولقد علمنا طه حسين كثيرا غير العلم المدوّن فى الكتب .. علمنا كيف نعشق الآفاق الرحبة وكيف نفتح أذهاننا لكل جديد ولا نحكم على شىء الا بعد أن نعرفه ..

ان منهجه الذى يوصف بأنه منهج ديكارتى « نسبة الى ديكارت الذى شغف طه حسين بفلسفته وتأثر بها دون شك » هو المنهج الذى صبغ طريقة تفكيرنا نحن أيضا زمنا طويلا تأثرا به ..

وعلمنا طه حسين كذلك ، وبنفس القدر. أن نحب الحياة فى تجددها .. وأن ننتصر لكل مظاهر الحياة على أى مظهر من مظاهر الجمود أو الشلل أو الموت.. انه مشغوف بالتجديد، محب للشباب . مناصر للحياة المتجددة ، يكره الركود والجمود وتحجر الفكر ..

أما خلقيات الأستاذ فلقد صبغنا بصبغتها وما زلنا الى اليوم تتوق الى أن نكون مثله أو قريبين منه .. ما اعتذر عن درسه يوما الا مضطرا أشد الاضطرار وما دخل درسه الا فى الميعاد وبالضبط دون ابطاء وما شرب سيجارة فى درس ولا تحدث الينا الا فى الدرس وما يمكن أن يتعلق بالدرس من شئون حياتنا نحن لا حياته هو ..

وكنا كثيرا ما نقارن بينه وبين أستاذ آخر— حضرت له درسين وصممت ألا أحضر له بعد ذلك مهما تكن العواقب — لأن الأستاذ الآخر كان يبدأ الدرس فلا يستمر فيه الا بضع دقائق واذا به يقول : « لما كنا فى انجلترا » وكانت هذه العبارة كاشارة المرور معناها اننا سندخل متاهات لا صلة لها بالدرس اطلاقا : وكنا نطوى دفاترنا وننصت . وأصبح الحديث معادا ، ثم أصبح تافها ممجوجا حتى سمينا الأستاذ « لما كنا فى انجلترا » ..

ولحسن الحظ كان أساتذة القسم الأصليين به ، بعيدين عن مثل هذا الأستاذ الآخر قريبين لطه حسين فىتقديسه لوقت الدرس ولمادته وللظروف التى يجب أن تلقى فيه ..

ان احترام قاعات الدرس بل ممرات الجامعة هو الذى جعل طه حسين يرفت طالبا لأنه زعق على زميل مرة . وآخر لأنه دخن سيجارة فى شهر رمضان ، وطالبة لأنها جلست تنسج التريكو فى الشمس . ولم يكن هذا تزمتا وهو الأستاذ الحر الفكر الطلق الأفق وانما كان اجلالا للعلم وتوقيرا لعملية تربية العقول ومرانها ..

أما المكتبة والاطلاع فيها فكان جزءا لا يتجزأ من تدريس طه حسين . كل درس نكلف بعمل يطول ساعات عديدة فى المكتبة ومن دون هذا لا يمكن أن نفيد من دروسه ..

وتنعكس أخلاق طه حسين الانسان وهى معروفة ولا مجال لذكرها هنا ، على كل تصرفاته كأستاذ .. انه أب للجميع ، الأب المثالى فى كل ما يقول أو يفعل حتى ليكاد يكون أسطورة فى أبوة تلاميذه ..

ولكن فكرة طه حسين عن العلم فى حد ذاتها تستحق بحثا طريفا . لقد صور لنا معلمه الأول فى القرية صورة لا تنسى . انه سيدنا الذى أبدعته ريشته الفنانة فى « الأيام » « ضخما بدينا » . « دفيته » تزيد فى ضخامته يبسط ذراعيه على كتفى رفيقيه .. ويتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتا ذلك انه كان يحب الغناء .. الى آخر هذه الصورة التى لا أقوى على بترها هنا ..

و « الأيام » حافلة بوصف خلق هذا « السيدنا » وتصرفاته التى تدل على فساد علمه وتعليمه . ولعلنا نستطيع أن نلمح قبل « سيدنا » صورة « الشاعر » الباهتة من بعيد التى ذكرها طه حسين فى « الأيام » والتى كانت السياج تحول بينه وبين فنّانه المعلم هـذا ، الذى كان يمتعه بما ينشد . لكم أبدع فى وصف السياج التى تعكس شعور الحرمان وقد اضطربت له نفسه الرقيقة الصغيرة قبل أن يتبلور احساسه بأن بينه وبين الحياة سياجا فعلية بسبب كف البصر ..

ولا تقتصر « الأيام » على صورة الشاعر الباهتة من بعيد أو صورة « سيدنا » الثقيلة عن قريب ، وانما فيها صورة « العريف » أيضا .

« العريف » مساعد « سيدنا » . وقد أصبح طه حسين نفسه معلما منذ صباه المبكر فى « الأيام » فقد وكل اليه « العريف » أمر تعليم القرآن الكريم لبعض التلاميذ ومنهم « نفيسة » التى كان يطرب الصبى لبعض قصصها الساذجة ..

وتمتلىء « الأيام » بذكر من تعلم عليهم طه حسين أو من ابتغى عندهم العلم فلم يجده أو لم يجد الا أقله . شيوخ ومشايخ طرق صوفية ومدعى علم ما لايعلم . ولعل أبرزهم هذا المفتش المجوّد للقرآن الكريم على نحو فتن الصبى وكان سببا لما كان بين ابنته وبين الصبى من حب يمثل طفولة بريئة حيية فى أواخر القرن الماضى ..

*

ومنذ «الأيام» نجد ان طه حسين قد ركز آماله حول أن يكون معلما ، بل معلما فى الأزهر الشريف أول الأمر . كم ذا يمس شغاف القلب أن يقص علينا كيف دخل الأزهر الشريف لأول مرة . كم كان سعيدا حين أخذ مكانه فى الحلقة على هذا البساط الرقيق الى جانب عمود من الرخام لمسه فأحب ملامسته ونعومته فأطال التفكير فى قول أبيه : « انى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا وأراك صاحب عمود فى الأزهر » ..

وتمر بنا صور شيوخه فى الأزهر وهو قلق برم يتحول من هذا الى ذاك. ويصطدم بهذا ويتشاجر مع ذاك، يصفه بعضهم بالحمق ويتهمه البعض الآخر بالخوض فيما لا يعلم ويحرم بعضهم الثالث عليه أن يحضر دروسه . وتبرز من بين صور كل هؤلاء صورة الشيخ المرصفى الذى بغض اليه أبا العلاء فأحبه وشغف به بالرغم من بعض رضاه عن دروس الشيخ المرصفى ..

ويختلف الى الجامعة الى دروس حفنى ناصف ، والشيخ مهدى ليدرس النصوص ، ويختلف الى المستشرقين « نللينو » و « فييت » ليدرس تاريخ الأدب فيجد من هذا المزاج بين القديم والجديد بغيته التى طالما نشدها فلم يجدها . ويستمر فى الجامعة القديمة ثم يسافر فى البعثة

ويعود أستاذا بالجامعة ، ولكننا لا نكاد نرى صورا واضحة لشخصيات أساتذته من الأجانب . لقد ملأوا عقله وفكره بما عندهم من علم ، فلم يتركوا له وقتا ليتأمل أكانوا ضخاما أم نحافا . أكانوا يتعاملون مع التلاميذ حسب درجاتهم من الفقر أو الغنى أم كانوا يعاملون الكل بالعدل والميزان ..

ان الاساتذة الاجانب استحالوا عنده عقولا تتعامل مع عقول ، فخرجوا عن أن يكونوا مفردات صورة ترسم ..

ان صلاته بهم صلات عادية من الحب والود ، والذى بهره منهم هو عقولهم ، وطريقة تفكيرهم . ومدى مايمكن أن يؤثروا به فى عقله المرهف المستعد لأن يتقبل هذا العلم بعد طول معاناة فى تلقى الجهل والخزعبلات باسم العلم ، أو فى تلقى العلم اليسير بأبشع الطرق وفى أسوأ الظروف . لقد وجه طه حسين فى علمهم نفسه ..

*

وعاد طه حسين الى مصر ليرسم الصورة المثلى لما يجب أن يكون عليه المعلم وما يجب أن يتطور اليه التعليم فى الجامعة وفى المدارس الثانوية وفى المدارس الأولية خاصة . يوضح أهداف التعليم ويفتح آفاقه لآماد لا تحد . وفى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » صورة واضحة لآرائه التى يضغط فيها على ما يجب للاستاذ وللمعلم من اعداد واختيار ورعاية ليكون مكرما كريما فينشىء جيلا مكرما كريما وليكون واعيا بدوره وخطر هذا الدور فى حياة الأمة ، فيسمو الى مستوى هذه الخطورة ويعد نفسه للقيام بأعبائها ..

وامتد الزمان فاذا طه حسين يلى أمر التعليم مستشارا للوزارة ثم وزيرا لها فيخطو خطوة جبارة نحو تحقيق آمال الشعب اذ يجعل التعليم الثانوى مجانا . كم خضع آنذاك لحملات من التشهير حتى لقبوه بوزير الماء والهواء لأنه قال : ان العلم كالماء والهواء يجب أن يكون متاحا

لكل أفراد الشعب ، ولا يمكن أن تقوم ديمقراطية حقيقية من دون أن يتعلم الشعب ..

ودارت الأيام وقامت ثورة الشعب وتعبيرا منها عن ضمير شعب يحب العلم ويؤثر التعليم فتحت أبواب التعليم كلها على مصراعيها ومجانا وللشعب كله ..

*

ان طه حسين لا يعيش الا ليعلم وليتعلم ، وتدور حياته كلها حول هذا المحور السامى الأساسى فى حياة الأمم ..

انى ما زلت أذكر كيف كان يتحامل ليأتى الينا فى كلية الآداب منذ بضعة أعوام استجابة لرجاء والحاف قويين من طلابه ليدرس أبناءنا ولو ساعة واحدة فى الاسبوع . كم ذا كانت فرحة أبنائنا به وكم أضاء لهم من طريق وفتح أمامهم من آفاق وبسط لهم من آمال ..

ولئن أقعده المرض عنا فان كلية الآداب ما زالت تردد صوته الى اليوم . انها الكلية التى خرجت وأخرجت الجامعة كلها معها عام ١٩٣٢ ، لتطالب بعودة طه حسين اليها يوم نقله منها اسماعيل صدقى ضمن مخطط بطشه بالطلاب بل بالشعب كله . ولو استطاعت الكلية اليوم أن ترد عنه المرض ليعود اليها ما ترددت أن تفعل المستحيل فى سبيل ذلك ..

ولكن عزاءها ان طه حسين لا يحيا فى تلاميذه ـ وكل أساتذة الكلية من تلاميذه ـ فحسب ، وانما هو يحيا فى طلابها الذين يدرسون طه حسين فى دراستهم للأدب الحديث . بل ان منهم من نال درجته العلمية العليا عن بحوث حول أعمال طه حسين ..

صفحات مجهولة
من حياة
طه حسين
١٩٠٨ - ١٩١٦

أنور الجندى

لاريب ان أعظم « حدث » فى تاريخ حياة « طه حسين » هو سفره الى أوربا . غير ان هناك حدثين هامين فى حياته قبل ذلك ، هما دخوله الأزهر عام ١٩٠٢ . وانتسابه الى الجامعة المصرية القديمة عام ١٩٠٨ . وقد ذكر لى ان اتصاله بالجامعة كان مقدمة لسفره الى أوربا عام ١٩١٤ . غير انه أعيد فى العام التالى لاضطراب ميزانية الجامعة ، وكانت تلك أزمته الكبرى حتى سافر مرة أخرى فى شتاء عام ١٩١٥ . وظل فى أوربا حتى عاد بعد أن أتم دراسته فى خريف عام ١٩١٩ ..

ولاشك ان هذه المرحلة التى امتدت بين دخوله الأزهر ودخوله الجامعة المصرية القديمة قد صورت أروع تصوير فى الجزء الثانى من كتاب « الأيام » ولا يهمنا منها هنا الا أن نسجل بذور اتجاهه الأدبى والشعرى واتصاله بالصحافة وولادة شخصيته المفكرة الناقدة .. وبمراجعة الصحف والدوريات فى هذه الفترة يبدو ان أول كتابات طه حسين بدأت عام ١٩٠٨ وهو نفس العام الذى افتتحت فيه الجامعة المصرية القديمة ، وقد بدأت هذه الكتابات فى صحف « مصر الفتاة » ، « الجريدة » ، و « العلم » و « الهداية » خلال هذه السنوات حتى اتصلت بمجلة السفور التى صدرت عام ١٩١٥

وكتابات طه حسين فى هذه الفترة تضم : الشعر ، والقصة ، والمقالة الأدبية ، والنقد . وهى ، ما عدا الشعر ، نفس الفنون التى عالجها فيما بعد

١ ـ الشعر :

أما الشعر فقد بدأ نظمه بالرثاء والغزل والتهنئة كما نظم الشعر السياسى . وله شعر فى التقريظ والمدح والهجاء

وفى شعر الرثاء نظم فى رثاء حسن عبد الرازق « ١٩٠٨ » قصيدة هى من أولى قصائده وقد استهلها بقوله :

أفى الحق ما أسمعتنا أم توهما   تبين فقد بدلت أدمعنا دما
تبين فان الناس لم تنس عاصما   ولم تقض فى ذكرى الامام تألما

كما نظم فى رثاء محمود عبد الغفار عضو مجلس شورى القوانين « ١٩١٠ » ، والدكتور ميلونى الاستاذ بالجامعة المصرية « ١٩١٢ » قصيدة بدأها على هذا النحو :

لا أقال الله للموت عثارا   فلقد أغرق فى الناس وجارا
عاهد الدهر على ان لم يزل   مذكيا فى مصر للحزن أوارا

وفى تقريظ مقال للاستاذ لطفى السيد قال :

بمثل مقال الأمس يعجب كاتب   أديب ويرضى عاقل وحكيم
حقائق غر يصرع الشك نورها   كما يصرع الليل البهيم نجوم

وفى الهجاء له قصيدة وجهها الى عبد الرحمن شكرى ، وكان شكرى قد كتب مقالا بعنوان « لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربى » هاجم فيه رأيا نشره طه حسين فى الجريدة ، قال فيه :

« لا أرى رأيه فى قوله ان سليقة الشعر قد فسدت وان أسلوب شعراء هذا العصر فاسد اذا قيس بأسلوب شعراء الدولة العباسية ، وربما يظن القراء ان الشعراء يقيسون الشعر على التفاعيل فى وقت صنعه ، هذا ما يظنه كثير ممن لا يعالجون الشعر ، وأظن ان هذا ما يظنه الأديب طه افندى حسين ، وما يعنى بقوله ان سليقة الشعر فسدت »

وقد وجه اليه طه حسين قصيدة هجاء بدأها على هذا النحو :

قل لشكرى فقد غلا وتمادى | بعض ما أنت فيه يشفى الفؤادا
بعض هــذا فأنت فى الشعر | والنثر أديب لا يعجز النقادا
لو تفهمت قولنــا لم يكلفـ | ـك هوى نقدنا الضنى والسهادا
عد اليه تجد شــفاءك فيــه | انما نمقت الحديث المعــادا
واقتصــد فى الغلو ان لدينا | ان تساءل بنا نصالا حدادا
خل عنك القريض لست بأمضى | فيه سهما ولا بأورى زنادا
ان تكثر مكثرا فرب مقــل | حاول القول مرة فأجادا
كن اذا شئت آمنا مطمئنــا | لم نحاول لما تقول انتقادا

ويمكن القول بأن هذه هى معركته الأدبية الأولى

ونظم طه حسين شعر فى الاحتفال بالعام الهجرى :

كن انت بعد أخيك خير هلال | وأضىء لمصر سبيل الاستقلال

وفى حفل قران الشيخ « احمد حسن الزيات » على كريمة « المفضال سيد أفندى النجار » اهتز طه بالشعر لصديقه الذى كان له عليه الفضل فى دفع مبلغ « الجنيه » الذى أدخله الجامعة المصرية القديمة فيما روى من بعد الدكتور طه من ذكرياته لكامل الشناوى . قال :

يا خليــلى ســـلامى | حبـــذا يوم القران
حبــذا أمس فقــد أد | نى نوالا غــير دانى
حبــذا ليــلة أمس | راق لى فيهــا زمانى
ليــلة قــد نلت فيهــا | من حظوظى ما شــفانى
أنا لا « احمد » منهــا | « حسن » توقيع الأغانى
انما « احمــد » منهــا | « حســن » أنسى بفــلان
لم أزل أقصـــف حتى | خلت انى فى الجنــان
بينــما نحن عــلى ذلك | اذ زف القمـــران
آه يا زيات ما أجمــ | ـــل ســـاعات الأمانى

وله فى شعر المناسبات قصيدة فى تهنئة الشيخ عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من السجن « ١٩٠٩ » قال :

الآن حق لك الثناء فلتحى وليحى اللواء
ولتحيى مصر وأهلها شاء العدا أو لم يشاءوا
تعلو بها أصواتنا حتى ترددها السماء
ان كان ذكرك للجلاء يسوء فليكن الجلاء
سيروا اذ تبدو الحقيفة ان قوتهم هواء
ما ان أصابتك الاساءة بل لأنفسهم أساءوا
لو يعلم السجن الذى قد كان فيه لك الثواء
من ذا يقيم به لكان له بمثواك ازدهاء
لم لا وأنت لسان مصر اذا ألح بها المراء
تدعو لها ويذود عنها صدق عزمك والمضاء
فاسلم لمصر وأهلها انا لنجدتك الفداء

ومن شعره السياسى مهاجمة مشروع مد امتياز قناة السويس :

تيمموا غير وادى النيل وانتجعوا فليس فى مصر للأطماع متسع

وله قصيدتان « حديث مع النيل » يستهل احداها بقوله :

وقفة فى الصباح أو فى الأصيل يتجلى فيها جمال النيل
ترعى الحزين البائس من البؤس وتنسى المحب عذل العذول

ويقول فى مقدمة أخرى :

عم مساء فقد أتاك السمير لا يروعنك الظلام المغير
لا يروعنك الفراق فللأفلاك يا نيل دورة ستدور

وله فى الغزل عديد من القصائد منها قصيدته الرباعية « ليت للحب قضاة » :

شف قلبى ما يعانى من تباريح الجوى
يعشق الحسن ولكن ليس يحظى بالوصال

أنا من وصل حبيبى بين صـــــد ونوى
من غديرى من بخيل ضــن حتى بالخيـــال

وقد سجل طه حسين ريادته فى مجال الشعر الحر . فقد نشرت له جريدة « مصر الفتاة » قصيــدة فى ديسمبر عام ١٩٠٩ تحت عنوان « آه ، لو عدل » استهلها بقوله :

شادن عطف عطفه الحبيب
بعدما صدف صدفة الملون
كم سبى العقول قوله الخلوب
يملك القلوب ثم لا ينيــل

وقالت الصحيفة : ان صاحبها قد انتهج فيها أسلوبا يظنه بعض الأدباء من الأساليب الافرنجية لاتفاقها مع الشعر الافرنجى فى التقاطيع والروى . ولكن هــذا النوع لم يفت العرب فى جاهليتهم ، فقــد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر « المسمط » ، وقد نظم فيه امرؤ القيس اسماطا أتى على مثال منها صاحب لسان العرب فى مادة «سمط» وكان للعرب الاندلسيين اليد الطولى فيه وتراه فى موشحاتهم التى تفننوا فى وزنها ورويها

ومن عجب أن يشجب الدكتور طه حسين شعره كله فى عبارة متشائمة فيقول :

« واعرض عن الشعر كل الاعراض بعد أن استبان له انه لم يقل الشعر قط ، وانما قال سخفا كثيرا » ..

٢ ــ مع الصحافة :

وقد ظهر لطه حسين خلال عام ١٩٠٩ عديد من القصــائد ، غير انه لم يلبث فى الأعوام التالية أن تخفف عن النظم وتوسع فى الكتابة الأدبيــة حتى أطلق بعض الكتاب « عام الشــعر » على عام ١٩٠٩ بالنســبة له ،

ويبدو ان طه حسين وجـد ان مجال الشـعر أقل من طموحه ، وانه ليس الوسيلة المثلى لابلاغ آرائه ونظراته الى القراء

وقد اتصل طه حسين بالتيارات الفكرية والسياسية المختلفة فى عصره ، اتصل بلطفى السيد والجريدة وحزب الأمة ، واتصـل بالشيخ جاويش و « اللواء والعلم » والحزب الوطنى ، وكتب فى هذه الصحف . ولما أنشأ الشيخ جاويش مجلتـه الشهرية « الهداية » وولى طه حسين سكرتارية تحريرها ، نشر فيها فصولا فى النقد الأدبى

*

وقد نشرت له الجريدة ومصر الفتاة كلمات وخطرات توصف بأنها من النثر الفنى ، يقول : « يقضى ساعات الليل ومعظم النهار بين قلب يجف ، ودمع يكف ، وجسم يرتعش . شهيق وحريق . وزفير وسعير ، ووجيب ولهيب ، عين ساهرة وهموم ثائرة ونفس حائرة ، بين ماض مؤلم ومستقبل مظلم » ..

ولكن طه حسين سرعان ما جاوز هـذا الأسلوب الغارق فى الزخرف والصنعة اللفظية وتحرر منها عندما تحرر من الخاطرة وانتقل الى النقـد الأدبى . واتصل بالقضايا الاجتماعية كالمرأة والزى والزواج بالأجنبيات وعديد من قضايا العصر ، وقد كان رأيه فيها جميعا أقرب الى المحافظة

يقول تحت عنوان « الأزياء » فى مقال بالجريدة عام « ١٩١٠ »

« مخطىء كل الخطأ صـاحب الزى الشرقى الجميل يستبدل به الزى الغربى ، مرضاة لهوى كاذب ، وشهوة خادعة . مخطىء لأنه ينزل عن كرامة الأمة فى عاداتها وآدابها .. »

وقد تغيرت من بعد مفاهيم طه حسين واتسع أفقها فلم ير فى ذلك شرا ، بل رأى انه التطور والايجابية والتماس الأصلح والأكثر نفعا ، بل انه يقول فى احدى مقالاته : « من أشد الناس عقوقا للأمة وبغيا عليها ذلك المصرى لا يكاد يعدو ثغرا من ثغور مصر مبحرا الى أوربا حتى يقطع

أسبابا ويصل أسبابا ، فيترك لنا أزياءنا ولغتنا وأدبنا وينتحل مثلها من أزياء أوربا ولغاتها وآدابها »

ولا شك كانت تلك عبارات الحماسة المنطلقة فى سن العشرين تريد أن تؤكد ذاتها ولما تتسع بعد آفاقها الفكرية وترحب ، وتتصل بالفكر الانسانى ، وتتحرر من مفاهيم الاقليميات الفكرية الضيقة حتى انه ليقول : « قلّ بين أبناء مصر الذين يتعلمون فى أوربا مَن يستبقى على رأسه العمامة » ..

وهو فى هذا الاتجاه يقول فى مجلة الهداية « أصبح تقليدنا للافرنج أمرا محببا الى نفوسنا وليس لنا من قوة الأنفس والأخلاق ما يكفينا شر التقليد ، وعندى انه يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط فى استعمال هذا الحكم أى اباحة تزوج المسلم بالكتابية . وليس على من بأس اذا قلت انه الآن حرام ممقوت .. »

ولا شك ان التجربة هى التى تعطى القدرة على التحول والتعميق ، ومن هنا يبدو أثر الرحلة فى أدب طه حسين وفكره فيما بعد ..

على ان آثار طه حسين وكتاباته المختلفة كانت بالنسبة لوسطه ومحيطه ، وبالنسبة للأزهر والفكر المصرى اذ ذاك تقدمية جريئة ، ولعله من أوائل من أعلنوا مساواة المرأة والرجل فى الحرية فى مقال أدار معركة نشره فى يناير عام ١٩١١ فى مجلة «الهداية» واقتضى أن يرد عليه الشيخ عبد العزيز جاويش ويعارضه ، يقول طه حسين :

« لا فرق بين المرأة والرجل فى الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق ، منهى عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه ، فالمرأة لا تخلو بالأجنبى ، ولا تسافر وحدها ، ولا تتبرج ، ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء من غير اثم ولا لغو ، لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل وليس عليها الا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الانسانى كافة .. »

وقد صوَّر الدكتور طه حسين من بعد موقفه أثناء هذه المرحلة فقال : انه كان موزعا بين مذهبين من مذاهب الكتابة ، أحدهما مذهب الاعتدال والقصد ، والآخر مذهب الغلو والاسراف . وانه كان يستجيب للمذهبين معا ، فاذا اقتصد فى النقد نشر فى الجريدة ، واذا غلا فى النقـد نشر فى صحف الحزب الوطنى

ويبدو من المراجعات التى قمنا بها انه اتجه الى الجريدة اتجاها كاملا بعد هجرة الشيخ عبد العزيز جاويش عام ١٩١٢

كما اتصل الدكتور طه بصحيفة أخرى ، بعد سفره الى أوربا ، تلك هى صحيفة « السفور » التى صدرت فى مايو عام ١٩١٥ وكتب فيها أولى مقالاته من مونبيليه « اغسطس عام ١٩١٥ »

وقد ضمت مجلة « السفور » عددا ضخما من الكتاب الذين لمعوا بعد الحرب العالمية الأولى وتصدروا الحياة الأدبيـة فى مصر ، وفى مقدمتهم على عبد الرازق ، ومنصور فهمى ، وهيكل ، والزيات ، وأحمد زكى ، ومحمود تيمور ، وفيها نشرت قصـة « زينب » للدكتور هيكل بتوقيع « فلاح مصرى » ..

وقد ظل طه حسين يكتب بها حتى يناير عام ١٩١٧ ، وقد حملت خلال فترة عودته من البعثة والى أن سـافر عائدا الى باريس ، حملت أنات قلبه ، وأشجان روحه ، وكان قد كتب فيها بعد عودته قصـة مسلسلة تحت عنوان « زواج الشيخ » ، وهى قصة فى رسائل ، بدأها فى يونية عام ١٩١٦ وضمنها خمسة عشر خطابا وأرسل فصولها من أماكن فرنسية مختلفة مثل تولوز ، ساليس دى سالا ، سان جيرون ، تارب ، وباريس

٣ ـ النقد الادبى :

برز « طه حسين » فى ميدان النقد الأدبى فى هـذه الفترة ، ووجدت طبيعته المصاولة نفسها فى مجال المساجلات ، والمعارك ، ويبدو هـذا فى ثلاث معارك ومساجلات هى أبرز ما عرف فى هذه المرحلة :

١ — الأولى مع كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان
٢ — الثانية مع المنفلوطى فى كتابه « النظرات »
٣ — الثالثة مع الدكتور هيكل حول « الحرب والحضارة »

أما كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان ، فقد نقده طه حسين فى فصول متتابعة نشرها فى جريدة « العلم » . ومجلة « الهداية » عام ١٩١١ . وقد أحصى عليه عددا من الملاحظات . فقد قال :

« ان للكاتب فى هـذا الكتاب أغلاطا تاريخية ما كان يحسن أن يقع فيها مثله ، وانه قسم الشعراء باعتبار شئونهم الخاصة فى حرفهم ، لا باعتبار الشعر نفسه وما يؤثر فيه من طبيعة الاقليم . وان عبارته مبهمة كثيرة العموم » كما استكثر على المؤلف انه أمضى أربعة عشر عاما فى تأليف كتابه ..

ورد جرجى زيدان على اعتراضات طه حسين فقال :

« ظهر فى « العلم » الأغر انتقاد للشيخ طه حسين فى مقالات متتابعة لا تخلو من الغمز واللمز ، عمدنا الى الرد طوعا لاشارة بعض الأصدقاء لئلا يأخذ سكوتنا عجزا ، ويتخذ غير العارف كثرة الايهام والتهويل دليلا على صحة النقد ..

١ — انتقد علينا تقسيم الكتاب حسب الأعصر ، وان كان ذلك التقسيم متبعا عند علماء أوربا فى تواريخ آداب لغاتهم ، ولكنه لم يأتنا بتقسيم أحسن منه ، فنعدل عن متابعة علماء أوربا وتتبعه فيه ، ويقال نحو ذلك فىانتقاده تقسيم طبقاتالشعراء فانه أنكره علينا ولم يأتنا بغيره ، ولا فائدة من الانتقاد اذا لم يشفع بالاصلاح

وقال جرجى زيدان فى الختام : قرب الله الزمن الذى نعرف فيه قدر نفوسنا ونعدل عن القول الى العمل

٢ — ورد طه حسين على جرجى زيدان فقال :

رد على صاحب « الهلال » ، يكتب ليمحو من نفوس النـاس تلك الأغلاط العلمية ، ونشهد الله على اننا لم نقصد اهانته والغض منه

جعل صاحب « الهلال » من شروط النقد أن يتقدم الناقد الى المؤلف فيسبغ عليه قبل النقد ذاكرا حسناته قبل سيئاته ، ونحن نخالفه فى هذه الخصلة ، فنقول ان عمـل الناقد ينحصر فى اظهار الخطـأ من غير تملق ولا تزلف ، ومن غير تحامل ولا تشهير

وجعل صاحب « الهلال » من شروط النقد ألا يبطل الناقد رأيا حتى يأتى بغيره لتتم الفائدة وتلك احدى الاعاجيب ، فليس من الناس من يستطيع أن يلزم أحدا بألا يبطل باطلا حتى يحق حقا ، وشتان بين اظهار الحق والاتيان بالباطل

ثم انه أنكر استكثارنا أربعة عشر عاما على تأليف كتابه ، ثم تقدم الينا بهدية نفيسة من الشتم الظريف سنغفرها له .. فقد زعم ، عفا الله عنه ، اننا مغرورون مخدوعون لم نعرف قدر أنفسنا

*

« المعركة الثانية مع كتاب النظرات للمنفلوطى »

وهـذه معركة ضارية استمرت عاما كاملا تحت عنوان « نظرات فى النظرات » بلغت ٢٣ مقالا نشر أولها فى « اللواء » ثم امتدت فى « العلم » الذى صدر فى مارس عام ١٩١٠ . واستمرت الى ٢٥ نوفمبر ، ومنها مقالات وقع عليها « طه حسين ــ كوم امبو »

وقد أخذ طه حسين على المنفلوطى جملة من الأخطاء اللغوية ..

وقال ان أول عيب يأخذه على صاحب النظرات انه شغوف كل الشغف بذات غيره ، وانه منكر كل الانكار لذات نفسه ، وان السرقة فى كتابه شائعة شيوعا فاحشا ولست غاليا اذا قلت ان اسم كتـابه مختلس من ديوان « النظرات » للرافعى أما السرقة فعذر صاحب النظرات معروف وهو قلة المادة وضيق الحظيرة

والعيب الثالث من عيوب صاحب النظرات أن صاحبها أبعد الناس عن توخى الحقيقة وأحبهم لاصطناع الخيال سبيلا الى غايته

والعيب الرابع أن لصاحب النظرات ألفاظا ومعانى وأساليب تشغفه

كل الشغف فلا تزال تتردد فى كتابه حتى تمجهـا الأسماع ، وتعافهـا الطباع ..

والخامس والسادس أن الكاتب على شغفه بجودة العبارة وحسن الاشارة وكلفه بأن يكون كلامه فخما سهلا وخفيفا جذلا ، وأن يكون أسلوبه أنيقا ، ولفظه رشيقا ، كثـيرا ما يلجئـه المرح الى سخف فى الاستعارة والتشبيه ويضطره الى أن يكون كلامه رثا غثا وأسـلوبه ساقطا مبتذلا ..

ولقد أثيرت حول هذه المقالات مراجعات كثيرة تتصل بعلاقات طه حسين بالحزب الوطنى ، وموقف المنفلوطى من رجاله . ويروى فى ذلك ما ورد عن طه حسين من تقديره لكتابات المنفلوطى فى رأى سابق : « لقد كنت أمقت المؤيد كل المقت الا يوم ينشر فيه نظرة أو أسبوعية فقد علم الله انى كنت أشغف به كل الشغف وأقبل عليه كل الاقبال »

ومهما يكن الأمر فان طه حسين فى هذه المرحلة كان يرود حقلا جديدا ، تحدوه فيه رغبة فى تأكيد الذات والتبريز واثارة الضجيج ، وقد أنكر هذا اللون من النقد فيما بعد ، فقد أشار فى مذكراته التى نشرتها آخر ساعة عام ١٩٥٥ رأيه فى هذه المساجلات والمعارك الصحفية . قال « لم يكد الفتى يأخذ فى الكتابة حتى عرف بطول اللسان والاقدام على ألوان من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الأيام ، ولكنه كان نقدا محافظا غاليا فى المحافظة »

وقد ذكر لى أن نقده للمنفلوطى كان قائما على أساس مذهب المدرسة القديمة ، وقد عاد طه حسين فأشاد بالمنفلوطى واعتذر عن هذا اللون من النقد فى أحاديث أذاعها بالاذاعة ولم تجمع فى كتاب بعد

*

« المعركة الثالثة مع الدكتور محمد حسين هيكل عن الحروب والحضارة »

وهذه مساجلة حملتها صحيفة « السـفور » عام ١٩١٥ وقد بدأها الدكتور طه حسين وكان قد أحرز الدكتوراه من الجامعة المصرية « ١٥

مايو عام ١٩١٤ » برسالته عن « ذكرى أبى العلاء » وقد أشار الدكتور هيكل فى بعض فصوله فى الثلاثينات الى أن طه ابتدع هذه المساجلة معه ليخلق فى الأدب العربى الحديث فن الجدل وانه أخذ جانب الحرب وفضلها على الحضارة رغبة منه فى الجدل وحده ، وانه هو الذى دعا هيكل الى ذلك »

ومن عجب أن كانت هذه فاتحة مساجلات بين طه وهيكل استمرت وقتا طويلا ، وامتدت بعد ذلك على صفحات « السياسة الأسبوعية » و « اليومية » والرسالة ..

وقد وقع طه حسين بحثه عن الحرب والحضارة بامضاء « تاسيت » ونشره فى ١٩١٥/١١/٥ ومما قاله فيه :

« مثل الحرب مثل الديمة الغزيرة ترسلها السماء من غير حساب فتتفرق لها الجموع المحتشدة ويستتبع ذلك كثير من المضار ، ولكن السماء لا تكاد تقلع ، والماء لا يكاد يفيض - حتى تكتسى الأرض حلة خضراء بهيجة فيها للحياة العقلية والجسمية مادة صالحة موفورة النفع ، وذلك مثل الحرب تصيب الناس بما نشهد الآن من ضرر وتروى الأرض بما تقشعر له أبداننا من دماء - ولكن ما تكاد الدماء تجف حتى يهب الانسان من وقفته الحائرة ، واذا قوة حياته المادية والعقلية قد ضوعفت وأصبحت أقدر على الجهاد وأصلح للبقاء

« فليست الحرب كما يظن الكثيرون نذيرا يؤذن بكساد المدنية وافلاس الحضارة ، وانما هى آية تغير فى الحياة الانسانية ودليل انتقال من حال الى حال ، أظهر منها نفعا وأقرب الى الكمال »

وقد رد هيكل ناقضا رأى طه ، مصورا نتائج الحرب فى الخراب والتدمير ..

وقد جرت بينه وبين هيكل مساجلة أخرى عام ١٩١٨ أشار اليها هيكل فى مقال له بالمقتطف ولم نعثر على نصوص آراء طه حسين عنها وموضوعها « القدرية والجبرية »

٤ ـ مع أساتذته وأعلام عصره :

وفى هذه الفترة تعرف « طه حسين » بعديد من أعلام عصره وأساتذته فى الجامعة والازهر وفى مقدمتهم : عبد العزيز جاويش ولطفى السيد ومحمد المهدى ، وسيد المرصفى ..

وقد حدثنى الدكتور طه حسين فى مراجعة واسعة لتطور فكره عام ١٩٥٢ فقال ان أهم أساتذته فى هذه الفترة ممن يرى لهم عليه فضلا لا يقدر : لطفى السيد وسيد المرصفى ، وأحمد زكى باشا . وقد دله لطفى السيد على « قيمة الاشـياء » وفتح له باب التفـكير الاوربى الحديث ، وفتح له سيد المرصفى باب انشاء الذوق الأدبى الكلاسيكى ، وهيأ له أحمد زكى باشا التمرن على البحث العلمى وتحقيق النصوص

ومما يحسن بنا فى هذه المناسبة أن نسجل رأيه فى الشيخ محمـد عبده وكيف التقى به ، فقد صور كيف عاش عاما كاملا فى الازهر يسمع عنه ويروى آراءه ، دون أن يراه ، حتى اذا كان العام الثانى .. فقد جرؤ على أن يقتحم باب « الرواق العباسى » الذى يلقى فيه الاستاذ الامام محاضراته ومن دون الباب حارسه الذى يسمى « الغراب » وأعوان الغراب ، يقول :

« واذا أنا ذات مساء أخاطر أشد المخاطرة وأتحدى الغراب ، واقتحم الباب واجلس فى طرف من أطراف الحلقة ، ويقبل الشيخ ويأخذ مكانه ثم يبدأ فى الدرس ..

« وأشهد لقد كنت فى هذا الوقت شديد الاضطراب والذهول تجرى فى جسمى الصغير كله رعدة ما أحسستها من قبل ، حتى اذا سمعت هذا الصوت الحلو ، يتلو هذا الكلام العذب ، كلام الله ، ويتلوه فى هدوء وخشوع وفى حنان ورحمة لم أملك نفسى ، واذا دمعتان تنحدران فأكفكفهما ، ثم أثوب الى الشيخ فأمنحه عقلى كله وقلبى كله ، وأسمع له حتى ينهض ويتفرق الناس ثم لا أفكر الا فيه سواد الليل ، ولا أفكر

الا فيه بياض النهار ، واذا بى أتغافل الغراب وأقتحم الباب وأجلس فى طرف من أطراف الحلقة وأجدد لنفسى ما أحسست من لذة القلب والعقل معا ..

« ثم أنصرف وقد عاهدت الله على أن ألزم درس الشيخ لا أعدل به درسا ولا أنصرف عنه الى شىء غيره ، ولكن الله يريد أن يكون هذان الدرسان آخر عهد الأستاذ بالتعليم فى الأزهر فقد استقال من مجلس الادارة وتحول الى دار الافتاء »

*

أما عبد العزيز جاويش .. فقد أشار الدكتور طه الى أثره فى نفسه وفضله عليه فهو الذى حرضه على السفر الى أوربا وفتح له صفحات العلم ومجلة الهداية « وهو الذى عرف الفتى الى جماهير الناس ووقفه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون وحافظ منهم خاصة »

ولم يقف أمر الشيخ عبد العزيز جاويش بالفتى عند هذا الحد ولكنه علمه الكتابة فى المجلات ، فقد أنشأ مجلة الهداية وطلب الى الفتى أن يشارك فى تحريرها ثم ترك له أو كاد يترك له الاشراف على هذا التحرير .. وأنشأ الشيخ جاويش مدرسة ثانوية وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرا

*

أما لطفى السيد .. فقد فتح أمام طه آفاقا جديدة « فقد عرّف الفتى الى الكثيرين من الذين كانوا يلمون بمكتبه فى الجريدة من الشيوخ والشباب وفى مكتبه اتصل برفاق له أحباء عمل معهم فيما بعد ، ولقى معهم خطوبا أى خطوب .. عرف عنده «هيكل، ومحمود عزمى ، والسيد كامل وكامل البندارى » ، وعرف بفضله لونا من المعرفة لم يكن يقدر انه سيتاح له فى يوم من الايام

ومن أســاتذة طه حسين الذين كان لهم به صلات تاريخية لها دوى وصدى ، أستاذه محمد المهدى أو الشيخ مهدى كما كان يطلق عليه

وللشيخ مهدى قصة ، فقد سافر طه حسين الى فرنسا عام ١٩١٥ فى بعثة علمية ، ولم ينقض عام حتى استدعت الجامعة أعضاء البعثة .. وكان استدعاؤها لهم نتيجة لظروف مالية فرضت عليها أن تطلب منهم العودة ، الا من يريد أن يبقى على حسابه الخاص . وعاد طه حسين وأتيح له أن يحضر درسا فى الجامعة المصرية عن الأدب العربى ألقاه الشيخ مهدى ، فلما انتهى من سماعه خرج فكتب فصلا نشرته مجلة السفور «٣٠ نوفمبر ١٩١٥ » جاء فيه :

« فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية سمعت لأول مرة درس الآداب فى جامعة مونبلييه ، وكان الاستاذ يدرس قصة وضعها « الفريد دى فينى » على المثال الذى اخترعه الكاتب الانجليزى « ولترسكوت » من القصص ، فلما خرجت من الدرس سألت صاحبى ضيفا « يقصد أحمد ضيف » كيف ترى هذه المحاضرة فقال لا بأس بها ولكنها شديده الاختصار ، قلت انك لمسرف شديد الطمع يا ضيف ، فلو سمعت درس الآداب فى الجامعة المصرية ورأيت الاستاذ وقد مر فى محاضرة واحدة بثمانية من الشعراء فى عصر المأمون لعرفت أن صاحبنا فى مونبلييه قد بلغ الغاية القصوى فى الاطالة والاسهاب

ورجعنا بعد ذلك الى مصر ، وفى اليوم نفسه من هذه السنة سمعت درس الأدب العربى فى الجامعة المصرية وأبى ضيف أن يحضره معى ، لأنه كان عنه فى شغل ، كان درس الأستاذ المهدى فى تاريخ الأدب العربى الاندلسى أشبه بمعرض الصور المتحركة تمر فيه ظلال الشعراء ولما يتبين منها الطلاب أكثر من أسمائهم

لم يكن فى هذا الدرس شىء يدل على انه درس فى الجامعة وانما هو نوع من الحديث يستفز سامعيه بما يعرض من الغزل والوصف ومن آيات البديهة والارتجال ..

« ولا ألوم الجامعة فانها لم تأل جهدا فى حسن الاختيار ، ولا ألوم الأستاذ فانه قد بذل ما يملك وجاد بما يستطيع أن يجود به ، ولكن أرثى لصاحبى ضيف لأنه حرم نفسه لذة الاستماع لهذا الدرس الجميل وحرم معها هذا الألم يشعر به من سمع العلم فى جامعات فرنسا ، ثم فى جامعة مصر وقارنه بين الأساتذة والطلاب هنا وهناك ..

*

وما كاد هذا المقال ينشر حتى قامت القيامة على طه حسين ، ونشرت الصحف أياما متوالية أنباء الأزمة التى أحدثها ، وكيف طلب الشيخ المهدى الى مجلس ادارة الجامعة أن تعاقب طه حسين وأن تقسو عند توقيع العقاب على هذا « الجرم الشنيع » فتشطب اسمه من قائمة متخرجى الجامعة الذين يتعلمون على حسابها فى فرنسا

وقيل ان على بهجت ، سكرتير مجلس الجامعة ، استدعى الشيخين عنده فاعتذر الشيخ طه وانتهت المسألة ، وزاد لطفى السيد فى ترضية الشيخ المهدى فحضر مع طه وآخر من أساتذة الجامعة درسا من دروس الشيخ فلما انتهى وقف لطفى السيد ووجَّه الشكر للأستاذ ..

وقالت صحف أخرى انه ليس صحيحا ان طه اعتذر عما نسبه الى الشيخ المهدى من الخطأ العلمى ، ونشر سكرتير مجلس الجامعة بيانا فى الصحف قال فيه :

« اجتمع لدى الأستاذ الشيخ محمد المهدى والشيخ طه حسين وتكلما فى شأن ما نشر بجريدة « السفور » فيما يخصهما جميعا ، وتفاهما تفاهما حسنا ، واعتذر الشيخ طه حسين الى الأستاذ الشيخ مهدى عما رآه الشيخ مهدى ماسا بكرامته »

٥ ــ ازمة العودة :

ولكى تستكمل صورة هذه الفترة من حياة طه حسين لابد من تصوير مأساة اعادته من البعثة .. فقد سافر الى أوربا فى نوفمبر عام ١٩١٤

وكانت الحرب العالمية قد استعرت فى يوليو فتأخر سفره حتى هذا الموعد ، واشترط ألا يذهب الى باريس لقربها من ميدان الحرب فسافر الى مونبلييه ، وبقى هناك الى سبتمبر عام ١٩١٥ حيث قررت الجامعة اعادة مبعوثيها فعاد الى مصر فأمضى بها أربعة أشهر كانت من أقسى أيامه ..

ومن حسن الحظ انه سجل مشاعره فى هذه الفترة فى شبه يوميات نشرتها مجلة السفور نورد طرفا منها :

٥ نوفمبر ١٩١٥

تريدوننى على أن أكتب أيها الأصدقاء ولقد علمتم مالى بالكتابة من طوق ولا الى الاجادة من سبيل . ماذا تريدون من رجل لم يكد يأنس الى حياة النور والهدى حتى ردته الاقدار الى حيث الظلمة الداجية والضلال المبين .. ماذا عسى أن نصنع بذكائنا فى بلد قانع كمصر. قد رضى أهله بالقليل فى كل شىء ، فحسبهم من العلم والأدب ، ومن الفلسفة والحكمة ، ألفاظ يلوكونها وجمل يرددونها بين الشفاه ..

ياعجبا كل العجب ، يعود الناس الى بلادهم بعد الغربة فرحين ، ولقد عدت الى مصر آسفا محزونا ، ولقد أستحى أن أقول الحق فأعلن انى استقبلتها باكيا ..

١٤ نوفمبر ١٩١٥

ليس لى ماض أنعم بذكره ، ولا مستقبل ألهو بالتفكير فيه ، ولكن لى حاضرا يهيج فى قلبى ألوانا من الحزن ، ويغرى بنفسى فنونا من الأسى ، ذلك الحاضر هو هذه الساعة ، أذكر فى هذه الساعة ثلاثة أيام ، يوم ولدت ، ويوم سافرت الى أوربا ، وهذا اليوم ..

فى مثل هذا اليوم ولدت منذ ست وعشرين سنة ، وفى مثل هذا اليوم سافرت الى أوربا منذ سنة واحدة ، وأنا الليلة فى القاهرة أرجو ألا يصبح على الغد الا وقد رحلت الى حيث لا يرجع ظاعن ولا يرجى لمرتحل اياب . لا تصبح ايها الليل عن هذا الغد ..

تلك الأشهر التى أمضيتها فى فرنسا هى التى جعلت ليوم ميلادى فى نفسى قيمة ما ، فقد رأيت قوما ليس فيهم من لا يتخذ هذا اليوم لنفسه عيدا ..

لم يجب الله دعائى فقد أشرقت علىَّ شمس يوم الأحد ، ولو قد أشرقت علىَّ هذه الشمس فى غير هذا البلد لكنت حريا أن ألقى من أنواع البشر وألوان الابتهاج ما يسر هذه النفس الحزينة ويسلى عن هذا القلب الكئيب ، ولكنها قد أشرقت علىَّ فى مصر فأقسم ما لقيت طول اليوم شيئا يسر ، ولقد لقيت كثيرا مما يسوء .. حيا الله وفاء فرنسا وبرها فى هذين الشخصين يذكراننى من وراء البحر ، فلولا انى قرأت كتابيهما آخر هذا اليوم لأشفقت على نفسى أن أقضى صريع الأسى ..

٢٤ نوفمبر ١٩١٥

فى مثل هذا اليوم منذ سنة كاملة وصلت الى مونبلييه ، بلد لم أعهده ولم أكن أقدّر أن أراه .. على انى لم أكد أمضى فيه ساعات حتى احتجت الى كتاب فذهبت الى المكتبة ، وأخذت ما أردت ، ودفعت الى البائعة نقدا كان عليها أن ترد الىَّ فضله ، ولم يكن لديها هذا الفضل ، فردئت الى ما دفعت اليها وهى تقول : ستؤدى الى ذلك متى شئت ، قلت ولكنك لا تعرفينى يا سيدتى ، ولم ترينى قبل اليوم فانى بمدينتك حديث العهد ، قالت مستضحكة :

ــ لا عليك ..

ما أكثر ما زار الناس أوربا ، وما أكثر ما سعدوا بزيارتها وشقوا بفراقها ، ولكن ما أسرع ما تسلوا عنها وعادوا من حياتهم القديمة الى ما كانوا فيه غير ضجرين ، ولا والهين ، ولكنى أقسم ما تطاولت الأيام على أوبتى الا أذكى تطاولها فى نفسى اللوعة والحسرة ، وضاعف فى قلبى الهم والأسى ..

حتى لقد بغضت الى الوحدة وكره الى الاجتماع

بغضت الى الوحدة لأنها تذكرنى بتلك الحياة اللذيذة ، فقد عذب فيها كل شىء حتى البؤس ، وحسن فيها كل شىء حتى الشقاء

لو انى رضيت بحظى فى الحياة ، ولم أرحل الى حيث بلوت لذة غير دائمة ، وصفوا غير مقيم ، لجنبت نفسى هـذه العقبة التى اعترضت طريقى ، لقد مللت وأمللت فما آنس الى حديث وما أطمئن الى كتاب

٢٤ ديسمبر ١٩١٥

تركت فرنسا مستعبرا ، واستقبلت مصر مستعبرا ، وأقمت فيها هذه الأشهر آسفا محزونا ، لا ينام لى ليل ولا يصفو لى نهار . ضجرا بكل شىء ، ضيق الحظيرة بكل نازلة . متبرما حتى بحديث الأصدقاء والأحباء .. ما أكثر ما حزنت ، وأنا الآن أتأهب للعودة الى فرنسا ، فما أكثر ما كنت خليقا أن أجد من السرور والبشر ومن الغبطة والرضا ، حين دنوت من أمل طالما رجوته وطمعت فيه ، ولكنى لا أكذب الناس ولا أخفى على الناس ، لا أشعر بهذا السرور ، كما كنت أنتظر أن أشعر به ، انما هو سرور يشوبه الخوف ، ولذة يمازجها الألم ، وبشر يخالطه الأسى .. ومالى لا أحزن ولا أتألم وأنا عازم على رحلة لا أدرى ماذا أستقبل فيها ..

*

وبعد ..

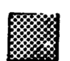
فان هذه الصورة التى حاولت أن أرسمها لهذه المرحلة من حياة طه حسين تعطى جذور فكره كله فى تحوله ، وتطوره ، تعطى صورة الشاب القلق المتطلع الى المجد والشـهرة والبروز ، الذى عرف طريقـه الى الصحافة والأدب ، وعوالم الفكر والجامعة والبحث ، جريئا يكوّن آراءه فى أمور الحياة والمجتمع ، ويتأرجح ــ على حد تصويره ــ بين المدرستين القائمتين فى مصر اذ ذاك : مدرسة التعقيل والبرهان ومدرسة العواطف والحماسة ..

ولقد تحول طه حسين فى آرائه واختلف مع كثير من أساتذته بعد أن اعتنق المذهب الحديث فى الفكر ، على النحو الذى صوره حين قال : « ثم تكون الرحلة الى أوربا والاقامة فى باريس فى أشد الأوقات حرجا ، وأحفلها بما تغيرت له قيم الاشياء تغيرا تاما ، واذا كل صلة بينى وبين الشيخ ـ يقصد الشيخ محمد عبده ـ قد انقطعت وعفت عليها الأحداث والخطوب واذا أنا أعود الى مصر رجلا آخر يكبر الاستاذ الامام ويعجب به ويحبه ، ولكنه لا يتابع منهجه ، ولا يحب أن يبقى طريقه فى التفكير أساسا للحياة العقلية للشباب »

وقد وقع هذا التحول أيضا بالنسبة لأحمد زكى باشا ، وعبد العزيز جاويش ، والشيخ المهدى والشيخ الخضرى

طه حسين
بين
ضمير الغائب وضمير المتكلم

د. عبد الحميد يونس



لقد حرصت دائما ، على أن أقرن الترجمة الذاتية الرائعة المعروفة باسم « الأيام » ، بتلك المحاولة الجريئة الثائرة فى مجال النقد وتاريخ الأدب حول « الشعر الجاهلى » . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنشر فصول « الأيام » متتابعة فى مجلة « الهلال » عام ١٩٢٦ ، وكأنها استجابة نفسية شرطيـة للمحنة التى مرّ بها مؤلفها بسبب رأيه فى انتحال الشعر الجاهلى ، وهى محنة ترددت أصداؤها فى المحافل العامة ، وفى الصحف ، وفى المدارس . وقدم من أجلها المفكر الجامعى الأول طه حسين الى النيابة العامة . وهذا الاقتران بين الكتابين الرائدين يوضحان الطريق بين المواجهة الصريحة للذات ، وبين ما يفرضه الاطار الاجتماعى على التعبير من رمز أو ما يشبه الرمز ..

وقدر لى فى عام ١٩٢٥ أن أتعرف بطريق غير مباشر على أحد ممثلى الجيل الجديد فى الفكر والأدب ، وهو عباس محمود العقاد ، وكان ذلك عن طريق أستاذ ظل طوال حياته فى التعليم يفاخر بأنه كان أستاذا موجها للعقاد ، وهذا المعلم هو الشيخ « فخر الدين » الذى توسم فى شخصى أن أكون شبيها بالعقاد فى تطلعه الى المعرفة ، وفى قريحته المعبرة ، وفى قدرته على حسن الصياغة ، وفى منطقه المقنع الرصين . وأحببت العقـاد منذ ذاك ، وتعلقت بشعره ونثره على السواء ، وكنت ممن يطمحون الى

البحث عن أصول معارفه وآرائه فى الآداب الأوربية . وفى العام التالى عرفت طه حسين ، ولكن بوسيلة أخرى لا يتاح مثلها للكثيرين .. أعجبت « بالأيام » ، وقرأت بنفسى فقراتها الأولى .. ثم رُددت اليها بعد شهور لأقرأها مجتمعة ، ولعل الأصح أن أقول لأستمع الى قارىء يسيلها الى مسمعى فتجد طريقها محفورا فى ذهنى ، وكنت أتساءل : لماذا آثر الدكتور طه حسين استعمال ضمير الغائب . وكان يستطيع أن يستعمل ضمير المتكلم ؟.. ولم أعرف الجواب الا بعد أمد طويل ..

*

ولست أريد أن أعرض لأبعاد العلاقة النفسية بينى وبين « الأيام » وصاحبها ، فقد رددت ذلك فى كثير من الفصول والأحاديث وحسبى أن أسجل ان لهذه الترجمة الذاتية وظيفتين أساسيتين : أولاهما أنها تعبير عن الذات فى مرحلة التكوين وهى أهم مراحل العمر ، وثانيتهما انها تعبير عن موقف نفسى خاص استتبع بالضرورة تداعى صور الطفولة وبواكير الصبا ، فانتزعها من أعماق الذاكرة ، وصورها بما يناسب الموقف النفسى ، وهو الاكبار من شأن الفكر الانسانى والالحاح على حريته والاستخفاف ــ بل الاستعلاء ــ على المحافظة والسلفية والجمود . ولقد ظللت أفسر كتاب « الأيام » على أساس اقترانه بمحنة الشعر الجاهلى ، وكنت أعد ذلك اجتهادا منى يستلزم الظن ، أو الترجيح فى أحسن الأحوال ، حتى اذا طلبت الى الدكتور طه حسين أن يكتب بنفسه مقدمة خاصة للطبعة البارزة منه وجدته يسجل هذه الحقيقة ، وهى انه كان استجابة للهموم الثقال التى كان يحس بها وقتذاك ابان الاضطهاد الذى وقع عليه من أجل تحرير الفكر باصطناع الشك فى الروايات القديمة التى جعلها المحافظون فى مكان المسلمات والمقدسات والبديهيات ..

والواقع ان مكانة أستاذ الجيل طه حسين انما تحددها المعركة المتواصلة فى سبيل الحرية ، وأيا كانت المحاولات التى بذلت فى نقد كتاب «الأيام» ومحاولة التعرف على أبعاده ، فان القليلين هم الذين يستطيعون أن يتبينوا

ان ظرفه الخاص ، كان بعيد الأثر فى استشعاره بذاته أولا ، وبمكان هذه الذات من الأطر الاجتماعية فى الحياة ثانيا ، وفى اندفاعه . انطلاقا من واقعه وتحديا له ، يحقق ذاته بالدعوة الى حرية الفكر وبالالحاح على تعقيل الحياة ، وهذه هى الأصول التى يقوم عليها منهجه المعروف فى النقد وتاريخ الأدب . ويرتكز عليها عمله فى الجامعة وفى الحياة العامة . وتستند اليها دعوته الى الثقافة والتنوير واشاعة المعرفة لكل طالب علم ..

*

ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان صاحب « الأيام » ، فى مواجهته لتحديات الظروف والأوضاع ، قد قام بما يشبه العمل الخارق . فان تحوله الى الجامعة المصرية القديمة التى فتحت أبوابها عام ١٩٠٨ ، كان بمثابة الانتقال الفجائى من بيئة محافظة سلفية أحالت ، أو كادت تحيل ، العقول الى أجهزة تجتر المحفوظ من الأقوال والصيغ والروايات ، الى بيئة أخرى تكبر من شأن الفرد وتحترم قدرته على التفكير ، وتعينه على التقويم والنقد وتدفعه الى الابتكار اذا كان من أصحاب الاستعداد له ، وتفتح له أبواب البحث لكى يضيف الى العلم جديدا . والحق ان الرائد العظيم استطاع أن يقوّم التراث العربى ، تقويما يضعه فى مكانه من تاريخ حضارة الانسان ..

واذا كان كتاب « الأيام » يعد تصويرا لموقف المؤلف من المحافظين بسبب الشعر الجاهلى ، فان كتاب « أديب » يمكن أن يعد هو الآخر تصويرا لموقف السلطة من المفكر الحر حين لم تجد أمامها غير احالته الى « المعاش » وكأنها تصورت ان الفكر جهاز مادى مرتبط بظروف تقيده بالعمل ، ونسيت أن ابعاده عن منبر الجامعة أتاح له أن يشع نوره عن طريق الصحافة . وكما تصورت من الواقع التاريخى ، ان نشر « الأيام » فى مجلة « الهلال » عام ١٩٢٦ يوضح التجربة النفسية للمؤلف فكذلك تصورت ان صدور كتاب « أديب » عام ١٩٣٤ يوضح هو الآخر موقفه من السلطة التى أبعدته عن الجامعة . ولست أنسى ان الشبان

الأربعة الذين ترجموا دائرة المعارف الاسلامية هم الذين نهضوا بمسئولية نشر هذا الكتاب الأخير عام ١٩٣٤ ، ولذلك يضاف الى كتاب «الأيام» باعتباره حلقة من حلقات الترجمة الذاتية .. وان كان الأمر فيها يختلف بعض الاختلاف ، لأننا نجد القدرة على التحول من ضمير الغائب الى ضمير المتكلم ، وان لم يخل التصوير من الاحالة على شخصية أخرى ، ومن الاقتراب الى الرمز الفنى ..

*

وحسبى ان أسوق هذه العبارة الصريحة : « كنت أريد أن أكون شيخا من شيوخ الأزهر مجددا فى التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون بالشيخ محمد عبده . أستعين على ذلك بما أسمع فى الجامعة وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد فى الصحف ، وما ألتقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافا عن الأزهر ونفورا من دروسه وشيوخه ، وحرصا على أن أهجر مصر وأعبر البحر الى بلد من هذه البلاد التى يطلب فيها العلم الواسع والأدب الراقى وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه » ..

وقد تعجب اذا قلت ان تفرغى لدراسة الأدب الشعبى العربى ما هو الا امتداد لمنهج أستاذى طه حسين فى تقويم الأدب ، وقد سبقنى على هذا الدرب جامعيون لا ينكر فضلهم فى هذا الميدان بحال من الأحوال ، فقد واجهت الدكتورة سهير القلماوى حكايات « ألف ليلة وليلة » بالتحليل والنقد ، وعرضت لمكوناتها ومقوماتها ومدى تأثيرها فى الآداب العالمية ، وعكف الدكتور فؤاد حسنين على « قصصنا الشعبى » وتوقف عند سيرة « عنترة » وغيرها وفصل الكلام على التمثيل غير المباشر المعروف بخيال الظل ، وقدم تمثيليات لم تكن معروفة من قبل الا للقليلين من المتخصصين . ولم يكن من المستطاع أن تستوعب الدراسة الجامعية هذه المأثورات الشعبية ، لولا ان منهج طه حسين قد مهد الطريق للتعرف على وجوه التعبير فى ما يسمى باللهجات العامية ، ومن اشاراته فى كتاب

« الأدب الجاهلى » الذى نقح به « الشعر الجاهلى » قوله : « .. ان فى لغتنا المصرية لهجات مختلفة وأنحاء متباينة من أنحاء القول ، فلأهل مصر العليا لهجاتهم ، ولأهل مصر الوسطى لهجاتهم ، ولأهل القاهرة لهجتهم ، ولأهل مصر السفلى لهجاتهم . وهناك اتفاق مطرد بين هذه اللهجات وبين ما للمصريين من شعر فى لغتهم العامية ، فأهـل مصر العليـا يصطنعون أوزانا لايصطنعها أهل القاهرة ولا أهل الدلتا ، وهؤلاء يصطنعون أوزانا لايصطنعها أهل مصر العليا ، وهذا ملائم لطبيعة الأشياء . فما كان للشعر أن يخرج عما ألف أصحابه من لغة ولهجة فى الكلام .. »

*

وعلى الرغم من ان الجامعى الأول قد حدد مهمته منذ اللحظة الأولى بدراسة النصوص الفصيحة وحدها ، الا انه كان يشير أحيانا الى الآداب الشعبية ، ولم تكن اشاراته عارضة ولا على سبيل الاستشهاد ، ولكنها كانت بمثابة توجيه النظر مع الموازنة بينها وبين الأشكال الأدبية الرسمية ، وكان طبيعيا أن يكبر من شأن القصة باعتبارها شكلا ممتازا من أشكال التعبير الأدبى ، فى الوقت الذى كان المحافظون يحتقرونها ويؤثرون عليها ما ألفوا من اعتبار اللغة والأدب وسيلة الى فهم القرآن والسنة والتاريخ وطه حسين الذى تخصص فى الآداب اليونانية واللاتينية ، والذى قام بتدريس التاريخ اليونانى والرومانى قد استغل التقاليـد الكلاسية فى تقويم الأدب العربى ، ومن اشاراته الى عراقة القصـة العربية قوله : « والقصص فى نفسه ليس من السياسة ولا من الدين ، وانما هو فن من فنون الأدب العربى ، توسط بين آداب الخاصـة والآداب الشعبية ، وكان مرآة للون من ألوان الحياة النفسية عند المسلمين ، وأزهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية ، أزهر أيام بنى أمية وصدرا من أيام بنى العباس ، حتى اذا كثر التدوين وانتشرت الكتب واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال الى مجالس القصاص ضعف أمر هذا الفن ، وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئا فشيئا حتى

ابتذل وانصرف عنه الناس » وظل هذا الابتذال دهرا طويلا حتى ان مصطفى لطفى المنفلوطى كان يخفى بعض كتاب « الأغانى » فى عب قفطانه خوفا من شيوخ الأزهر !

وأنت تجد فى الموضع نفسه من كتاب « الأدب الجاهلى » هذه الفقرة التى لها مغزاها البعيد فى الاعتراف بمكانة القصة العربية وعراقتها . وهذه الفقرة هى : « .. ومهما تكن الأسباب التى دعت الى نشأة فن القصص عند المسلمين ، فقد نشأ هذا الفن ، وكانت منزلته عند المسلمين هى بعينها منزلة الشعر القصصى عند قدماء اليونان ، وكانت الصلة بينه وبين الجماعات هى بعينها الصلة بين الشعر القصصى اليونانى وجماعات اليونان القدماء » . وليس من العجيب اذن أن يمهد طه حسين للجامعيين بعد دراسة الآداب الشعبية بصفة عامة والملاحم أو السير الشعبية بصفة خاصة ، فيعكفون على دراسة « عنترة بن شداد » و«سيف بن ذى يزن» و « بنى هلال » ، ومنهم من يطوع تلك النصوص لأغراض التعبير فى العصر الذى نعيش فيه ، ومنهم من يستلهمها لتكون عنده بمثابة المادة الأولى التى يعيد صياغتها بقريحته المعبرة ..

*

وان اعتماد طه حسين على حاسة السمع قد مكنه من تصحيح مفهوم اللغة تصحيحا يخلصها من ذلك التصور الخاطىء الذى يراها صورا ورموزا تقرأ بالعين فحسب ، مع ان هذه الصور وتلك الرموز عبارة عن وسيلة تعسفية للتسجيل ، وانها ، مهما بلغت من الضبط والاحكام ، لا تستطيع أن تحكى تفاصيل اللغة التى تقوم على النبر والايقاع ، والتى ترتكز على الموسيقى . ولقد أخطأ الذين يسلكون أستاذنا طه حسين فى عداد الكتاب وأصح من ذلك أن يأخذ مكان الصدارة من الأدباء . واذا كان يتلقى المعرفة والتعبير عن طريق الأذن ، فهو أيضا يبعث المعرفة والتعبير عن طريق الصوت المسموع ، ومن هنا يكون من الضرورى أن نعنى بالنبرة والايقاع عنايتنا بالتراكيب اللفظية .. ان أسلوب طه حسين له

أبعاده التى تتجاوز المصطلح اللغوى ، وهى أبعاد موسيقية .. ولقد عنّ لبعض تلاميذه ــ وأنا واحد منهم ــ أن يخضعوا أسلوبه للتقطيع الموسيقى فأدهشتهم أن يجدوا ان كثيرا من فقراته يمكن أن تخضع حتى لعروض الشعر العربى التقليدى ، وكأنها نظم مرسل بلا قافية . وكان منا واحد تخصص فى الغناء ، فانتخب فقرات من « دعاء الكروان » ولحنها ورجعها على مسامعنا كما يفعل المغنون بالقصيد ..

*

ومن هذه النقطة نلمح ادراكه منذ البداية للعلاقة الوثيقة بين الشعر والموسيقى . وها هو يسجل رأيه صريحا فى كتاب « الأدب الجاهلى » أيضا فيقول : « والشيء الذى يظهر ألا سبيل الى الشك فيه هو ان وزن الشعر العربى كوزن غيره من الشعر ، انما هو أثر من آثار الموسيقى والغناء . فالشعر فى أول أمره غناء . ومن ذكر الغناء فقد ذكر اللحن والنغم والتقطيع . أو قل بعبارة موجزة : فقد ذكر الوزن . والواقع انا لا نعرف من تاريخ الأمم القديمة ان الشعر والموسيقى قد نشآ مستقلين ، وانما نشآ معا ونميا معا أيضا . ثم استقل الشعر عن الموسيقى فأخذ ينشد ويقرأ ، وظلت الموسيقى محتاجة الى الشعر فى الغناء مستقلة عنه فى الايقاع الخالص ، أو قل ظل الغناء نقطة الاتصال بين هذين الفنين » ..

وكان طبيعيا أن يشدو طه حسين فى بواكير حياته الأدبية بالشعر ، وأن تجد قصائده طريقها الى المحافل العامة ، ذلك لأن أذنه المرهفة قد يسرت له من غير شك ، ادراك الاطار الموسيقى العام للشعر العربى التقليدى ، كما ان تلك المرحلة من مراحل سيرته الأدبية من طبيعتها أن تعتصم بالتقليد ، فاذا أضفنا الى هذين السببين ان الأذن أكثر محافظة من العين ، اتضح لنا الباعث على ايثاره للقوالب المألوفة فى النظم العربى ، وفهمنا لماذا يتخذ فى أسلوبه النثرى أبعاد المصاريع والأبيات الكاملة والمجزوءة فى أكثر الأحيان .. ولقد دعتنى هذه الحقيقة الى اعادة النظر فى مفهوم الشعر ، وأنا أعترف بأن الموسيقى جزء لا يتجزأ من المضمون

التعبيرى فى اللغة اللسانية.. الموسيقى توجد فى كل ما يصدر عن الانسان من كلام ، وليس الشعر هو الذى يستأثر بالعنصر الموسيقى دون النثر الفنى ولابد من البحث عن مقوم آخر يرتبط بمدى الموسيقية فى التعبير ، لكى نفرق بين الشعر وبين النثر الفنى ..

*

وما نريد الاسترسال فى هذه المسألة التى قد تبدو خلافية بين الأدباء والنقاد ، ولنعد من حيث بدأنا ، فقد استعمل أستاذ الجيل ضمير الغائب فى كتاب « الأيام » للأسباب التى أوضحتها فى صدر الحديث ، وكان من المنطقى للجيل الذى كرَّ بعده ، أن يستعمل ضمير المتكلم تحقيقا لتجربة مماثلة ، وأشهد اننى ظللت ثلاثين عاما أحاول مواجهة تجربتى مواجهة مباشرة وتفصيلية بضمير المتكلم . وكنت كلما بلغت قمة التجربة شعرت بالعجز عن مواصلة التعبير ، مع وجود الحافز ووضوح الرؤية ، والقدرة على الصياغة .. وهأنذا الآن أتغلب على تلك الصعوبة النفسية فأستعمل ضمير المتكلم فى تصوير « التجربة الأولى » لكى أقدمها الى صاحب « الأيام » .. واذا كان قد أنار لى الطريق الذى سلكته لأكون رائدا متواضعا فى دنيا الفكر والأدب ، فان من حقى أن أقدم له أيضا رائدا فى الجيل الصاعد يتخصص مثله فى الأصول الكلاسية لحضارة الانسان ، ويبذل جهده فى تقويم الفكر وتحقيق التجربة بالفن الأدبى ..

طـه حسـين
المـؤرخ الإسـلامى

ابراهيم الابياري

لا أحب أن أدخل الى هذا الحديث دون أن أذكر شيئا عن التاريخ علما ، ومدارسه ، ليستوى لى بعد ذلك الحديث عن المؤرخ .. والحديث عن التاريخ علما يردنى الى الوراء قليلا لأعرض ما قيل حول أصل هذه الكلمة ..

فمعاجمنا اللغوية تذكر الكلمة وتذكر لها أفعالا وكلهـا تدور حول التوقيت ، يقول الجوهرى : التاريخ : تعريف الوقت . والتوريخ مثله ، يقال : أرخت وورخت

ويزيد الأصمعى فيقول : بنو تميم يقولون : ورخت الكتاب توريخا ، وقيس تقول : أرخته تأريخا

ونحو هذا أو قريب منه تردد فى معاجمنا العربية ، غير أن فى بعضها مزيدا يشـير الى أن ثمة شـكا فى أصـل الـكلمة ، من ذلك قول الجوهرى : قيل اشتقاقه من الأرخ ، بفتح الهمزة وكسرها ، وهو صغار الأنثى من بقر الوحش ، لأنه شىء حدث كما يحدث الولد

وهذا التأويل الذى ارتضاه نفر لم يطمئن اليه نفر ، فنجد أبا منصور الجواليقى يقول فى كتابه « المعرب » : يقال ان التاريخ الذى يؤرخه الناس ليس بعربى محض ، وانما أخذه المسلمون من أهل الكتاب

ونجد من بعد الجواليقى من يملك أن يقولها صريحة ، وهو محيى الدين محمد بن سليمان الكانيجى فيقول فى كتابه « المختصر فى علم التاريخ » : « ولفظة التاريخ معربة مأخوذة من « ماه روز »

والأصل فيه أن أبا موسى الاشعرى كتب الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما : انه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندرى على أيها نعمل ، قد قرأنا صكا محله شعبان ، فما ندرى أى الشعبان هو ؟ أهو الماضى أو الآتى ؟ ..

وقيل انه رفع الى عمر صك محله شعبان فقال : أى الشعبان هذا ، أهو الذى نحن فيه أو الذى هو آت ؟ ثم جمع وجوه الصحابة وقال : ان الأموال قد كثرت ، وما قسمناه غير مؤقت فكيف التوصل الى ما يضبط به ذلك ؟ فقال الهرمزان ، وهو ملك الاهواز ، وقد أسر عند فتوح فارس وحمل الى عمر وأسلم على يده : ان للعجم حسابا يسمونه ماه روز ، ويسندونه الى من غلب عليهم من الأكاسرة ، فعربوا لفظة ماه روز بمؤرخ وجعلوا مصدره التأريخ ، واستعملوه فى وجود التصريف .. واتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الاسلام من لدن هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد ..

وثمة احتمال أن الكلمة من أصل سامى يعنى القمر أو الشهر ، فهى فى الأكدية « أرخو » ، وفى العبرية والآرامية « يرخ » ، ولكن هذا الاحتمال عليه ما يدفعه لاستبعاد استعارتها من الأكدية ، ثم لوجود الياء فى الصورتين العبرية والآرامية . والذين يدفعون هذا بهذه الأسباب يرجحون أن الكلمة من العربية الجنوبية ، ويستندون فى هذا الى ما يروى من أول من أرخ التاريخ يعلى بن أمية حين كان باليمن ، فلقد كتب الى عمر كتابا من اليمن مؤرخا فاستحسنه عمر فشرع فى التأريخ

هذا الى أن ثمة نقشا عربيا جنوبيا كشف عنه أخيرا ، فيه جذر لهذه

الكلمة (أرخ) وهو فى هــذا النقش يحتمل معنى قريبا من معناه فى العربية ..

ونحن اذا نقبنا فى الأدب الجاهلى لا نجد لهذه الكلمة « تاريخ » ذكرا فيه ، كما لم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم ولا فى الحديث الشريف. ونجد أن الحديث الوحيد الذى أشار الى التقويم الاسلامى ذكر كلمة « عد » ولم يذكر كلمة « أرخ » . يروى البخارى فى صحيحه يقول : حدثنا عبدالله بن مسلمة حدثنا عبد العزيز عن أبيه عن سهل بن سعد قال : ماعدوا من بعث النبى ولا من وفاته عددا الا من مقدمه المدينة (١).

وهذا ما يرجح ما أشرنا اليه من قبل من أن دخولها فى الآداب العربية كان مع دخول التقويم الهجرى على يدى عمر بن الخطاب . وثمة ورقة بردى يرجع تاريخها الى سنة ٢٢ هـ ، وأظنها أقدم ما انتهى الينا من مدونات ذلك التقويم الهجرى، وانها لم تعرف طريقهـا الى الآداب العربية قبــل ذلك مع آن العرب فى جاهليتهم كان لهم توقيت يربطونه بهبوط آدم . ثم بالطوفان ، ثم بنار الخليل عليه السلام ، ثم بزمان يوسف عليه السلام ، ثم بخروج موسى عليه السلام من مصر . ثم بزمان داود عليه السلام ، ثم بزمان سليمان عليه السلام . ثم بزمان عيسى عليــه السلام ، وهم فى الاشارة الى هذا كله لم نجد فى استعمالهم كلمــة « تاريخ » ..

ومنذ القرن الثانى الهجرى أخذت كلمة «تاريخ» معنى جديدا غير ذلك المعنى الذى بدأت به ، وهو الدلالة على وقت الشىء وزمنه ، فأصبحت تطلق على الكتاب التاريخى ، وكان مما هيأ هذه الكلمة لهذه الدلالة أن الكتب التى كانت تطلق عليها كانت تحمل أزمنة ، وكان كل كتاب لايحمل هذه الأزمنة لا يسمى كتاب تاريخ ، وهكذا كان ذكر سنى الولادة وسنى الوفيات فى هذه الكتب سببا لهذه التسمية ومبررا لدخول هذه الكلمة

---

(١) مناصب الانصار : ٤٧

الى هذا المعنى الجديد ، ثم أخذت تتسع لكل كتاب فى التاريخ وان لم يحمل مثل تلك الأسباب . وكان ذلك منذ القرن الثالث الهجرى

غير أن التاريخ لم يأخذ مكانه علما بين العلوم الا متأخرا ، وأكبر الظن أن الكندى يعقوب بن اسحاق (٢٦٠ هـ) ــ وكان أسبق المؤلفين الى تعداد العلوم ــ لم يعرض له فى كتابيه « أقسام العلم الانسى » و « ماهية العلم وأصنافه » اذ لو كان فعل لتأثر به من جاء بعده مثل الفارابى محمد بن محمد بن طرخان (٣٣٩ هـ) فى كتابه « احصاء العلوم » ، وابن سينا الحسين بن عبدالله (٤٢٨ هـ) فى كتابه « رسالة فى أقسام العلوم العقلية » ..

وبقى هذا ديدن من جاء بعدهم ، مثل ابن عبد البر يوسف بن عبدالله (٤٦٣ هـ) فلم يذكره هو الآخر فى كتابه « جامع بيان العلم » ثم الأكفانى محمد بن ابراهيم (٧٩٤ هـ) فى كتابه « ارشاد القاصد الى أسمى المقاصد » فنجده لا ينظر اليه علما مستقلا . وعلى نهج الاكفانى نرى معاصره الذهبى محمد بن أحمد (٧٤٨ هـ) لا يذكره فى كتابه « بيان زغل العلم » الذى يتحدث فيه عن العلوم

غير أننا نجد فى القرن الذى أظل ابن عبد البر رجلا آخر هو ابن حزم على بن أحمد (٤٥٦ هـ) حين يضع كتابه « مراتب العلوم » يعرض فيه لعلم التاريخ فيقول : العلوم القائمة اليوم سبعة أقسام عند كل أمة وفى كل مكان وزمان : علم الشريعة ، وعلم أخبارها (وهو يعنى علم تاريخها) ويتبعه الرازى فخر الدين محمد بن عمر (٦٠٦ هـ) فيذكره فى كتابه « جامع العلوم » ويجعله العلم الثالث عشر ، ثم يتناوله الصفدى خليل ابن أيبك (٧٦٤ هـ) فى مقدمته لكتابه « الوافى بالوفيات » وكذلك ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) فى مقدمة تاريخه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ثم المقريزى أحمد بن على (٨٤٥ هـ) فى كتابه « الخبر عن البشر »

ومن بعد هؤلاء جميعا نجد الكامنجى محمد بن سليمان (٨٧٨ هـ)

يقول فى كتابه « المختصر فى علم البشر » : « وأما علم التـاريخ فهو علم يبحث عن الزمان وأحواله وعن أحوال من يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته » . وهـذا التعريف على ما فيه يعد أول اعتراف بعلمية التاريخ ويعد الكامنجى به أول من عد التاريخ علما من العلوم ..

ولقد كان كتاب الكامنجى هذا هو المدد الذى استمد منه السخاوى محمد بن عبد الرحمن (٩٠٢ هـ) كتابه « الاعلام بالتوبيخ لمن ذم التاريخ»

ولعـل الكامنجى قـد أفاد هو الآخر من كتاب « نفائس الفنون فى عرائس العيون » للعالم الفارسى محمد بن محمود الآملى (٧٤١ هـ) فقد كان للتاريخ مكانه بين العلوم الدينية والاسـلامية وبين العلوم الأدبية العربية . وقد سمى التاريخ « علم التواريخ والسير »

وهذا الذى تعرض له التاريخ فى الشرق تعرض لمثله فى الغرب ، وما نراهم فرغوا من ذلك أو كادوا الا منذ عهد قريب . فقد كان الفلاسفة الطبيعيون يعدونه دون العلم بكثير على حين كان رجال الأدب يعدونه فوق العلم بكثير . وكان الفلاسفة الطبيعيون يحتجون لرأيهم بأن مادة التاريخ تختلف عن مادة العلوم من حيث كونها غير ثابتـة ولا قابلة للتجديد ، وانه من غير الميسور أن نعاين وقائع التاريخ معاينة مباشرة . وان الاختبار والتجربة أمران غير حاصلين فى الدراسة التاريخية . وان كل واقعة من واقعات التاريخ المسلم بها قائمة بذاتها . وليس فى الامكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها ، وانه من أجل ذلك لن يتأتى تقسيم الواقعات على وجه الدقة ، وانه غير ممكن أن نصل فى التاريخ الى شىء من قبيل التعميمات أو القوانين العلمية ، وان مادة التاريخ بعد ذلك كله مركبة تركيبا لا نهاية له ، وانه ليس ثمة اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الواقعات وما ليس بهام ، وان عنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق ويحبط كل محاولة ترمى الى توقع الحوادث والاخبار بها قبل وقوعها كما كان رجال الأدب يذهبون الى أن التاريخ سواء أكان علما أم غير علم فهو لاريب فن من الفنون ، وان العلم بالغا ما بلغ لا يعطينـا من

التاريخ سوى العظام المعروقة اليابسة ، وانه لا مندوحة عن خيال الشاعر اذا أريد نشر تلك العظام وبعث الحياة فيها ، فاذا ما أحياها الخيال فهى بحاجة الى دقة براعة الكاتب النحرير لتبرز فى الثوب اللائق بها وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا ..

ثم ينتهون الى ان التاريخ يتضمن أشيـاء ثلاثة : الأشخاص الذين حولهم يدور الحديث عما أوجدوه ، الحديث الذى يصور هذا ، البحث والاستقصاء وطلب الحقيقة ..

وهم فيما انتهوا اليه لم يبعدوا عما انتهى اليه المشارقة فى ذلك . فمثل هذا قاله الكامنجى فى كتابه « المختصر فى علم التاريخ » والسخاوى فى كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » . وهو مما يثبت ان التاريخ علم . وهو ليس كالفلك علم معاينة ومباشرة ، ولا كالكيمياء علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، أقرب شبها بعلم « الجيولوجيا » فكما ان الجيولوجى يدرس الأرض كما هى ليعرف جاهدا كيف انتهت الى ما هى عليه ، كذلك المؤرخ يدرس آثار السالفين ليفسر بها ما عليه الحاضرون ، وكما ان الجيولوجى يجد مادته فيما سلم له من بقايا أدلة فى الطبيعة تدل على التطورات . كذلك المؤرخ يعتمد فى تعرف الماضى بآثار مادية أو نقوش أو صكوك سلمت من عوادى الزمن

فالتاريخ ليس علما من العلوم الفيزيقية كما قلت لك يعتمد على المعاينة والتجربة ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، ومواده كما رأيت ليست المواد التى فنيت وانقطع وجودها بل المواد التى لا تزال موجودة ، سواء أكانت روايات تحدث بما وقع ، أم بقايا أشياء كانت موجودة ، أم نتائج أحداث حدثت . وتكاد مراحل استقراء التاريخ تنحصر فى ثلاث مراحل :

١ ـ المرحلة الأولى : مرحلة التجميع ، أى تجميع المواد

٢ ـ المرحلة الثانية : مرحلة النقد ، أى مناقشة ما جمع

٣ ـ المرحلة الثالثة : مرحلة التأويل ، وهى أشق المراحل كما يقولون ،

اذ على المؤرخ فيها أن يجمع من أشتات الخيال صورة أقرب ما تكون الى الحق ..

هذا ما أثاره « هرنشو » أستاذ التاريخ بجامعة لندن فى أوائل القرن العشرين الميلادى ، وتكاد آراؤه هـذه وآراء غيره التى ضمنها كتابه « علم التاريخ » مما تناوله من قبله مؤرخون شرقيون ، مثل الكامنجى والسخاوى مع اختـلاف فى العرض كما قلت لك ، فهم حين يعرفون التاريخ يقولون :

من يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان فى العالم

وحين يتناولون موضوعه يقولون :

وأما موضـوعه فالانسان والزمان . ومسـائله : أحوالهما المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للانسان وفى الزمان

وحين يعرضون لفائدته يقولون :

وأما فائدته معرفة الأمور على وجهها مع الضبط والتوثيق وما أشبههما مما مرجعه الفحص عن الأحوال

وهم يشترطون فى المؤرخ شروطا فيقولون :

وأما شرط المعتنى به فالعدالة مع الضبط التام النـاشىء عنه مزيد الاتقان والتحرى ..

ويحضرنى هنا قول التاج السبكى فى كتابه « معيد النعم » : « وهم ـ أى المؤرخون ـ على شفا جرف هار ، لأنهم يتسلطون على أعراض الناس ، وربما نقلوا مجرد ما يبلغهم من كاذب أو صادق ، فلا بد أن يكون المؤرخ عالما عادلا عارفا بحال من يترجمه ، ليس بينه وبينه من الصداقة ما قد يحمله على التعصب له ولا من العداوة ما قد يحمله على الغض منه »

ثم هم يرون ان هذا العلم تشارك فيه علوم أخرى .. يقول السخاوى :

« ويستفاد من أنباء هذا الفن ما لعله يندرج فى علوم أخر كالسياسة ، الذى يتعرف منه أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات الفاضـلة

والمردية ، وكعلم الأخلاق الذى تعلم منه أنواع الفضائل وكيفية اكتسابها وأنواع الرذائل وكيفية اجتنابها ، وكعلم تدبير المنزل الذى تعلم منه الأحوال المشتركة بين الانسان وأهله .. »

وهذا العلم الذى اكتمل للعرب على أطوار، كما مرَّ بك ، وأصبح من أجل العلوم العربية شأنا . بدأ أول ما بدأ أحاديث يتناقلها سكان البوادى ويخط بعضها سكان الحواضر فى اليمن والحيرة ..

وحين أظل الاسلام الجزيرة العربية وخط الرسول صلى الله عليه وسلم بدعوته وجهاده صفحات الرسالة أصبح للعرب تاريخ تتوفر فيه المراحل الثلاث التى أشرت اليها من قبل . وهى التجميع . ثم النقد ، ثم التأويل . لم تأخذ هذه المراحل معا على أقدار واحدة ، بل كانت المرحلة الأولى وهى التجميع . هى الغالبة ، وحين امتد بالعربى الزمن شيئا فشيئا أخذت المرحلتان الثانيتان تغلبان ..

وكان هذا التاريخ الذى أخذ العرب فيه وبدءوا به ، خاصا بسيرة هذا الرسول الكريم ، وكان أول من كتب فيه عروة بن الزبير بن العوام (٩٣ هـ) ثم أبان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ) ثم وهب بن منبه (١١٠ هـ) وشرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) .

ومن بعد هؤلاء كان محمد بن اسحاق (١٥٢ هـ) ومحمد بن عمر الواقدى (٢٠٧ هـ) اللذان انتهى اليهما علم السير والمغازى ، وللأول منهما كتاب السيرة الذى اختصره من بعده ابن هشام بن عبد الملك (٢١٨ هـ) ، وللثانى — اعنى الواقدى — كتاب المغازى ..

وهذه السيرة الكريمة التى شملت حياة الرسول ما لبثت أن اتسعت لحياة الأمة العربية المسلمة، وأخذت تدخل فى التدوين التاريخى بمعناه العام . لا أعنى ان هذا البدء بالتأليف فى السيرة عوق غيره الى أن اكتمل ، بل أعنى ان هذا البدء أملى غيره وانه جاء سابقا وجاء غيره لاحقا ..

ولم يأخذ التاريخ العربى معناه العام طفرة بل هو حين اتسع لغير السيرة أخذ فى أطراف أخرى قريبة مثل سير الأشخاص وأنسابهم وطبقاتهم

يعنى بهذا كثيرا ويعنى بما يقربه من معناه العام قليلا . وتعنى به التاريخ المتكامل الذى يجتمع فيه هذا كله ولا يكون فيه بعضه مقصودا لذاته

ولم يتأخر الزمن بالعرب كثيرا الى أن يبلغوا هذا المبلغ المتكامل فى التاريخ . فلم يكد يظلهم القرن الثالث الهجرى حتى رأى من بينهم من توفرت لهم أسباب هــذه الدراسات التاريخية المتكاملة مثل ابن قتيبه عبد الله بن مسلم (٢٧٠ هـ) صاحب كتاب المعارف . والبلاذرى احمد ابن يحيى (٢٧٩ هـ) صاحب كتابى فتوح البلدان وأنساب الأشراف . واليعقوبى أحمد بن يعقوب (٢٧٨ هـ) صاحب التاريخ المنسوب اليه ، والدينورى أحمد بن داود (٢٨٢ هـ) صاحب الأخبار الطوال ، وابن جرير الطبرى محمد (٣١٠ هـ) صاحب تاريخ الأمم والملوك ..

وحين أخذت الوحدة السياسـية تتداعى منذ منتصف القرن الثالث الهجرى ، وأخذت الدولة العربية الكبيرة تنفصم دويلات ، وأخذت ثمة مدن تبرز الى الوجود لتزاحم بغداد عاصـمة الخلافة ، أخـذ التاريخ هو الآخر طابع العصر واذا هو يعنى بأقاليم لا بدولة واحدة ، وكان منه ما هو خاص بمصر مثل ولاة مصر وقضاتها للكندى محمد بن يوسف (٣٥٠ هـ) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى أبى بكر أحمد بن على (٤٦٣ هـ) ، وتاريخ دمشق لابن عساكر أبى القاسم على بن الحسن (٥٧١ هـ) ..

غير ان هذا لم يحل بين التاريخ العام وبين أن يمضى فى سبيله ، فنرى المسعودى أبا الحسن على بن الحسـين (٣٤٦ هـ) يضع كتابه أخبـار الزمان ثم مختصره الذى سماه مروج الذهب ، كما نرى ابن مسكويه أبا على احمد بن محمد (٤٢١ هـ) يضع كتابه تجارب الأمم ، ثم ابن الأثير أبا الحسن على بن محمد (٦٣٠ هـ) يضع كتابه الكامل فى التاريخ ، ثم أبا الفدا اسماعيل بن على (٧٣٢ هـ) يضع كتابه المختصر فى أخبار البشر

وحين منيت الدولة الاسـلامية الـكبيرة بالغزو المغولى ثم بخروج الأندلس من حوزتها ، وأحس العالم العربى ثقل الخطوب أحسها معه

المؤرخون ، فاذا هم يملون عن فلسفة وفكر، وذلك مثل ما فعله ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ) فى مقدمة تاريخه العبر ، وأخذ التاريخ تجتمع له مراحله التى تم بها أن يكون علما ، وأخذ المؤرخون فى مرحلتى النقد والتأويل بعد مرحلة التجميع ، وكان من ذلك ما كتبه الصفدى خليل ابن ايبك (٧٦٤ هـ) فى مقدمته لتاريخه الوافى بالوفيات ثم الكامنجى فى كتابه المختصر فى علم التاريخ ، والسخاوى فى كتابه الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، كما أشرت الى ذلك من قبل ..

وأنا أعنى هنا النقد بمعناه التاريخى الخاص : ومناقشة الأحداث التاريخية فى دلالاتها لا فى صحة رواياتها ، اذ هذا المعنى الثانى — وأعنى صحة الروايات — نشأ فى التاريخ العربى مع مرحلة التجميع لم يتخلف عنه ، فلقد كان التاريخ العربى منذ نشأته خاضعا لأسلوب المحدثين ومنهجهم ، يروى الخبر موصولا برجاله الذين رووه كما يروى الحديث يجرح الراوى هنا أو يعدل كما يجرح الراوى ويعدل فى الحديث . فكان النقد خاصا بالراوى أكثر مما هو خاص بالمروى ، ولكن حين استقام التاريخ علما أصبح النقد خاصا بالمروى خالصا له بعد أن عز تتبع الرجال وتعرف أحوالهم وبعد أن أصبح الخبر حقيقة تناقش بعد أن كان شيئا يؤثر فحسب ..

وقد اضطرت الطريقة الأولى المؤرخين العرب الى عرض أخبارهم كما عليه أسلوب الرواية ، وقد يروى الخبر مرة ومرة اذا اختلف رواته وبهذا حرمت الأخبار من عرضها عرضا متصلا يجتمع الخبر الى الخبر لينساق من هذا حديث متصل يحمل الرأى احقاقا وابطالا ..

ولقد نشأت فى ظل هذين النهجين مدرستان : مدرسة أخذت بسوق الأخبار على ترتيب السنين ، وكان شيخ هذه المدرسة الهيثم بن عدى (٢٠٧ هـ) ، ومدرسة التزمت بسوق الأحداث على مساق القصة مرتبة على العهود ..

وانك لتحس الفرق بين المساقين فيما كان على أيدى رجال المدرسة

الأولى الذين كان منهم الطبرى محمد بن جرير (٢١٠ هـ) وابن مسكويه احمد بن محمد (٤٢١ هـ) وابن الأثير على بن محمد (٦٣٠ هـ) وأبو الفدا اسماعيل بن على (٧٣٢ هـ) وما كان على أيدى رجال المدرسة الثانية الذين منهم اليعقوبى احمد بن أبى يعقوب بن جعفر (٢٧٨ هـ) والدينورى أحمد بن داود (٢٨٢ هـ) والمسعودى على بن الحسين (٣٤٦ هـ) وابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨ هـ)

وكان منهج المدرسة الثانية هو الأساس للتميز النقدى الذى استوت به للتاريخ مرحلته الثانية ، وهى مرحلة النقـد بمعناها الخاص . أعنى النظر فى المروى لا فى الراوى . ولكنها لم تكتمل الا متأخرة على الرغم من أنها أخذت فى الأسباب مبكرة . لأنها على الرغم من انفصـالها عن الأولى الا انها كانت تملى متأثرة بها ..

وحين أهل القرن التاسع عشر الميلادى ونزح الفرنسيون عن مصر ، وأخذت الحياة تنتعش بعد خمود . والأفكار تستيقظ بعد سبات ، وظهرت ثمة كتب فى التاريخ مترجمة عن اللغات الأوربية مثل كتاب أسباب قيام دولة الرومان وانحطاطها ، الذى نقله الى العربية حسن الجبيلى ، وهو أول كتاب فى فلسفة التاريخ ، ثم كتاب روح الشرائع لموتتسكيو ، وتاريخ فرنسا العام . أخذت فكرة النقد التاريخى تقوى وكسب المؤرخون العرب بما قرأوا كسبا جديدا أعانهم على املاء جديد ونشأت مدرسة فى التاريخ استوى لها أسلوب متميز كل التميز ، وكان من رجال هذه المدرسـة الجبرتى عبد الرحمن بن حسن (١٢٤٠ هـ) وله كتابه المعروف « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » ويعرف بتاريخ الجبرتى ، أرخ فيه للقرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين ، ثم كتابه « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » ومن بعد الجبرتى كان الالوس شهاب الدين محمود (١٢٧٠ هـ) ومحمد بيرم التونسى (١٣٠٧ هـ) ثم على مبارك (١٣١١ هـ) صـاحب الخطط التوفيقية ، ثم جرجى زيدان (١٩١٤ م) ومن كتبه « تاريخ مصر الحديث » ..

ولم تشغل هذه المدرسة الحديثة بالتاريخ الحديث وحده كما يبدو لك مما عرضنا من بعض مؤلفاتهم ، بل منهم من كان له فى الماضى البعيد مؤلفات ، ولكن على غير الأسلوب الأول ، والمؤرخ كما يشغل بحاضره يسجله لن ينسى ماضيه يذكر ما فيه ، وقد يكون هذا الماضى جزءا من الحاضر وأساسا له لا يمكن الحديث عن الحاضر دون التمهيد به وذكر ما فيه ..

والاسلام وما اليه ماض قبل أن يكون حاضرا ، والمشتغلون به من رجال المدرسة الحديثة ناظرون الى هذا الماضى سائقون له سوقا حديثا تحقق فيه مرحلة النقد ثم مرحلة التأويل بعد أن توفرت له مرحلة التجميع فتلك مرحلة سبقت ولا عناء معها غير عناء تقصى المكتوب هنا وهناك . وقد يكون مع مرحلة النقد شىء من هذا سبق ، وهو الذى أشرت اليه من قبل من وزن للرجال يلقى ضوءا على الحديث المروى ، ولكن الذى نجد منه شيئا هنا وهناك فى هاتين المرحلتين : مرحلة التجميع ، ومرحلة النقد ، لا نجد منه شيئا مع المرحلة الثالثة وهى مرحلة التأويل ، اذ تلك المرحلة تكاد تكون بنت العصر الحديث كلها وتكون دليل نضج علم التاريخ وبلوغه كماله ..

وهـــذا التمهيد الذى مهدت به كان لابد منه كله لأعرض فى ضوئه أعمال مؤرخنا الاسلامى الدكتور طه حسين ..

ولقد عاش مؤرخنا كما يعيش المؤرخون الجامعيون بشقى هذا العلم ، وأعنى بهذين الشقين : النظرة فيما بين أيديهم ، والنظرة فيما بين أيدى الغابر ، يؤرخون لحياتهم التى يحيونها ، ويؤرخون للحياة التى عاشها السلف ..

ومؤرخنا الدكتور طه حسين حين شغل نفسه بالتأريخ لمن سلف لم يدخل فى عموم وانما دخل فى خصوص ، أحب أن يكون لجانب خاص وجانب أهم هو الجانب الاسلامى دينا وسياسة لا تاريخا عاما يؤرخ للأمة العربية تاريخا عاما

أما عن النظرة الاولى وهى النظرة المعاصرة فنستطيع أن نعد له فى ذلك كتابيه الأيام وأديب

وعهدنا بهذا اللون من التأليف التاريخى يرجع الى أيام المأمون ، فابن النديم يذكر فى كتابه « الفهرست » أن ثمة وزيرا يدعى الفضــل بن مروان بن ماسرجيس،كان وزيرا للمأمون (١٧٠ ــ ٢١٨ هـ) ثم للمعتصم (١٧٩ ــ ٢٢٧ هـ) ، وأن هذا الوزير كانت له مذكرات أو يوميات

ونستطيع أن نعد من هذا مؤرخين من مؤرخى القرن السادس الهجرى، وهما عمارة اليمنى (٥٦٩ هـ) وأسامة بن منقذ (٥٨٤ هـ) فقــد بدأ عمارة كتابه « النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية » بترجمة حياته ومضى يتحدث عن نفسه الى أن استقر بمصر ، كما فعل شيئا مثل هذا أسامة بن منقذ فى كتابه « الاعتبار »

وهذا اللون من التاريخ الذى أهمل اهمالا كثيرا ولم يعرض له الا فى القليل من خير ما يؤلف فى التاريخ ، وقد يجيء عرضا جامعا للأحداث أشبه بما كان يعرف عند الفرس باسم « روزنامجة » أى يوميات ، وكان هذا لا شك منهجه يوم كان التاريخ قاصرا على مرحلة التجميع لم يجمع اليها النقــد والتأويل ، ولكن حين نضج التــاريخ وأصبح يجمع الى التجميع النقد والتأويل أخذت هذه اليوميات هذا الاسلوب النقدى التأويلى لا تعنى بالجمع عنايتها بالنقد والتأويل ، بل يكاد همها كله يتضام حول هذه المرحلة النقدية

والأيام لمؤرخنا الدكتور طه حسين من هذا اللون الجديد القائم على النقد أكثر من قيامه على الجمع

وعلى الحالين فهذا اللون من التأليف التاريخى كما قلت لك من خير ما يؤلف ، فنحن نعرف ان صفحات التاريخ العام من صفحات هــذا التاريخ الخاص ، ولو أن هذا التاريخ الخاص اجتمعت له عناصره كاملة لم يحجب منه شيء ، لجاءت صفحات التاريخ العام واضحة غير مشوبة بزيف ..

والانسان حين يكتب عن نفسه لا يكتب عن فردية منعزلة بل يكتب عن مجموعة تدور حول فرديته ، وبيئة تمثلها بيئته ، فهو بهذا يكتب عن كلّ باسم جزء ، ويكتب عن مجموع فى فرد ، ثم هو اذا كتب ناقدا ناقش جزئيات تنبنى عليها كليات وعرض قضية خاصة لتكون لبنة فى قضية عامة ..

وعلى قدر مشاركة الفرد فى الحياة تنتظم فرديته أفرادا وتجمع صفحته صفحات ، فاذا هو بحديثه يعرض دولة صغرى فى محيط دوله كبرى ، ويبرز أكثر من حياة باسم حياة

لهذا كله أعد مؤرخنا طه حسين قد أدى رسالته لعصره حين كتب عن عصره ، كتبه بالأسلوب الذى يراه ، والمؤرخ يملى عن فن بعد علم ، يجتمع له علمه أولا ثم يكيف علمه بفنه ، فاذا العلم فن ، وهذا ما يظهر جليا فى هذا اللون من التاريخ الذى نعرضه ، وأعنى به الايام أو اليوميات حين لا تكون عرضا جامعا بل حين تكون نقدا خالصا

أقول هذا عن طه حسين هنا لأنى سوف أقول مثله عن شقه الآخر ، فهو ناقد ولد للنقد التاريخى ، وقد اجتمعت له مادة عصره ، اجتمعت له مرويات وأخبارا وأحاسيس فعرضها هذا العرض الناقد ولم يعرضها العرض الجامع ، فذاك أسلوب وهذا أسلوب وللمؤرخ أن يختار كما يملى هو لا كما يملى عليه ، ولهذا العرض وذاك أثره ، والتاريخ لا تستطيع أن تتلقفه بمادته وعظاته كاملتين مجتمعتين من لسان واحد بل لا بد من لسان ولسان تختلف كلها املاء ليجتمع لك من اختلافها آخر الأمر برأى واحد

فهذا الكتاب الأيام بما صدر منه تأريخ للعصر ، تأريخ ناقد لا جامع ، تاريخ يناقشك فى قضايا ولا يعنيه أصحابها وعلى يد من وقعت فلقد ترك هذا المؤرخ آخر من شأنه أن يجمع لا من شأنه أن ينقد

ولقد حقق طه حسين بهذا جانبا على المؤرخ أن يسجله ، فالملكة التاريخية فى المؤرخ من رسالتها الأولى أن يكون لعصرها منها نصيب .

واذا مضى المؤرخ ولم يؤرخ لعصره وحاضره كان مفرطا فى رسالته الأولى ، شأنه فى ذلك شأن الأديب الذى يشغل بماضيه ولا يلتفت لحاضره ، أو العالم الذى لا ينفعنا بعلم ما فى محيطنا ، فهؤلاء جميعا مقصرون ان لم يفعلوا . ولو أن طه حسين مر دون أن يعطى عصره حقه أو يلتفت اليه التفاتة لناله من هذا التقصير شىء ..

هذا عن النظرة الاولى ، أى النظرة المعاصرة ، ولقد رأيت كيف كان نصيب طه حسين منها ، ولننتقل الى النظرة الثانية . وأعنى نظرته الى الماضى ..

وقد اختار من هذه النظرة كما اختار من تلك جانبا خاصا . فلقد لجأ هناك الى العموم كما قلت لك ولم يلجأ الى الخصوص ، أراد الحياة ولم يرد الأفراد . وعنى بسوق الأحداث وبيان مداها وأثرها ولم يعنه أن تكون لواحد بعينه ، وهو هنا كما كان هناك لاجىء الى هذا العموم وان بدا انه خصوص ، فهو حين يتحدث عن واحد بعينه هناك لم يرده هو ليحمله تبعة ما عمل وانما أراد به طائفة وهذا الفرد صورة لها ، وهو هنا قريب من هذا ولكنه لم يملكه على عمومه كما ملكه هناك ، فالأشخاص هنا غيرهم هناك ، لم يكونوا هناك ذوى بال فى الأكثر بذواتهم وانما بدلالتهم على فئاتهم ، والاشخاص هنا يجمعون بين الاثنتين : دلالتهم على أنفسهم ودلالتهم على فئاتهم ، من أجل هذا كان الحديث هنا يخالف الحديث هناك فى شىء ويوافقه فى شىء ، يوافقه فى أنه يراد منه هنا كما أريد منه هناك، العموم، ويخالفه فى أنه قصد فيه هنا الى الخصوص لأن أشخاصه كما قلت لك دلالتهم على أنفسهم أكثر من دلالتهم على فئاتهم ، وتكاد تكون فئاتهم محمولة عليهم على العكس من الحال هناك اذ تكاد تكون الأشخاص محمولة على الفئات

ولقد كتب طه حسين فى ظل هذه النظرة الثانية كتبا سبعة ، هى :

١ ـ على هامش السيرة (ثلاثة أجزاء)

٢ ـ الوعد الحق (جزء)

٣ ـ الفتنة الكبرى ومعها كتابان :
ا) عثمان ب) على وبنوه
٤ ـ مرآة الاسلام
٥ ـ الشيخان ، يعنى أبابكر وعمر
٦ ـ أديب
٧ ـ قادة الفكر
٨ ـ الأيام

*

وهذه الكتب ذات مناح ثلاثة ، كما تبدو لك :

منحى عن الاسلام ، وهو الجانب العام ، فى ظل رجاله ، وهو الجانب الخاص ، وهذا الشق ينتظم الكتب الأربعة الأولى ، وقد تؤكد لك عناوينها نزوعها الى هذا الجانب العام . وثمة ما هو صريح منها فى هذه الدلالة العامة ، مثل الأول والثانى والرابع ، وترى الثالث والخامس منها وهما عن جانب خاص يكاد عنواناهما يميلان بها الى الجانب العام

ومنحى عن حياة أخرى غير حياة الاسلام ، عن حياة غربية عاشها المؤرخ وقرأ لها ، وكان لا بد أن يتأثر بها شيئا ويملى فيها شيئا ، وهو كتابه السادس ..

ومنحى عن نظرة معاصرة ، مثلها كتاباه : « أديب » و « الأيام » ، كما قلت لك قبل ..

وقد قلت لك ان الشق الأول من هذه الكتب السبعة عن الاسلام ، لأنه يتناول الجانب العام وان بدا أنه يتناول رجالا ، وعلى رأس هذه الكتب « على هامش السيرة » وأحب قبل أن أصلك برأيى عن هذا الكتاب وأنه أقرب الى الجانب العام منه الى الجانب الخاص . أحب قبل هذا أن أحدثك حديث التأليف فى السيرة ونشأته

وأقدم من نعرفهم من رجالات هذا الباب عروة بن الزبير بن العوام (٩٣ هـ) وقد مكنه نسبه من قبل أبيه الزبير وأمه أسماء بنت ابى بكر

من أن يروى الكثير من الأخبار والأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم . وحسبك أن تعلم ان ابن اسحاق والواقدى والطبرى آكثروا من الأخذ عنه ولا سيما فيما يتصل بالهجرة الى الحبشة والى المدينة ، وفيما يتصل بغزوة بدر

ومن بعد عروة نجد ابان بن عثمان بن عفان (١٠٥ هـ) وقد جمع فى السيرة صحفا ، ثم وهب بن منبه (١١٠ هـ) وله كتاب ألّفه فى المغازى ، وبمدينة هيدلبرج بألمانيا قطعة منه

وغير هؤلاء كثيرون منهم من قضى نحبه قرب تمام الربع الأول من القرن الثانى الهجرى ، مثل شرحبيل بن سعد (١٢٣ هـ) وابن شهاب الزهرى (١٢٤ هـ) وعاصم بن عمر قتـادة (١٢٠ هـ) . ومنهم من جاوزه بسنين مثل عبدالله بن أبى بكر بن حزم (١٣٥ هـ) . وكان هؤلاء الأربعة ممن عنوا بأخبار المغازى وما يتصل بها ..

ومنهم من عاش حتى أوشك أن يدرك منتصف القرن الثانى أو جاوزه بقليل مثل موسى بن عقبة (١٤١ هـ) ومعمر بن راشد (١٥٠ هـ) ثم شيخ رجال السيرة محمد بن اسحاق (١٥٢ هـ)

وجاء بعد هؤلاء غيرهم نذكر منهم زيادا البكائى (١٨٣ هـ) والواقدى محمد بن عمر صاحب المغازى (٢٠٧ هـ) ومحمد بن سعد (٢٣٠ هـ) صاحب الطبقات الكبرى ، وقبل أن تستأثر المنية بابن سعد عدت على ابن هشام أبى محمـد عبد الملك سنة ٢١٨ هـ ، وابن هشام هو الرجل الذى انتهت اليه سيرة ابن اسحاق فعرفت به وشاع ذكره بها

ثم لم ينقطع التأليف فى السيرة الى يومنا هذا ، غير أن المشتغلين بها كانوا أولا محدثين ناقلين ، ثم كانوا جامعين مبوبين ، وحين اسـتوى للمتأخرين ما جمع المتقدمون جاءت فكرة النقد والتعليق

وعلى الرغم من أن التأليف فى السيرة لم ينقطع بموت ابن هشام ، وأن ثمة مؤلفات فى السيرة لغيره من بعده على نمطه أو قريبة منه ، الا انهـا

لم تشع شيوع سيرة ابن هشام ولم يقبل عليها الناس اقبالهم على سيرة ابن هشام ..

فلابن فارس (٣٩٠ هـ) ولمحمد بن على بن يوسف الشامى (٦٠٠ هـ) ولابن أبى طى يحيى بن حميد (٦٣٠ هـ) ولظهير الدين على بن محمد الكازرونى (٦٩٤ هـ) ولعلاء الدين على بن محمد الخلاطى (٧٠٨ هـ) ولابن سيد الناس (٧٣٤ هـ) وللرعينى شهاب الدين الغرناطى (٧٧٩ هـ) ولابن جابر الأندلسى (٧٨٠ هـ) وللصالحى محمد بن يوسف (٩٤٢ هـ) ولابن برهان الدين (١٠٤٤ هـ) لهؤلاء جميعا ولغيرهم كتب فى السيرة ولكنها لم تشع كما قلت لك شيوع سيرة ابن هشام . لأنها كانت منها كالفروع من الأصل لم تخرج عنها فى نهجها ولا فى سردها الا فى القليل مما يمس الترتيب والتبويب ..

وهذه النظرة المحدودة الرتيبة لهذا العلم لم تجاوز ذلك المنهج الذى كانت تعيش فى اطاره الا متأخرة ، فقد بدأت كما قلت لك رواية ثم جمعا وتبويبا ، وأخذ هذا الجمع والتبويب يصور صورا مختلفة وعاش فى ظله شراح ومعلقون ، وحين أوشكت الجهود أن تستنفد كان النـاس قد بلغوا حالا من الجمود ورثوها عن التخلف الذى انتهوا اليه فلجئوا فى هذا التأليف السيرى الى ألوان تنفق وما انتهوا اليه كانت منها الموالد والسير المنطوية . وبقيت الحال على ذلك مدة امتدت الى أوائل هذا القرن الذى غير من نظرتنا الى الكثير مما بين أيدينا من علوم وفنون ، وكان منها علم السيرة ، وكان لنا من ذلك ما طالعنا به المرحوم الامام الشيخ محمد عبده عن قصة تزويج النبى صلى الله عليه وسلم لزينب بنت جحش من زيد بن حارثة ، ثم حياة محمد للمرحوم الدكتور هيكل ، ثم هذا الكتاب « على هامش السيرة » ...

غير انه ثمة فرق بين هذه العروض وأشباهها ، فمنها ما كان جزئيا كما كان فى جهد المرحوم الشيخ محمد عبده ، ومنها ما كان شاملا يحكى فى شموله أساليب السير الأولى ويخالفها فى المنهج عرضا وتحليلا ونقدا

مثل ما كان فى جهد المرحوم هيكل ، ومنها ما كان ذا لون جديد وعرض جديد أخذ من الماضى كله ويكيفه كله تكييفا جديدا لصوغه صياغة جديدة فيها الخيال وفيها التصوير ، مثل ما كان فى جهد الدكتور طه حسين ..

وثمة فروق بعيدة بين هذا المنهج وغيره من المناهج الجديدة ، فغيره من المناهج تلتزم العرض العلمى وهو لا يلتزمه ، أو قل هى تلتزمه على نحو وهو يلتزمه على نحو فهى تسوقه لك كما روى لتناقشه ، وهو يناقشه قبل أن يسوقه اليك وقد ينتهى اليه وقد ينتهى الى غيره ..

وغيره من المناهج يضيق به الأسلوب العلمى عن أن يجاوز فى النقد أسسه ويحمله على غير قواعده ، وهو لا يضيق به الأسلوب القصصى عن أن يجاوز فى النقد أسسه وعن أن يحمله على غير قواعده ، اذ له من الخيال فسحة ومندوحة تعفيانه من تبعات الاستنباط العلمى ..

لهذا كان هذا المنهج أجرأ من غيره على أن يقول وأطلق من غيره فى أن يتصور ، كما كان أبعد أثرا فى النفوس لما يلبس من خيال ..

ولقد كان طه حسين أقدر على أن يكون من أصحاب المنهج الآخر ، وأعنى به المنهج العلمى ، فهو من رجال هذا الميدان أو قل على رأس رجال هذا الميدان ثم هو الى ذلك موصول بالأدب الغربى يعرف مالهم فيه حول هذا الموضوع ، ثم هو صاحب رأى ثاقب وفكر عميق ، وكل هذا يجعله فى مقدمة من يكتبون هذا التاريخ العلمى ..

ولكن الرجل بعد هذا كله ثائر ، نشأ لا يقبل الرأى قبل أن يخاصمه مخافة أن يدلسه عليه أنسه به .. لهذا كان نزوعه الى هذا الجانب الأبعد حرية والأفسح فكرا ، ولهذا أنس بأن يضع سيرته فى أسلوب القاص لا فى أسلوب المؤرخ ..

ولقد كان هـذا شـأن طه حسين فيما أرخ لا يكاد يبعد عن هذه السبيل كثيرا حتى يرتد اليها ..

وانك لتحس له هذه النزعة الحرة التواقة الى الطلاقة الراغبة فى أن تلقى عنها عبء الالتزام بقواعد لتملى هى ما تشاء من قواعد ، شـأن

النفوس الكبيرة التى تطل على الوجود لا لتكرر ما هو موجود ولكن لتفيض بجديد ، فهو يقول فى مقدمة كتابه على هامش السيرة :

انما الأدب الخصب حقا هو الذى يلذك حين تقرؤه ، لأنه يقدم اليك ما يرضى عقلك وشعورك ، ولأنه يوحى اليك ما ليس فيه ، ويلهمك ما لم تشتمل عليه النصوص ، ويعيرك من خصبه خصبا ، ومن ثروته ثروة ، ومن قوته قوة ، وينطقك كما أنطق القدماء ، ولا يستقر فى قلبك حتى يتصور فى صورة قلبك ، أو يصور قلبك فى صورته ، واذا أنت تعيده على الناس فتلقيه اليهم فى شكل جديد يلائم حياتهم التى يحيونها ، وعواطفهم التى تثور فى قلوبهم ، وخواطرهم التى تضطرب فى عقولهم ..

فهو لا ينظر الى التاريخ مادة ولكنه ينظر اليه روحا ، لا ينظر اليه ألفاظا ولكنه ينظر اليه معانى ، يجب ألا تطغى الألفاظ على المعانى فتحصرها فى حيز ضيق ، ويؤثر أن تطغى المعانى على الألفاظ فتسترسل بها حيث تشاء ، وهو بهذا ضامن أن يحمل التاريخ أسمى ما يراد له وما يتفق وحاجة الناس اليه .. هو يريد من التاريخ نتيجته ، يريد منه أن يكون العظة التى تقر فى النفوس وتشغل بها العقول . ولا يريد منه أن يكون كلاما يحفظ لتردده الألسنة بحججه وبراهينه ..

هذا النهج الذى أكشف لك عنه هنا هو الذى ستطالعك به كتب الدكتور طه حسين كلها فى التاريخ ، مع شيء من التلوين القليل ..

وكتبه التى فى التاريخ الاسلامى تنزع كلها الى الجانب العام ، وان بدا بعضها فى الجانب الخاص ، كما قلت لك ، لأنها بهذا النزوع تكون ألصق بمنهج صاحبها وأقدر على استخلاص العظة العامة الجامعة ، ولأنها بهذا النزوع تحلق فى حياة أمة لا فى حياة فرد ، ولأنها بهذا النزوع تستطيع أن تملى فى أفسح مدى تريد ..

وهذه الكتب هى كما سقتها لك ــ غير هذا الكتاب الذى قدمته ــ وهو « على هامش السيرة » ..

١ ــ الوعد الحق

٢ ــ الفتنة الكبرى بجزئيها : عثمان ، وعلى وبنوه

٣ ــ الشيخان : أبو بكر ، وعمر

٤ ــ مرآة الاسلام

فأولها وهو الوعد الحق يكاد يكون امتدادا للكتاب الأول على هامش السيرة ، فهو حديث عن تلك الحياة ، يعرض مكان الحقيقة والعظة منها ، يؤثر المعنى على الألفاظ كما قلت لك ، يؤثر اجمال الحياة على تفصيلها ، لأنه يعنى هذا الاجمال ويعنى العظة التى فيه ولا يعنى أن يسوق لك الأخبار بتفصيلها فتخرج منها بغير ما يريد وهو الحريص على أن تخرج منها بما يريد ، ثم هو فى هذا الكتاب كما كان فى كتابه السابق « على هامش السيرة » قاص كى يبلغ ما لايبلغه المؤرخ من ضمان القارىء على ما يقدم له ثم ضمانه على ما يراد له من عظة تقر فى نفسه ..

ثم ودع الدكتور طه حسين بهذين الكتابين « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » حياة الرسول وما امتلأت به من أحداث ليدخل فى حياة رجاله الأربعة من بعده أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، لا يريدهم بأعيانهم كما قلت لك ، وانما يريد من صفحاتهم صفحات تنضم الى التاريخ العام لا صفحات تنضم الى صفحاتهم الخاصة ليمضى بذلك فى رسالته التى بدأها بكتابه « على هامش السيرة » والتى أراد فى ظلها أن يؤرخ للاسلام وأن يكون مؤرخ الاسلام ، وأعنى بذلك ما مهدت له قبل من انه كان يهدف الى القضية العامة وان بدت فى صورة أفراد ، من أجل ذلك ضم حياتين معا وهما حياة أبى بكر وعمر لأنه أراد من هاتين الحياتين الجانب العام ولم يرد الجانب الخاص ، أراد الجانب الذى ينضم الى صفحات التاريخ الاسلامى ، ثم ضم حياتين أخريين معا وهما حياة عثمان وعلى ، لأنه أراد منهما هذا الجانب العام الذى

كانفتنة كبرى اصطلى المسلمون فى ظلها الكثير وأوذى الاسلام منها بالكثير ..

غير اننا نرى مؤرخنا الدكتور طه حسين هنا فى هذين الكتابين أو هذه الكتب الثلاثة : الشيخان ، وعثمان ، وعلى .. يخرج عن أسلوبه الأول أسلوب القاص الى أسلوب المؤرخ ، ولكنه على هذا كان قاصا وهو يؤرخ ، والفرق بين قصّه هنا وقصّه هناك أنه لم يترك أسلوبه للتخيل كما تركه للتخيل هناك ولم يتركه للاملاء الحر كما تركه هناك ، بل جعل من الحقيقة التاريخية هنا مادة قصته ، وجعل من هذه المادة مستملاه ..

ولا تحسبن ان ثمة خروجا عن الحقيقة التاريخية ليس مثله هنا ، بل الذى أعنيه وأريده ان الحقيقة التاريخية ليست مقصودة هناك كلها ؛ بل المقصود منها ما تراد منه العظة .. فالمؤرخ هناك لايسوق حقيقة ليستنبط حقيقة شأن المؤرخ الذى يدعم قضاياه بالاستنباط كما قلت لك وانما هو يضم الحقائق التى تثير العظات لا يعنى أن يدعم بواحدة للأخرى وانما يعنيه أن يجسم كل حقيقة لتبدو أبلغ ما تكون وأن يضفى على كل حقيقة أضفى ما يكون من خيال لتبلغ أقصى ما يكون من أثر ..

وهو هنا مثله هناك ، غير أن ثمة فرقا .. فهو هنا قاصد للعظة قصده لها هناك ولكنه يعنيه أن يدعم بالحقيقة حقيقة لأنه يريد هنا تاريخا متصلا أقرب الى السرد منه الى التصوير، وهذا هو الفرق بين الاثنين ، فلقد كان هناك مصورا قبل أن يكون مؤرخا وهو هنا مصور ومؤرخ ، وهذا التصوير الذى سبق هناك وصاحب هنا هو صفة المؤرخ اللازمة التى تجعله يميل الى القص ليكون أقرب الى حرية الرأى وحرية النقد وليكون أقوى على املاء عظته واسماع رأيه ، وهذان ما لايملكهما المؤرخ غير المصور فى الكثير ..

وهو بهذه الكتب التى ذكرتها « على هامش السيرة » و « الوعد

الحق » و « الشيخان » و « الفتنة الكبرى » ، قد أرخ للاسلام على هذه الصورة العامة التى ذكرتها لك الى أن انتهت أيام على وبنيه ، وكان لابد لمؤرخنا الدكتور طه حسين من أن يمضى ليعبر تلك الحقبة الطويلة منذ انتهى الى أيامه هذه التى يعيشها ..

وهذه الحقبة الطويلة التى تمتد قرابة ثلاثة عشر قرنا عاشها الاسلام وكان له فيها تاريخ لا يصح أن يهمله مؤرخ بدأ هذا البدء ، ولو ان مؤرخنا كان تعنيه الخصوصيات لكان عليه أن يفتتح لها صفحات لكى يوفيها ، ولكنه كما قلت لك ملتزم الجانب العام ، وملتزم أسلوب القاص أكثر من التزامه أسلوب السارد ، وهذا الأسلوب الذى يعطيه الى ما أعطاه أن يضم ما يشاء من الأحداث وأن يسقط ما يشاء من الأحداث ، وأن يجتزىء منها بما يعنيه فى ابلاغ العظة وايراد العبرة ..

لهذا لم يهمل مؤرخنا أن يتوج هذه الجهود التاريخية السابقة بهذا الجهد الذى طوى به تلك الحقب الطويلة المتتالية ، وأعنى بها الحقب التى مرت منذ انتهى بعلى الى أيامنا هذه ، فكان كتابه « مرآة الاسلام » ..

وهذا الكتاب كان لابد منه لمؤرخ شغل نفسه بقضيته ونصب نفسه له ، وهى قضية الاسلام ، وما كان يليق أن يبدأ بها دون أن يملى رأيه الأخير فيها ودون أن يكون هذا الرأى موصولا بعصره الذى يعيش فيه ، اذ فرض على المؤرخ أن تكون حياته جزءا من عمله التاريخى ، ولن يتحقق له هذا الا اذا أرخ لعصره أو جعل لعصره ظلا على ما يؤرخ ..

وكتاب « مرآة الاسلام » هذا يحمل ذلك الظل فلقد طوى فيه المؤرخ تلك الحقب الطوال الى أن بلغ بها هذا العصر الذى يعيشه ليجعل منه ظلا على هذا كله ، وليضم هذا العصر الى ما يسبقه ليكون قد انتهى بالتاريخ الى حيث هو والى زمنه هو ، ويكون قد أخذ الحبل ممن قبله ليسلمه لمن بعده ..

ومؤرخنا الاسلامى الدكتور طه حسين دل فى هذا الكتاب أعنى «مرآة الاسلام » على اسلامية تاريخه أو قل على انه مؤرخ الاسلام كما قلت لك ، كما قد دل على انه معنى بالجانب العام لا الجانب الخاص ، وعلى انه القاص لا السارد ، يملى فى ذلك عن طبع ثائر يميل به الى التحرر كثيرا ، والى أن يتخير ما يحب أن يبلغ به لا أن يجبر على ما لا يرى انه بالغ به من سرد طويل تضيع معه العظة ويضيع معه النفع الأسمى ، وهو مغزى التاريخ لا حقائقه ..

فهو قد حدثك عن الاسلام منذ ظهر الى يومنا هذا ، طوى هـذه القرون الكثيرة فى كلمات قصيرة ، وحدثك فيه عن أعوام سبقت الاسلام فى الجزيرة العربية طوى هذه الأعوام الطويلة فى صفحات قليلة ، لم يرد فيه ــ شأنه فى غيره ــ أن يكون المؤرخ المعنى بالأحداث يسلسلها وانما كان فيه المؤرخ المعنى بالعظـات ــ وهى زبدة ما فى التاريخ ــ يبرزها ، وفرق بين تاريخ وتاريخ ، فرق بين تاريخ يعنى بهذا الكثير يحملك أثقاله وتاريخ يختار لك القليل ليبصرك بما كان فيه من خير أو شر

ذلك كان منهج مؤرخنا الاسلامى الدكتور طه حسين فيما أرخ به للاسلام لم يؤرخه وقائع وانما أرخه حقائق ، ولم يؤرخه رجالا وانما أرخه أعمالا جرت على أيدى هؤلاء الرجال القليلين الذين عرض لهم .. ولم يؤرخه على السنين وانما أرخ به السنين فاذا السنون ألسنة بما كان فيها لا أوعية لما كان فيها ..

وهــذا المؤرخ الذى فرغ لهذا كله فرغ لجانب آخر من التاريخ أجنبى عن الاسلام وليس أجنبيا على التاريخ ، وهو هذا الشق الذى قلت لك عنه من قبل انه عن حياة غربية عاشها وقرأ لها وتأثر بها ، ثم هذا الشق الثالث الذى خص به حياته المعاصرة ..

ولقد كان له فى الشق الثانى كتاب ، وهو :

١ ــ قادة الفكر

وكان له فى الشق الثالث كتابان ، وهما :

١ ــ أديب
٢ ــ الأيام

أما عن كتابه « قادة الفكر » الذى كان أثرا لحياة غربية عاشها وقرأ نها فقد عرض فيه أيضا للجانب العام وان بدا انه يعرض الجانب الخاص ، فلقد تحدث فيه عن : هوميروس ، وسقراط ، وافلاطون ، وأرسطاطاليس ، والاسكندر ، ويوليوس قيصر، وهو يريد أن يتحدث عن الحياة الفكرية لعصر بعينه يجتمع نشاطها وتجتمع ألوانها حول هؤلاء الرجال الذين اختارهم . وهو لم يرد أن يكون فى هذا الكتاب الصغير مؤرخا لعصر كبير ، فذلك يتطلب منه أن يكون مؤرخا مستوعبا لا مؤرخا متحيزا ، والفرق بين الاثنين كما قلت لك ، ان أولهما يعيش للأحداث يسلسلها ، والثانى يعيش للعظات يتخيرها ، ولم يكن مؤرخنا الدكتور طه حسين من رجال الصنف الأول ، وانما كان من رجال الصنف الثانى ، لهذا أعد نفسه مذ شغل بالتاريخ ومذ كتب فى التاريخ ..

ويسلمنى هذا للحديث عن كتابيه :

١ ــ أديب
٢ ــ الأيام

وهذان الكتابان كما قدمت يؤرخان للعصر الذى عاشه المؤرخ ، يؤرخان له من زاوية خاصة فيما يبدوان ، ولكنهما مع هذا يتناولان جانبا عاما ، يتناولان الحياة العامة فى ظل الحياة الخاصة ، فأولهما وهو « أديب » عن حياة صديق رحل الى أوربا مبعوثا ، فهو حديث عن شطرين من الحياة ، شطر لهذا الأديب فى مصر ، وشطر له فى فرنسا ، وهو على هذا ليس سيرة بقدر ما هو حديث عام عن الحياة هنا ، والحياة هناك ، هو لا يترجم لهذا الأديب ، وانما يترجم للون من ألوان الحياة له هنا ، ولون من ألوان الحياة له هناك ، وما تناول مؤرخنا هذا الا لذاك المغزى الذى عنّ له ، فهو لم يرد سرد أحداث

الحياتين ليجعل منهما ترجمة متصـلة ، وانما أراد ما فى الحياتين من مغزى وقع عليه فمضى يحيك من هذا المغزى السيرة التى يرسمها لهذا الصديق ..

وثانى الـكتابين هو « الأيام » ، وهو وان بدا هو الآخر سـيرة للمؤرخ خاصة الا انه سيرة للحياة التى أظلت المؤلف ، فهو لم يقصد فى هذا الكتاب الى نفسه كما يبدو ، وانما قصد للحياة التى شـارك فيها يصف ما تضمه ليقول كلمته فى هذا كله ..

وهذه السير المعاصرة نكاد نفتقدها بلونيها ، لونها الخاص الذى هو ترجمة لكل ما كان لصاحبها ، ولونها العام الذى انتهجه مؤرخنا ليعطى صورة عن الحيـاة من حوله ، ونحن من أجل هـذا سوف ندخل الى التاريخ بصفحات منقوصة .. نحن الذين تلقينا عن السلف صفحات غير منقوصة عرفناهم بها ، وما أظن الخلف سيعرفنا كما عرفنا نحن السلف ، لهذا كان هذا العمل من مؤرخنا له نفعه ، وهو وان لم يكن الغاية التى خصصناها بالحديث عن مؤرخنا ، ألا وهى الجانب الاسـلامى .. الا اننا آثرنا ألا تمضى دون أن نشير الى هذا الجانب الخاص ..

وبعد .. فثمة صفات يتميز بها مؤرخنا تضفى على تاريخه الكثير مما لا يتوفر لغيره ، فهو يتميز بالعمق الذى يبلغ به كنه الأمور ، وهو يتميز بالرأى السليم الذى تستقيم به قضاياه ، وهو يتميز بالوعى الذى لا تفوته معه الحقائق ، وهو بعد هـذا كله يتميز بذلك الأسـلوب الرصين ، وتلك الديباجة المشرقة والألفاظ المختارة .. وبهذا الأسلوب وتلك الديباجة وهذه الألفاظ قدم لنا ما قدم من أعمال تاريخية فى أروع طراز لا تكاد تقبل عليه حتى يجذبك اليه جذبا فاذا بك غير منفك عنه حتى تستوعبه كله ، واذا بك بعد أن تفرغ منه راغب فى تلاوته ثانية وثالثة ، واذا بك بعد أن تخلو الى نفسك قـد لقنت الكثير وتمثلت الأحداث وشاركت فيها ، وأصبحت هذه الأحداث تشغلك ، لا تنفك تتدبرها بينك وبين نفسك ..

وهكذا أصبحت هذه الكتب القليلة بصفحاتها المعدودة تحكى ما فى كتب كثيرة فى صفحات لا حصر لها ، وأصبح هــذا التاريخ الاسلامى الحافل الذى يعز على كثيرين أن يحيطوا به فى مراجعه الكثيرة المختلفة المتعددة سهلا على الجميع أن يحيطوا به فى مراجعه هــذه المحدودة ، وأصبح مكان العظة منه بارزا بيّنا بعد أن كان غامضا ملتويا ، وانى اذ أقدم للقراء الدكتور طه حسين مؤرخا اســلاميا أقدمه بهذا الذى بينته له وبهذا الذى أوضحته من عمله ، وبهــذا المنهج الذى نهجه ، وأحسبنى قد قاربت أن أوفيه حقه ..

طه حسين المؤرخ

جورجيو ديلافيدا

تجلى نبوغ طه حسين الفذ ونشاطه المتعدد الجوانب ككاتب منذ ظهور بحوثه الأولى الجريئة فى اتجاهين مختلفين لم يكونا مع ذلك متعارضين ، بل كان كل منهما يكمل الآخر .. هما الفن الذى أوحى له به خياله المبدع والذى كان يقف جنبا الى جنب ، أو بالأحرى يندمج بالنقد القائم على الحجج الدامغة ..

ولما كان التاريخ حسب التعريف القديم الصحيح هو فى مجموعه علم من العلوم أو بالأحرى نوع من النقد والفن ، فمن الواضح ان جانبا كبيرا لا يستهان به من انتاج طه حسين الأدبى العظيم يدخل فى نطاق التاريخ ..

وفى الحق اننا من الممكن أن نعتبر من صميم التاريخ بأوسع معانى الكلمة سواء ما كتبه طه حسين أيام شبابه عن الشعر العربى الجاهلى والاسلامى وعن بلاد اليونان القديمة فى مظاهرها الاجتماعية والأدبية والدينية ، أو ما كتبه بعد أن بلغ سن النضوج وخصصه لأصول الأدب العربى القديم وتطوره ومميزاته . كما ان ما كتبه عندما اشترك فى مناقشة عن مشاكل التعليم والثقافة فى العالم العربى المعاصر يعتبر أيضا فى جوهره نوعا من التاريخ ولو ان هذا البحث العلمى الهادىء قد

(*) جيورجيو ديللافيدا : استاذ الحضارة والاداب الاسلامية فى جامعة نابولى ، ثم فى جامعة تورينو ، ثم فى جامعة روما ، ثم فى جامعة بنسلفانيا بأمريكا .. وهو عضو أكاديمية لينشينى

صاحبه تشوقه الشديد الى تطبيق المثل العليا السامية تطبيقا عمليا . كما ان ذكرياته العجيبة عن حياته التى كتبها بنفسه تعتبر نماذج من التاريخ الصميم رغما من ان ابداعه الفنى فى كتابتها يجعل القارىء ينسى انه يقرأ صفحات من التاريخ ، ولعمرى ان هذه الذكريات تمثل ولا شك ـ اذا طرحنا جانبا جمال أسلوبها ـ مصـدرا من الدرجة الأولى من مصادر معرفة المجتمعين : المصرى ، والفرنسى ، وثقافة هذين البلدين فى الثلث الأول منهذا القرن .. ومن كل هذه السلسلة الطويلة من المؤلفات القائمة على أساس تاريخى نجد ان الأمر يتعلق ـ كما يتضح ذلك بسهولة ـ بتاريخ الأدب أكثر مما يتعلق بالتاريخ السياسى ..

هذا ويجب ألا يخدعنا عنوان الأجزاء الثلاثة من كتابه « على هامش السيرة » الذى يوحى للقارىء بالاعتقاد بأن الكتاب يضم بحوثا نقدية عن أصول الاسلام وأيامه الأولى بينما لا تقدم لنا أبواب هذا الكتاب شيئا آخر سوى سلسلة من الروايات التاريخية الصغيرة ، وقد استخدم طه حسين فى سرد هـذه الروايات على أوسـع نطاق معرفتـه الكاملة بالأساطير والروايات التاريخية العربية وبتاريخ الديانة المسيحية الشرقية والأمبراطورية البيزنطية ليطلق العنان لخياله المبدع الخصب ..

أما الكتاب الوحيد الذى أضافه طه حسين الى انتاجه الغير العادى فى كثرته وتنوعه وخصصه للتاريخ البحت فهو ذلك الكتاب الذى يتحدث عن الخلفاء الراشدين الأربعة ، وفى الحق انه لم يكن من باب المصادفة أن المؤلف عندما أراد تقديم صورة كاملة لعهود الاسلام السياسية والدينية الأولى قد بدأ بالكتابة عن آخر عهد من هـذه العهود وهو عهد خلافة عثمان وعلى الذى تحدث عنه فى جزءين أطلق عليهمـا عنوان « الفتنة الكبرى » أى الحرب الأهلية التى تعد فى الحق بلاء من الله لاختبار مدى ايمان عباده واخلاصهم لذاته . ولذلك فان الحديث عن الحربين الأهليتين الثانية والثالثة اللتين أعقبتا تلك الحرب الأهلية التى عكرت صفو خلافة علىّ ، جاء مكملا لها فى الجزء الأخير من الكتاب الذى تضمن وصـفا

ودراسة لتلك الفترة الهامة من فترات تاريخ الاسلام الأولى الواقعة بين عامى ٢٣ و ٦١ هجرية ، وقد اعتمد المؤلف فى كتابة هذا الجزء اعتمادا كبيرا على المصادر التاريخيه وقام بتحليل الفترة المذكورة تحليلا دقيقا وأصدر رأيه فيها بعد جهد جهيد وبمنتهى البراعة والذكاء ..

وقد يبدو لنا من بعض اشارات واردة فى سياق الكلام ان المؤلف بعد أن ختم حديثه عن تاريخ الحروب الأهلية كان يعتزم الاستمرار فى سرد تاريخ تكوين الأمبراطورية العربية وازدهارها وتدهورها والوصول به على الأقل الى نهاية عهد الخلافة الأموية عندما تغير شكل الدولة الاسلامية ونظامها تغيرا جذريا . وفى الحق ان حقيقة هـذا التغير لم ينكرها أو يستبعدها المؤرخون الغربيون الأخيرون حين اعترفوا بأن الأمويين كانوا قد أدركوا مغزى الخلافة ووظيفتها الدينية ، الأمر الذى أجمعت المصادر التاريخية الاسلامية على انكاره . ولكن المؤلف لم يقم بتنفيـذ ما كان قد اعتزم عليه . ولقد خالف طه حسين مجرى الزمن فجمع فى الجزء الثالث والأخير من كتابه صورا جليلة للخليفتين الأولين الشيخين أبو بكر وعمر كما يظهر ذلك من عنوان هذا الجزء من الكتاب ..

أما الجزءان الأولان اللذان يحمل أحدهما اسم عثمان ، وثانيهما اسم على وأبنائه ، واللذان ظهرا فى عامى ١٩٤٧ و ١٩٥٣ ، فانهما ثمرة من ثمرات نضوج الكاتب العربى الكبير ، ذلك النضـوج الهائل الذى بلغ ذروته فى وقت نشر الجزءين الخاصين بالخليفتين الشيخين فى عام ١٩٦١

كان طه حسين قد تخلى من زمن بعيد عن تلك الراديكالية المتطرفة التى امتازت بها مؤلفاته الأولى . تلك المؤلفات التى كان قبوله فيها لاستنتاجات النقد الغربى المتطرفة بدون تحفظ يؤدى به الى انكاره كل قيمة لما ورد فى الروايات من معلومات أصبحت الآن مسـلما بها فى مجموعهـا لا فى تفاصيلها . وقد ظهر فى الغرب أيضا حتى فى ميادين أخرى من ميـادين الدراسات التاريخية التى تختلف عن الدراسـات الاسـلامية ميل عام للتخفيف من وطأة النقـد القائم على التشكك والى اعادة تقدير قيمة

الروايات التاريخية التى تختلف عن الدراسات الاسلامية ..

على ان ما هو أهم من ذلك هو ان التسليم بمبدأ النتائج العملية فى التاريخ أمر مقبول قبولا تاما ، وهكذا أصبح الحكم الذى يعطيه المؤرخون العرب القدماء على الحوادث التى وقعت فى المدة البطولية للتاريخ الاسلامى مؤكدا ، وكذلك الحال بالنسبة لفضائل أبطالها وأخطائهم

ولا يعنى هذا ان طه حسين عندما تحدث عن الخلفاء الأولين قد زهد فى تطبيق المعايير التى أوحى له بها نشاطه بوصفه مؤرخا للفلسفة والأدب ، وكذلك فاننا نراه قد خصص للمؤلفات التى نحن بصددها جانبا كبيرا لدراسة ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه اسم الأساس الاجتماعى للتاريخ الذى فى حالتنا هذه هو المجتمع العربى القديم البدوى والحضرى الذى تفسر صفاته المميزة سر تطور الأحداث التى وقعت بعد موت النبى والوقائع التى حدثت فى أيام الخلفاء الأولين والأزمة التى أدت الى نشوب الحرب الأهلية والى انفصام الوحدة السياسية والدينية ..

هذا وان المقدمة المستفيضة التى وضعها طه حسين للجزء الأول من كتابه « الفتنة الكبرى » لها أهمية خاصة ، فقد بسط فيها نظرية جديدة خاصة بالتعريف الصحيح للدولة التى أنشأها النبى محمد والتى تمسك بها كل من أبى بكر وعمر كل التمسك ، فقال ان هذه الدولة لم تكن دولة دينية بأضيق معانى الكلمة ، ولا ديمقراطية ، ولا ملكية ، ولا دولة تحكمها القلة ، ولكنها نظام من نوع خاص على نسق النظام السياسى القبلى العربى ، بعد أن أضيف اليه العنصر الدينى بما تضمنه من عناصر التهذيب والاستقامة ..

وقد صرح الدكتور طه حسين عندما أورد تلك القائمة الطويلة التى اشتملت على المراجع التى اعتمد عليها عند وضع كتابه « الفتنة الكبرى » (الذى تختلف طريقة وضعه كل الاختلاف عن الطريقة التى سار عليها عند وضع كتابه عن « الشيخين ») فى شىء من الزهو بأنه لم يرجع الى

أى كتاب من كتب المستشرقين باستثناء كتاب حوليات الاســلام الذى وضعه « ليونى كايتانى » وبعض المقالات الواردة فى دائرة المعــارف الاسلامية ، ويعتبر الاستثناء الأول والثانى من الكتابات الرائعة (ولدى كاتب هذه السطور بوصفه ايطاليا من الأسباب ما يجعله يفخر كل الفخر بهذين المرجعين) وليس من غير المحتمل انه ترجع الى كتاب كايتانى العظيم بعض التحليلات السعيدة للأسباب التى كان من نتيجتها خلق ذلك الجو المتوتر بسبب ذلك التغير العميق فى المجتمع الذى شمل جميع المظاهر الاجتماعية والاقتصادية فى حياة العرب الذين عاشــوا فى البــلاد التى فتحوها ، ذلك الجو الذى أوقفته عند حده شخصية عمر القوية والذى ما لبث أن طغى على شخصية عثمان التى كانت أضعف بكثير من شخصية عمر

على ان الأسس والتقديرات التى اعتمــد عليها كل من كايتانى وطه حسين تختلفان كل الاختــلاف . فبينما يميل أولهما الى النزول بتلك الشخصيات الكبيرة التى اشتركت فى الأحداث التاريخية الى المستوى الأدبى العادى (ومن المعروف عداؤه الشديد للخليفة على بن أبى طالب ذلك العداء الذى يرجع دون شك الى تأثره بما كتبه الأب « لامانس ») يخص الثانى أى طه حسين باجلاله واحترامه أبطال تاريخ الاسلام الدينى . وبالرغم من انه يعترف بما وقع من بعضهم من تقصير ومن البعض الآخر من أخطاء فقد حاول أن يبرر ما وقع منهم من أخطاء ، أو تقصير أو على الأقل أن يفرض فيهم صدق الايمان وسلامة النية ، حتى انتهى به الأمر الى الموافقة كل الموافقة على آراء المؤرخين المسلمين من أهل السنة الذين رغما من استنكارهم للخلافات التى قامت بين كبار صحابة النبى مسلمون كل التسليم باستقامتهم الأخلاقية ، ويمتنعون عن اصدار حكم نهائى على أى واحد منهم ولم يكن عثمان وحده (الذى نال بميتته الشنيعة الجزاء على ضعفه) بل ان أولئك الذين شنوا حربا علنية ضد الخليفة على وفى مقدمتهم طلحة والزبير ان لم نقل وأم المؤمنين عائشة قد لقوا التسامح من جانب طه حسين كما وجدوا ذلك أيضا عند واضعى أسس الشريعة

الاسلامية (ولم يجدوا ذلك التسامح بطبيعة الحال عند أهل الشيعة) .
وربما كان الخلاف الوحيد هو ان هؤلاء يقولون بأن ما وقع هو القدر المقدور فى حين ان طه حسين يرجع ذلك الى حكم الظروف . وهكذا يثبت استقلاله بوصــفه مؤرخا ، ويؤكد عدم رغبته فى المبالغة فى تأليه المخلوقات البشرية الفانية وتمجيدها ..

واننا اذا جاز لنا أن نبدو ولو لمدى لحظة واحدة « ملكيين » أكثر من الملك » لكان فى وسعنا أن نأخذ على طه حسين افراطه فى القسوة على « معاوية » خصم الخليفة علىّ اللدود ، ومؤسس الدولة الأموية الذى أظهرت كتب التاريخ نحوه أقل جانب من العطف . على ان كونه من صحابة الرسول أو بالأحرى أحد كتابه وأمناء سره جعله بمنجاة من صدور حكم نهائى عليه كالحكم الذى استحقه كل الاستحقاق ــ سواء فى نظر الروايات التاريخية الصالحة أو فى نظر مؤرخنا المعاصر ــ ابنه وخليفته « يزيد » بينما يتردد المؤرخ المستقل والغير المتحيز فى اصــدار حكم قاس مثل هذا الحكم على معاوية ..

هذا واننا نجد ان طه حسين عنــدما يبدى رأيه عن رابع الخلفــاء الراشدين « على بن أبى طالب » يبتعد عن تصويره فى تلك الصورة التى صــوره بها المؤرخون العرب القدامى الذين وان لم يتسامحوا فى ذلك التعصب الشيعى الذى بلغ ذروته فى تأليه ابن عم النبى ــ يصورونه فى صورة أول وأفضل المؤمنين ويقولون انه كان يعمل فى جميع الظروف طبقا للمبادىء الدينية والأخلاقية الصحيحة بعيدا عن كل ضعف بشرى وكل مطمع دنيوى ، وأنموذجا للآستقامة البعيدة عن كل مواربة ونفاق

ورغم التسليم العام بصحة هذه الروايات ، فان الناقد الذى لا يريد أن ينسى تكوينه العقلى يجب عليه ألا يتردد فى التشكك فى قبول كل خبر من تلك الأخبار اذا كان يتعارض مع طبائع الأشخاص التى نسبت اليهم ، تلك الطبائع التى استطاع طه حسين بما أوتيه من مقــدرة على تعرف دخائل النفوس البشرية أن يصورها فى أشكال تطابقها تمام المطابقة

وفى قبول أى خبر لا يقوم على أساس مراجع لا يتطرق الشك الى صحتها (كما هو الحال بالنسبة لعبد الله بن سبأ الذى من المعتقد انه هو الذى أوجد ذلك التطرف الشيعى بقصد بذر بذور الفتنة فى صفوف المسلمين)

وطه حسين على علم تام بالمصادر ويعرفها حق المعرفة ، فقد سمح له امتناعه عن الرجوع الى ما كتبه المستشرقون المعاصرون بالاقتراب من هذه المصادر وعقله خال من كل رأى متحيز سابق ، وقد جمع هذه المصادر واستغلها على نطاق واسع وببراعة تدعو الى الاعجاب ورغبة منه فى الافادة من مواد لم يسبقه أحد الى الافادة منها لجأ الى ذلك المؤلف العظيم المعروف باسم « انساب الاشراف » الذى وضعه المؤرخ الشهير البلاذرى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى ولم يطلع فقط على المجلد والنصف المجلد من كتاب «أنساب الأشراف» هذا ، اللذين نشرهما وعلق عليهما المستشرقان س . د . جويتاين و م . شلوسينجر من أساتذة جامعة أورشليم والذى أشار اليه أكثر من مرة ، ولكنه اطلع أيضا على أجزائه الأخرى الكثيرة التى لم تنشر بعد والتى نقلها أو أخذ منها أو لخص عددا كبيرا من فقراتها والتى ليس ثمة شك فى انه قد اطلع عليها فى صورة منها منقولة بالتصوير الشمسى من المخطوط الموجود فى مدينة اسطنبول ، وقد كان له بعمله هذا فضل لايستهان به على تفهم الدراسات التاريخية ..

هذا واننا نجد فى تاريخ المجتمع الدينى والسياسى الذى أسسه النبى محمد ان السنوات التى أعقبت وفاة النبى مباشرة تضع أمام نظر الباحثين سلسلة من المسائل الصعبة . ويكفى أن نذكر منها تلك المشاكل الخاصة بانشاء الخلافة وبتولى عمر هذه الخلافة بعد وفاة أبى بكر وبوصيته وبمجلس الشورى الذى أسسه عمر وهو على فراش الموت فضلا عن تلك المشكلة التى ربما كانت أكثرها كلها صعوبة وهى مشكلة الأسباب التى دعت الى الفتوحات الاسلامية وتكوين الامبراطورية العربية . وان هذه المشاكل جميعها وان كانت معقدة وذات حلول متعارضة لم تكن تشوش على أذهان المؤمنين كما حدث على العكس من ذلك بالنسبة للمشاكل

الخاصة بالفتنة الكبرى . واننا لنجد طه حسين فى أحدث مؤلفاته الذى نشره أخيرا عن الشيخين أبى بكر وعمر يسير فى شىء كثير من الحرية والصراحة فى سرد تاريخ تلك السنوات الحاسمة بما عرف عنه من براعة ومقدرة ، وهنا نجد ان موافقته على ما جاء فى الروايات التاريخية الدينية كانت بوجه عام موافقة مطلقة ، وان نقده لا ينصب الا على بعض المسائل الخاصة مثل انكاره وجود وصية سياسية تركها النبى وتصحيح بعض التفاصيل الغير المطابقة للواقع فى قصة اسلام عمر وما شاكلها ..

أما فيما يتعلق بعدة مشاكل أخرى هامة فى حد ذاتها ولكنها ليست ذات أهمية بالنسبة لمظاهر الأحـداث الأخلاقيـة الدينية فان طه حسين لا يعيرها أى اهتمام ونذكر من هـذه المسائل موقفه من الخلاف حول تاريخ قيام حملة خالد بن الوليد على بلاد الشام ، وبنوع خاص حول تاريخ واقعة اليرموك التى لقى كايتانى عند بحثها شيئا كثيرا من التعب والجهد والتى كتب عنها صفحات طويلة ، ولما كان طه حسين لم يقصـد وضع كتاب علمى بحت بل بالأحرى نشر خلاصة تاريخية فان عدم اهتمامه هذا جدير بكل موافقة ..

أما فى المسائل الجوهرية التى تتعلق بأعمق وأوثق خصائص تلك الظاهرة الفريدة التى لم يتم حتى الآن تعليلها تعليلا تاما وهى مسألة سرعة تحول سيطرة أهل المدينة على قبائل بلاد العرب البدوية الى امبراطورية عالمية متركزة كل التركيز، ومنظمة تنظيما قويا ولو أنه بدائى ، فاننا نجد أن طه حسين له فى مثل هـذه المسائل كلمة يقولها وفكرة شخصية يعبر عنها جديرة بالاتنباه اليها والمناقشـة فيها دائما حتى ولو كنا لا نريد أو لا نستطيع أن نتقبلها بحذافيرها . ويدخل فى هذا الموضوع الرأى الذى يبديه طه حسين حول الفتوحات العربية اذ يقول انها لم تكن نتيجة لخطة مرسومة لنشر الديانة الاسلامية عن طريق السلاح كما جاء فى الروايات التاريخية القديمة ، وما كانت حسب رأى دينكلاير وكايتانى المعروف نتيجة لحركة تهجير غير منظمة تمت تدريجيا ، وكانت قد بدأت بدافع بعض العوامل

الاقتصادية ، ولكنها بدأت بقصد الدفاع عن سلامة أراضى جزيرة العرب الموحدة ضـــد ما كان من الممكن أن يقع عليهـــا من عدوان من جانب الأمبراطورية البيزنطية والأمبراطورية الفارسية وبقصـــد تحرير العرب القاطنين فى الشـــام وفى العراق والخاضعين لسلطة هاتين الأمبراطوريتين وكذلك رأيه فى تعليل مقتل عمر اذ افترض وجود مؤامرة أوحى بها شعور وطنى وتعصبى لا يمكن تحديد مصدره ..

هذا وليس ثمة شك فى ان ما ذكره طه حسين عند تقديمه شخصيتى أبى بكر وعمر قد جعل منهما شخصيتين مثاليتين اذ تبدو سيرة حياتهما أقرب ما تكون الى سير القديسين ولكننا لا نستطيع القول بأن الصورة التى صور بها هذين الشيخين اللذين أتما العمل الذى بدأه النبى ليس فيها من خلال تفسيراته ملامح لا تقبل الجدل . واننا نجد ان طه حسين فى بداية الكتاب يصرح بأنه لم يشأ تقريظ الشيخين الجليلين وانه قد بذل كل جهده لكى يفهم أو لكى يجعل القراء يفهمون حقيقة شخصيتيهما . ولقد نجح فى ذلك أيما نجاح كما نجح فى هذا الكتاب أيضا وفى جزءى كتاب « الفتنة » فقد استطاع أن يظهر فى صـــورة حية أبطال قصتـــه الأساسيين وأبطالها الثانويين واستطاع أن يقدمهم جميعا لا فى شكل شرانق باردة لا دماء فيها ولا حياة ولكن فى شكل آدميين من عظم ولحم يتحركون ويتحدثون ويمثلون أدوارهم على مسرح التاريخ ..

هذا وان السحر الذى امتاز به فن طه حسين ، ذلك الفن الواعى رغم تلقائيته قد خلع على النثر العربى ثوبا جديدا وجعل وســـائل التعبير به مقصورة على ما هو جوهرى وجرده من تلك المحسنات البـــلاغية التى لازمته من عهد بعيد دون أن ينتزع ما فى عباراته الأصيلة من جزالة . كما انه حول تلك العبارات النحوية المعقدة الى جمل قصيرة بسيطة دون أن يفقدها حلاوتها الأصلية . واننا نشاهد كل هذه المزايا فى كل ما كتبه من صفحات تبدو لنا فى كل صحيفة منها صـــورة المؤرخ العلامة مرتبطة كل الارتباط بصورة أستاذ فى فن الكتابة والأسلوب ..

طه حسين والثقافة اليونانية

د. شكرى عياد

أكانت مصادفة أم قصـدا ان بعثة طه حسين الى فرنسا بين عامى ١٩١٥و ١٩١٩ ، قد حملته الى أجواء جديدة غير أجواء الثقافة العربية الخالصة من أدب وفلسفة وتاريخ ؟.. ان طه حسين لم يذهب الى فرنسا ليتتلمذ للمستشرقين الذين كان قد درس فعلا على عدد من فحولهم فى الجـامعة المصرية القديمة ، أو لم يذهب لهذا وحده ، ولكن بعثته تركزت بقصد منه أو من الجامعة التى أوفدته على دراسة المجتمعات القديمة ، فدرس اليونانية واللاتينية والتاريخ اليونانى والرومانى ، وكانت رسالته التى نال بها درجة الدكتوراه من السربون « الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون » هى فى الواقع رسـالة فى علم الاجتماع ، والأستاذ الذىأشرف عليه فىاعدادها هو شيخ علماء الاجتماع الفرنسيين فى عصره المفكر الكبير « اميل دوركايم » ..

وهكذا كان أول عمل تولاه طه حسين فى الجامعة المصرية هو أستاذ التاريخ القديم «اليونانى والرومانى» وبقى فى هذا المنصب منعام ١٩١٩ الى عام ١٩٢٥ عندما انتقلت الجامعة الى ادارة الحكومة فأصبح أستاذا لتاريخ الأدب العربى فى كلية الآداب ..

واستأثرت الثقافة اليونانية بالجانب الأكبر من انتاجه فى هذه الفترة :

« صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان » (١٩٢٠) « نظام الاثينيين » (١٩٢١) ــ « قادة الفكر » (١٩٢٥)

على ان طه حسين فى هذا الانتاج الأدبى لم يكن مجرد أستاذ شاب متحمس ، يريد أن يثير اهتمام الجمهور القارىء بالعلم الذى يدرسه لطلابه بين أروقة الجامعة ، كما انه فى تخصصه وعكوفه على الثقافة اليونانية زمنا لم يكن مجرد عضو بعثة توجهه الجامعة الى نوع من الدراسة ليعود فيضطلع بتعليمه للطلاب ..

لقد كان اقتران عصر النضج عند طه حسين بالثقافة اليونانية ــ بل بهذا المزيد بالذات من الثقافة اليونانية والدراسة الاجتماعية ــ حلقة حاسمة فى تطوره الفكرى ، ومن ثم فى تطور ثقافتنا المعاصرة جميعا . كانت له أسبابه العميقة فى المناخ الفكرى كما كانت له آثاره التى تشابكت بقوة فى نسيج حياتنا الثقافية من بعد ..

ان طه حسين ــ الطالب الأزهرى الذى أبعد الى الجامعة الناشئه ــ لم يكن ليستريح قط الى دراسة أدبية أو لغوية مقفلة على نفسها ، تمنح وتصب فى نفس البئر التى لم تعد قادرة على أن تروى أحدا أو شيئا . ولعل « ذكرى أبى العلاء » هى أول دراسة فى تاريخ الأدب العربى تستخدم الدراسات الاجتماعية والنفسية استخداما واعيا لاضاءة الظواهر الأدبية ..

وماكانت الثقافة العربية فىعصور ازدهارها لترضى بالعزلة والانطواء ، انها لم تكد تخرج من أحضان شبه الجزيرة العربية حتى انطلقت تغترف من ينابيع الثقافة العالمية لذلك العهد ، ثم أصبحت هى نفسها لغة الثقافة العالمية الأولى فى العصور الوسطى . فاذا أرادت أن تعود لغة للثقافة العالمية مرة أخرى فلابد لها أن تستأنف ذلك التعامل الحر بينها وبين ثقافات العالم ، بل بينها وبين الثقافة اليونانية بالذات ، فهذه الثقافة هى أم الثقافات الأوربية الحديثة جميعا ..

لن يفهم المرء شعر كورنى ، وراسين ، وميلتون ، وجوته .. الا اذا

قرأ هوميروس ، واسكيلوس ، وسوفوكليس ، ويوربيديس . ولن يعرف أصول فلسفة اوجست كونت الا اذا درس ارسطاليس ، بل ان العلم الأوربى الحديث لا يتنفس الا بروح البحث العقلى التى نفخها فيه الفكر اليونانى ..

تلك أفكار لابد انها راودت طه حسين الشاب قبـل بعثته ، وان لم تتجسم الا فى كتبه التى أنشأها بعد أن تزود ما شاء من الثقافة اليونانية ومن الثقافة الأوربية الحديثة . وستظل تنمو معه وتتطور من « الصحف المختارة » و « قادة الفكر » الى « من حديث الشعر والنثر » ــ الذى يجب أن تؤرخ بظهوره نشـأة الأدب المقارن عنـدنا ــ وترجماته عن سوفوكليس ..

على ان العوامل التى دفعت طه حسين نحو الثقـافة اليونانية ونحو الدراسة الاجتماعية فى الوقت نفسه لم تكن عوامل نوعية متصلة بالانتاج الفكرى فحسب ، بل كانت فى الوقت نفسه عوامل حضارية عامة معبرة عن روح العصر ..

كانت سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى فى مصر مزيجا من الثورة الرومانسية ومن عصر التنوير ، ومع ان الألوان تختلط وتتداخل فاننا نستطيع أن نميز بين التيارين بوضوح ..

نستطيع أن نميز بين عاطفيـة المنفلوطى الممتزجة بالقالب الانشـائى وتشاؤمية عبد الرحمن شكرى وانفراديته من ناحية ، وبين محاولات فرح انطون لتقديم التفكير الاجتماعى العلمى فى قالب المقالة والقصة والمسرحية من ناحية أخرى ..

على ان التيارين لم يكونا ــ كما سبق أن أشرت ــ مجرد تيارين أدبيين أو ثقافيين ، بل كانا تيارين حضاريين أصليين ، ولعلهما أقرب الى تفسير تاريخ تلك الحقبة ومعقباتها فى المراحل اللاحقة من الكلام عن المحافظة والتجديد اللذين يتضاءل خطرهما بالتدريج كقوتين متعارضتين ..

كان مصطفى كامل هو التعبير القومى عن الثورة الرومانسية ، وكان

لطفى السيد ممثل عصر التنوير . وكانت الثورة الرومانسية تستأثر بولاء الأغلبية العظمى .. ولكن سلطان العقل كان يفرض نفسه بقوة واستمرار على الفكر والمجتمع والسياسة جميعا ..

كان الرومانسيون يتكلمون باسم الحق والعدل ويندفعون الى اثبات وجودهم بقوة الحيـاة نفسها ، وكان العقليون يتكلمون باسم المنطق والواقع ويطالبون أولا باستقامة التفكير ووضوح الأهداف . وكان الفكر اليونانى ــ والفكر الارسطى بوجه خاص ــ هو عمدة أنصار العقل . وهكذا لم يذهب طه حسين الى الفكر اليونانى أديبا فحسب ولكنه ذهب اليه أديبا يغلب عليه طابع المفكر . ومن هنا لم تكن مصـادفة أيضا ان جاءت الكتب الثلاثة التى ألفها عن الفكر اليونانى عقب عودته مقسمة على ميادين ثلاثة : الأدب ، والسياسة ، وتاريخ الحضارة ..

وبينما كان الكتاب الأول محـاولة ــ لم تستكمل ــ لعرض أعمال الشعراء التمثيليين اليونان فى صـورة تصلهم بجمهرة القراء من أيسر سبيل ، فقد كان « نظام الاثينيين » ترجمـة دقيقة محكمة لنص من أهم نصوص التاريخ اليونانى . ولعل طه حسين قد أراد أن يقدم فيه مفهوما واضحا لمعنى « الديموقراطية » التى كانت قد أصبحت هدفا من أهداف الحياة السياسية ، وهو يصرح بذلك بقوله فى مقدمة الكتاب ..

« والكتاب كما هو أحسن صـورة موجودة تمثل الحياة السياسية اليونانية ، وهو مع ذلك صورة حية لنشـأة الديموقراطية واستحالتها ورقيها قليلا قليلا حتى تصـل الى أقصى ما يقدر لها من النمو وسـعة السلطان » ..

أما الكتاب الثالث « قادة الفكر » فانه يعبر عن فكرة متكاملة فى تاريخ الحضارة . وطه حسين لا يترجم لهؤلاء القادة (هوميروس ــ سقراط ــ افلاطون ــ ارسطو ــ الاسكندر ــ يوليوس قيصر) حتى يوضح فكرته عنهم ، ولكن كيف ان القائد ليس شخصية منفصلة عما حولها بل هو قبل كل شىء ممثل لعصره وبيئته ..

فاذا تنقل بين فصول الكتاب رأيته يعرض فكرة فى تاريخ الحضارة ، قد لا يمكننا أن نسميها « نظرية » ولـكنها على الأقل تهيىء الأذهان لقبول هذا النوع ..

فالمجتمعات فى تطورها تحتاج أولا الى قيادة الشعراء ثم الفلاسفة ثم الحكام المفكرين ، وهذا هو أساس اختيـاره لمن اختارهم من القادة ، ولكنه لا ينفصـل بنظريته عن الواقع قط ، وان كان الواقع الذى ينظر اليه أكثر من غيره هو واقع الحضارة الأوربية ..

ولهذا يتحدث عن قيادة الدين للفكر فى العصور الوسطى ثم عن تعدد القيادات فى العصر الحديث ، فلا الشعراء ولا الفلاسفة ولا العلماء ولا الحكام هم قادة الفكر فى العصر الحديث ، ولكن هؤلاء جميعا ، ومعهم كثيرون غيرهم ..

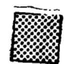
ولقد كانت سياحة رائعة تلك التى قام بها طه حسين فى مجال الفكر اليونانى ، سياحة جسمها بعد ذلك فى « رحلة الربيع » (١٩٤٨) ..

ولم ينقطع قط عن الالمام بمشاهدها ، وما من شك انها كانت ذات أثر كبير فى تشكيل ما استطعنا أن نسميه « أسلوبا كلاسيكيا » فى أدبنـا الحديث ..

أسلوب طه حسـين فى امتـداده وتماسك أجزائه وتصفحه لجوانب الموضوع الواحد فى موسيقاه وتوازن مقاطعه ووقار عبارته مهما تمتلىء بالعاطفة .. أسـلوب لايمكن أن يكون الا ثمرة التقاء الثقافة اليونانية بالثقافة العربية فى ذهن خلاق ..

طه حسين والأدب الفرنسي

د. ريمون فرنسيس



ان هذا الموضوع من الاتساع بحيث لايمكننا أن نقصره ، بلا أسف ، على بحث يقع فى بضع صفحات.. وانى لأسعد لو أن هذه الصفحات أوحت ، على الأقل ، الى طالب ماجستير أو دكتوراه بفكرة تكريس جهوده لدراسة موضوع قد يهم علماء الاجتماع ومؤرخى الحضـارة ، أو يتعدى اطـار الأدب المقارن بمعنى الكلمة .. سيأخذ طه حسين اذ ذاك ، بلا أدنى شك ، مكانه بين كبار كتّاب العالم الذين ، نظرا لتمكنهم من لغة أجنبية الى جانب لغتهم الأصلية ، عرفوا كيف يعودون مواطنيهم على ذخائر ثقافة وفكر لم يكن هؤلاء المواطنون ليكتشفوها بدونهم ..

ان الحوار بين الغرب (وبالأخص فرنسا) وبين العالم العربى يرجع الى زمان بعيد . والصدام السياسى ، والخلافات الايديولوجية ، وعدم الفهم ، وألوان شتى من الصعاب ، عاقت أحيانا هذا الحوار أو عكرت صفوه أو حرفته ، ولكنها لم تتوصل ، ولله الحمد ، الى ابطاله . ولكن هذا الحوار ، وان كان حقيقيا ولا مناص من انكاره على مستوى الهيئات والعلاقات الدولية ، الا انه كان ينتظر ، ليؤثر على الأفئدة والقلوب . أن يدرك مفكر له مكانة استثنائية مداه ، وأن يقف حياته لا للمحافظة

عليه فحسب ، وانما لتدعيمه أيضا . والصدفة التى تحسن صنع الأشياء أحيانا شاءت أن يكون هذا الرجل المنتظر هو طه حسين ..

أقول الصدفة لأن لا مولده ، ولا بيئته العائلية ، ولا تعليمه الأول فى كتّاب قريته ، ولا حتى سنى دراسته فى الأزهر التى يحكيها لنا الجزء الثانى من « كتاب الأيام » فى رواية بالكاد قصصية ، لم تكن لتتنبىء بأن طه حسين سيلعب ، منذ شهر نوفمبر عام ١٩١٤ حيث ذهب لأول مرة الى باريس ، دور همزة الوصل بين فرنسا وبلدنا ..

ربما لم يعلم طه حسين جيدا فى ذلك اليوم انه بتخليه عن زيه الأزهرى ، يسلك طريقا أصبح منذ ذلك اليوم طريقه .. طريق تمرين شاق ، ولكن كم هو غنى بالثمار ..

● همزة الوصل ●

بين أول اتصال له بالجامعات الفرنسية قبيل الحرب العالمية الأولى ويوم قريب أهداه فيه رئيس الجمهورية العربية المتحدة أرفع وسام تقديرا لجهوده فى خدمة الثقافة . مضى نصف قرن . نصف قرن من الجهود ، والبحوث ، والمشروعات ، والتحقيقات التى شكلت الملامح الجميلة لهذا الوجه الذى يتفق الشرق والغرب على سلطانه ونفوذه ..

نصف قرن من ذكاء مقدام ، وسعة أفق ، وانصات الى الناس ، واخلاص داخلى ، يسيطر عليهم بلا كلل ، واهتمام دائم بثقافة انسانية لا تحدها أية حدود ولا تقلل من شأنها أية حزبية ..

هذه الملحوظة أساسية اذا أردنا ألا نخطىء تقدير المكانة التى تحتلها فرنسا والفكر الفرنسى فى مؤلفات طه حسين وحياته ، فلولا تمسكه الذى لا يتزعزع بقيم الفكر ، لما استطاع أن يوفق بين التراث الغربى والكنوز الشرقية وأن يحتفظ فى ذاته وقبل أن ينقله الى الآخرين ، بتوازن فكرى هو شرط أساسى لكل تبدال مثمر ..

هناك لحظة ــ وهى أفضل لحظة ــ يختلط فيها ما يعطى بما يقبل ،

لحظة أسلم بأنها مميزة ونادرة يعود فيها النور سرا الى مصدر انبثاقه ؛ دون أن يفقد شيئا من قوته وبريقه ولمعانه ..

*

حرص كل الفرنسيين الذين تعرضـوا للحديث عن طه حسين على أن يؤكدوا بالذات طابع التبادل هذا بموضوعية قد أتعرض معها أنا لمخالفة أبسط قواعد النزاهة اذا كتمت أمر هذا الطابع ، أو حتى قللت من شأنه

وفى الحقيقة اذا كان طه حسين يدين بالكثير للفكر الفرنسى فان الفكر الفرنسى مدين بدوره بالكثير لطه حسين ..

والخواطر القليلة التى تلى تعتزم أن تدلل على ذلك ..

استعمل كلمة « خواطر » عمدا : ان اسهامى فى هذا الكتاب المخصص لأستاذ تدين له أجيال بأكملها ـ ومن ضمنها الجيل الذى أنتمى اليه ـ أيا كان مستواها وأيا كان تخصصها ، بالميل الى التطلب والمجهود . أقول ان اسهامى لايمكن أن يأخذ شكل عمل شامل أو حتى عملا علميا بسيطا . وللالمام بجوانب موضوع يمثل هذا الاتساع ، يجب أن نكشف أسرار مؤلفات ضخمة ومتنوعة ، وأن نجمع التفاصيل والاشارات ، وأن ننظر الى هذه المؤلفات من آلاف الزوايا ، وأن نثير ألف قضية . بالاختصار يجب أن نطبق على هذه الدراسة الدقة المنهجية التى لايمكن اغفالها فى بحث أكاديمى . لذا تعمدنا أن نترك جانبا وجود فرنسا فى قصص مثل « أديب » أو « الحب الضائع » أو « فى الصيف » .. حتى لا تثقل على القارىء ..

نقول فى بادىء الأمر ، موجهين حديثنا الى الذين قد تستهويهم هذه المحاولة يوما ؛ ان وجود فرنسا فى كتابات طه حسين الانتقادية لا يقتصر على ثلاثة أجزاء « صوت باريس » حيث جمع المؤلف المقالات التى خص بها أعمالا درامية فرنسية (أو مترجمة الى الفرنسية) أتيحت له فرصة مشاهدتها أو قراءتها فى كتاب أو فى عدد أو آخر من الالوستراسيون . حتى فى هذا المضمار المسرحى (الذى قد يصلح وحده موضوعا لرسالة

ممتــازة) من الضرورى أن نكمل المرجع الذى أشرت اليــه بجزئى « لحظات » ، ولنلاحظ ان عنوانهما أقل تعبيرا ..

وفى الواقع ، اذا استثنينا بعض صفحات من ديوان شعر عنوانه « انت وانا » لبول جيرالدى . وجدنا ان « لحظات » ، شأنها شأن « صــوت باريس » ، مجموع دراسات ــ نشرت مبدئيا فى السياسة من يناير عام ١٩٢٣ ، الى مايو عام ١٩٢٤ ــ لمسرحيات كل من بول جيرالدى ، وهنرى لافدون ، واسكندر دوماس الابن ، وفيكتور هيجو ، والفريد سافوار، وميترلنك ، وادوارد بورديه ، وهنرى باتاى ، وجاك دوفال ، وموريس دونيه ، وغيرهم كثيرون ..

أخيرا يجب أن نرجع الى مؤلف عنوانه « فصول فى الأدب والنقد » اذا أردنا أن نعرف رأى طه حسين فى ارتجال فرساى لموليير ، أو ارتجال باريس ، أو بين بين (انترمزو) لجيرودو ..

● المسرح الفرنسى ●

ليس فى نيتى الاشارة الى كل شىء ، وانما يهمنى أن أوضح انه ، فيما يتعلق بالمسرح الفرنسى وحده ــ وأعترف بأنه يحتل مكانا كبــيرا فى مؤلفات طه حسين الانتقادية ــ على الباحث أن يتصفح أعمال طه حسين كلها ، ولا يكتفى بالفهارس التى عادة ما تكون موجزة ، ولا تدل عما اذا كان العنوان الذى تنقله عنوان قصة أم مسرحية ..

ولكن طه حسين لم يهتم بالمسرح الفرنسى دون غيره . من المؤكد ان قراء مجلة الثقــافة القــديمة أو الكاتب المصرى تابعوا فى حينها ــ والا فبامكانهم أن يجدوها مجمعة فى أجزاء مثل « فصول فى الأدب والنقد » أو « ألوان » ــ المقالات الدسمة التى خص بها المؤلف موضوعات تبين ، بتلونها وعمقها ، سعة قراءاته وحب استطلاعه.. ولو أننا علمنا انطه حسين يكرس يوميا ، منذ سنوات طويلة ، وأيا كانت أوجه نشاطه أو واجباته الاجتماعية ، ثلاث ساعات لمخالطة المؤلفين الأجانب ، لفهمنا بلا عنــاء

اهتمام قرائه بموضوعات لا رابط بينها الا الاهتمام الذى أوحى بها ..

هذا مقال عن السلطان الكامل لجيرودو سيحمله على الاهتمام بخيانة المثقفين لجوليان بندا والدفاع عن الأدب لدوهاميل ، ونحن الفرنسيين لجورج برنادوس ..

ومن نبذة تاريخية عن الأكاديمية الفرنسية ، سنراه ينتقل بلا سابق انذار ــ ما دامت الفرصة قد سنحت له ــ الى أسبوع قضاه جول رومان فى القاهرة ، وألقى خلاله محاضرتين وأجرى اتصالا مع المفكرين المصريين

وما دامت حكايات فولتير قد استرعت انتباهه ، سيشارك فى المتعة التى وجدها فيها بنشره دراسة عن صور من المرأة فى قصص فولتير . ولكن فولتير لن يحوله عن مدموازيل دى لسيناس التى سيدرسها ى كتاب تحت عنوان « الساحرة المسحورة » ، ولا عن مدام دى ديفون التى سيدرسها فى كتاب تحت عنوان « الأمل اليائس » ، ولا حتى عن « اوجست كونت » وحبه اليائس لكلوتيلد دى فو الذى سيحلل خيبته فى قصة « فيلسوف عاشق » ..

ولاهتمامه بعقد مقارنة بين اثنين من المؤلفين ــ أحدهما مسلم وقديم والآخر مسيحى وحديث ــ عالجا الموضوع نفسه فى قرون مختلفة ، واضعين فيه مع ذلك ما يميز تكوين وثقافة كل منهما ، سنرى طه حسين يحدثنا عن كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم وعن الحب لستندال

يحدث أيضا أن يتجاوز المؤلف حدود مأساة خاصة فى حياة كاتب ، أو حدود عمل معين ، كما هو الحال فى الأمثلة التى ذكرناها . فى خطاب الى « مى » ، سيدفع مثلا عن الغرب تهمة الاتجار التى لايمكنه أن يقبلها . وفى مقام آخر ، يتفق الأسلوب والجدال ذاته عقب اثارة سارتر موضوع التزام الأدب ، يبحث طه حسين ويدرس موقف الأدب بين الاتصال والانفصال لا فى ضوء الملابسات الحديثة فقط وانما خلال تاريخ الآداب العالمية أيضا . وخوفا من أن يظل غامضا ، يعود الى الموضوع ويعرض ، فى مقالين جمعهما فى ألوان ، ملحوظاته على « ما هو

الأدب ؟ » لجان بول سارتر ، ويوضح الى أى حد تتجاوب مؤلفات هذا الأخير القصصية والدرامية مع وجهات نظر سارتر الفيلسوف صاحب نظريه الوجوديه . نحن هنا على بعد خطوة من فكرة اللامعقول . ويخطو طه حسين هذه الخطوة بدراسته لقصة البير كامى الوباء التى يفضل عليها سوء التفاهم ، وكاليجولا

● الشعر الفرنسى ●

لا ينبغى أن نعتقد أن الشعر الفرنسى لا وجود له فى مؤلفات طه حسين الانتقادية . يكفى ، للاقتناع بعكس ذلك ، أن نقرأ بعناية صفحات مؤلفنا الممتاز عن بول فاليرى (الذى أعجب به بشدة قبل أن يعرفه شخصيا) فى « ألوان » وعن « القبر البحرى » فى فصول فى الأدب والنقد الذى حال خوفه من أن يخون المؤلف دون ترجمته لبعض أبياته

أيا كان أهمية المكانة التى يحتلها الكتاب الفرنسيون ومؤلفاتهم فى بحوث طه حسين الانتقادية يجب ألا تنسينا أنه لجأ الى وسائل أخرى ، أكثر بساطة وأكثر فعالية فى الوقت نفسه ، ليعرف العالم العربى ، بطريقة مباشرة ، ببعض نماذج الأدب والفكر الفرنسى

أعنى تفكيره فى تنمية ملكة الترجمة لدى من كشفت لهم اللغة الفرنسية عن دقتها وأسرارها من بين تلاميذه وأصدقائه .. أكثر من ذلك ، أقول ان طه حسين ، لاهتمامه بوضع روائع الأدب الفرنسى ، كلاسيكية أم حديثة ، فى متناول يد القارىء العربى ، وفى لغة سليمة ومفهومة فى آن واحد ، لم يخش أن يجعل من هذا الأمر واجبا معنويا بل قوميا . تكبد المشاق ليسهر على تمثيل اللغات الأجنبية فى التعليم الجامعى ، ولم يتردد ، وهو عميد كلية آداب القاهرة عام ١٩٤٠ ، فى انشاء قسم فرنسى يزود طلابه بتعليم أحسن الكليات الفرنسية ، وأكثر من البعثات العلمية ، ولم يبخل بالانفاق عليها ، وعمل على أن يتناول الدارسون فى رسالاتهم حتى الموضوعات الشائكة

غايته من كل هذا هى ألا يغار المنتفعون بهذه العناية على علمهم ، بل على العكس أن ينقلوا الى الذين لم تتح لهم مثل هذه الفرص ، الثروة التى حصلوها ، فى شكل منشورات وتراجم . وتدعيما لفكرته تلك ، ترجم طه حسين ، من بين ما ترجم ، « أندروماك » لراسين ، و « زاديج » لفولتير ، ولأندريه جيد ، « أوديب » و « تيسوس » فى مجلد ، و « بروميتيه غير محكم الأغلال » فى عدد من أعداد الكاتب المصرى..

● **أندريه جيد** ●

ولنقف بعض الوقت ، ما دمنا بصدد الحديث عن أندريه جيد ، عند المكان الذى أفرده له طه حسين ، لا فى أعماله كمترجم وناقد فحسب وانما فى فكره وقلبه كذلك

اذا كان قد أشار الى صاحب « الباب الضيق » فى هذا المقال عن فاليرى (ألوان ص ٥٠ ــ ٦٤) أو ذاك عن « جون بول والسينما » (نفس الجزء ص ٣٣٣) فانه يفرد له ، بمناسبة تجديده لأساطير فيلوكتيت وأوديب ، اثنتى عشرة صفحة كبيرة فى (فصول فى الأدب والنقد ص ١٥٢ ــ ١٦٣) ، تتيح له فيها اليوميات المنشورة عند جاليمار الفرصة للتعبير عن اعجابه بلا تحفظ ..

أخيرا ، قدم طه حسين للنص العربى لأوديب وتيسوس بست وخمسين صفحة ، ولنضف إلى ذلك رده على خطاب جيد الموجه الى نزيه الحكيم معرب « الباب الضيق » كمقدمة لهذا الكتاب

والصداقة ، شأنها شأن الحب ، لا سلطان للارادة عليها . ولكن عندما تنمو هذه الصداقة وتشب بين اثنين من رجال الأدب مثل جيد وطه حسين ، من حقنا أن نتساءل عن الأساس الذى تقوم عليه ، مهما كان واهيا . ولكنه ، فى الحالة التى نحن بصددها ، متين وسيتأثر به ويعرف أصالته المحبة من يقدر الصداقة فى حد ذاتها ومن كان ليس بغريب على جيد أو طه حسين بصفة خاصة .. ولندع الكلمة لهذا الأخير :

« لا غش ولا محاولة للغش » ..

« لا يستطيع الا أن يكون صريحا صادقا »

« الصراحة والصدق هى المميز الأول والأخير ، المميز الأساسى لشخصيته المعقدة الخصبة البسيطة المتعددة الواحدة مع ذلك »

« عود نفسه الاستقلال التام »

« ينفرد بالملاءمة بين تمرده الداخلى وسيرته الخارجية »

مما لا شك فيه أنه ، بموجب هذه الصراحة المتبادلة وحب الاستقلال فى التعبير عن أكثر الآراء جرأة ، حدد المؤلفان ، أعنى الصديقين ، موقفهما من موضوع هام أثاره جيد بمناسبة تعريب « الباب الضيق » . كان يخشى ألا يجد مثل هذا النص قراء : « ذلك ان واحدة من الخصائص الجوهرية فى العالم المسلم ، فيما بدا لى ، انه وهو الانسانى الروح يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة »

وأوضح طه حسين الأمور فى رد بالعربية والفرنسية نشره فى مدخل الترجمة . هذه بعض جمل منه لها دلالتها :

« لم يكن من اليسير أن يظهرك الذين لقيتهم من المسلمين على حقائق الاسلام ، فلو قد تعمقوا الدين تعمقا دقيقا لأظهروك على ما يثير القرآن من مسائل وما يعرض لها من جواب »

لن نقف أكثر عند هذا التباين فى وجهات النظر . وفى الحقيقة ، لم يكن جيد ليطلب الا أن يكون مخطئا . ونجاح « الباب الضيق » فى نصه العربى دليل قاطع على ذلك . لم يكن هذا هو المؤلف الوحيد لجيد الذى نقله معاونو طه حسين الى العربية

ولكن الشواهد المكتوبة عن هذين الاسمين اللامعين فى أول القرن العشرين لا تقف عند هذا الحد . لقد نشر جيد فى الصفحة الأولى من الليترير (الذى أصبح فيما بعد الفيجار ليترير) الصادر يوم السبت ١٢ ابريل ١٩٤٧ مقاله المعروف تحت عنوان : « مقابلة مع الكاتب العربى طه حسين » . واستخدم نص المقال ، باستثناء جملة أو اثنتين ، كمقدمة

لكتاب الأيام المنشور فى العام نفسه عند جاليمار

وأقف بعض الوقت عند ما قاله جيد ، لا لأن جيد اسم لامع وانما لأن أقواله تتضمن أهم ما سيقوله فيما بعد نقاد مثل هنرى موميريه فى «أسبوع فى العالم» ، وموريس دروون فى «بارى بريس لانترونزيجون» ، وروبير لاندرى فى « هذا الصباح » ، و أ . ف . فى «الآداب الفرنسية» ، وآخرون مثل توماس بودوان وايديت توماس ، الخ .. عن مؤلفات من أجل مؤلفات الأدب العالمى

نقول ان ما من أحد مثل جيد كان ليستطيع أن يتحدث عن عزلة طه حسين ومرجعها ضرارته ، ولا عن انطوائه اللاارادى والنتائج المعجزة التى ترتبت عليه

ومن الطريف أن نقرأ ، فى هذا المقال ، وبشكل يكاد يكون مختلفا ، الكلمات التى كان طه حسين قد قالها فى جيد والذى يبدو أن هذا الأخير لم يعلم بها . « طه حسين متمرد ، وراء مظهره الهياب . وتواضعه الظاهرى ليس الا ستارا لكبرياء عظيمة شرعية »

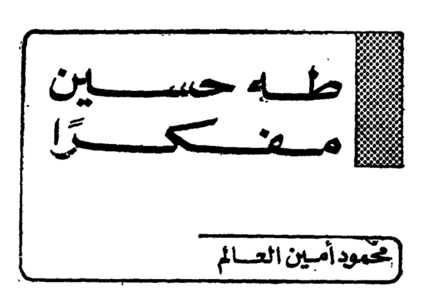
ان هذه الكبرياء انتصار على القدر . وبصيرة طه حسين مزيج من السكون الداخلى والتأمل الذى تولد أثنــاءه الفكرة وتتحرك وتثبت وجودها وتتفتح ، بشجاعته وعنده ، يعرف طه حسين كيف يقول لا بلا تحفظ خطابى أو انصاف حلول . ولكن أية ضحكة مستريحة جلية ، وأى حماس متجدد دائما اذا ما اتفق مع محدثه

ان هذا الرجل المهيء للأنوار القيمة فقط كسيل من الأفكار ، ومنجم للمعرفة ، وساحر بالكلمة . ويختتم المقال بهذه السطور التى يلخص فيها جيد اعجابه ويرتقى ، على طريقته ، بالجدال :

« ما قد يدهشنا ، ونحن ثملون ، أدبيا على الأقل، بالافلاس والفشل ، هو أخيرا هذا المثال للنجاح وتغلب الارادة وانتصار النور الفكرى حثيثا على الظلمات ، مما يجعل هذا الكتاب الغريب الغير حالى مشجعا »

بعد ذلك بثلاث سنوات ، أى عام ١٩٥٠ ، آكد كل من ايتامبــل فى

« العصور الحديثة » واندريه روسو فى « الفيجارو ليترير » واميـل هنريو فى مركز البحر المتوسط الجامعى فى مدينة نيس ـ ونكتفى بذكر هؤلاء ـ بعبارات مؤثرة معجبة ما تدين به الثقافة الفرنسية للذى عين اذ ذاك وزيرا للمعارف المصرية . هذا وكانت الصـحافة الباريسـية والاقليمية قد أشارت ، فى نوفمبر ١٩٣٨ ، وبمناسبة درجة الدكتوراه الفخرية التى منحتها اياه جامعة ليون فى احتفال مهيب ، الى طابع الوصل هذا بين الفكرين الفرنسى والعربى . مما يدعم العمل الانسانى الكريم لخادم الفكر المخلص العبقرى العظيم : الدكتور طه حسين



فى عام من تلك الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ، لعله عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٧ ، لا أكاد أذكر ، ذهبت مع صديقين عزيزين للقاء الدكتور طه حسين فى بيته .. وكانت بلادنا آنذاك تحتدم بالصراع الوطنى والاجتماعى معا .. على ان حديثنا مع الدكتور طه حسين كان فى البداية حديث الشعر وحديث الأدب ، وراح ثلاثتنا يعرض على عميد الأدب بضاعته من شعر وقصة ، نستأنس منه الرأى والمشورة .. ثم ما لبث مجلسنا أن عرج على السياسة .. لقد اشتم منا الدكتور طه حسين اتجاها فكريا معينا ، ونشاطا سياسيا عمليا ، فما لبث أن اندفع بكليته الى حديث السياسة .. وأحسست فى حديث الدكتور طه حسين اهتماما وحماسا بهذا الحديث أكثر مما أحسست به فى حديث الأدب .. ودار الحديث حول الصراع المحتدم بين اليمين واليسار ، وحول حاجة البلاد الى تغيير اجتماعى عميق .. وأذكر ان الدكتور طه حسين قد اختتم هذه الجلسة بهذه المعانى التى لا أذكر كلماتها ، ولكنى ما زلت أعيها وأتمثلها .. قال الدكتور طه ما معناه : انكم تتحدثون كثيرا عن الثورة ، وتكتبون عن ضرورة الثورة ، ولكنكم لا تعرفون ولا تتقنون فن العمل الثورى .. ما أحوجكم الى دراسة

التكتيك الثورى والاستراتيجية الثورية !.. وخرجنا من مجلس عميـد الأدب فى شبه ذهول .. لا تملأ نفوسنا آراؤه الأدبية وملاحظاته النقدية ، بقدر ما تهزها هزا هـذه الكلمات ، هـذه الدعوة الحاسمة الى العمل الثورى العلمى المنظم .. ولعل هذا اللقاء المبكر مع الدكتور طه حسين كان عاملا من العوامل الحاسمة فى تشكيل مجرى حياتى خلال الأعوام التى تلت هذا اللقاء ..

ولست أسوق هذا كله ، لأحكى حكاية لقاء مع الدكتور طه ، أو لأحمل الدكتور طه مسئولية حياتى الفكرية والسياسية ، وانما قصدت أن أتخذ من هذه الحكاية وهذا اللقاء بداية للحديث عن جانب من جوانب عميد الأدب ما زال بعيدا عن الدرس والتحليل والتفسير والتقييم

لقد ذهبنا الى الدكتور طه حسين لنستأنس برأيه فى شأن من شئوننا الأدبية ، وخرجنا من مجلسه بتوجيه فكرى ، ودعوة الى موقف عملى ، ومسلك ثورى ..

والحق ، اننى منذ هذا اللقاء المبكر ، وأنا أتأمل الدكتور طه حسين فى كل ما أقرأ له ، وأسمع عنه ، وأرى منه ، وما أكثر ما اختلطت فى وجدانى حقائق ثلاث لهذا الرجل العظيم ، حقيقة الأديب الشاعر الفنان الذى تكاد تغنى لغته ويرقص أسلوبه ، وحقيقة المفكر العالم الباحث الذى تعمق نظرته وتحلق أفكاره ، وحقيقة الرجل العملى ، الذى لا تغيب عنه وقائع الحياة ، ولا يغيب أبدا عن وقائع الحياة ، بل هو حاضر معها ، فعال فيها ..

أين حقيقة الدكتور طه حسين وراء طه حسين الأديب ، طه حسـين الشاعر ، طه حسين الباحث ، طه حسين العالم ، طه حسين العميد ، طه حسين الوزير ، طه حسين التوجيه والتقرير والحسم

ما أكثر ما كنت أسمع من أحكام سطحية ، تتهم أسلوبه الأدبى ، بالجرس الموسيقى السطحى الذى لا يكاد يتعمق الأمور ، بل يكرر التعبير ويلونه ، وما أكثر ما كنت أسمع عن مواقف عملية فى حيـاته

التنفيذية عميدا ، أو مستشارا للثقافة ، أو وزيرا ، يدور حولها الجدل وتحتدم الخصومات ..

على انى كنت فى كثير من الأحيان أحس فى جرسه الموسيقى نفسه تفكيرا عقليا خالصا ، أكثر مما أستمع فيه الى موسيقى ! .. وكنت أجد فى كثير من مواقفه العملية شعرا وأدبا وفكرا خالصا ، أكثر مما أجد فيها عملا وتنفيذا وادارة !

لقد اختلطت الأمور فى وجدانى ، ورحت أفكر مليا فى حقيقة هذا الرجل ، أين هو من هذه الأمور جميعا ، ما هى حقيقته بين هذه الحقائق الثلاث : الشعر ، والعقل ، والعمل

وقد يكون أفضل سبيل الى الاجابة عن هذا السؤال هو الدراسة المنهجية التحليلية لأعمال الدكتور طه حسين جميعا ، وتلخيص نتائجها ، فضلا عن دراسة مواقفه العملية المختلفة ، ثم بلورة هذا كله فى ملامح فكرية عامة ، هى ملامحه

على ان هدا بحث لا يحتمله هذا المقال السريع ، الذى ما قصدت به الا طرح اجابة محدودة ترسبت فى وجدانى خلال معايشة لبعض أعماله ، وهى معايشة لم ترتفع الى مستوى الدراسة المنهجية ، وقد لا تخلو هذه الاجابة من تعجل ، وقد تكون مجرد انطباع عام ، لتكن على أى حال رأيا أطرحه للمناقشة ، يمهد لتلك الدراسة المنهجية

ومنذ البداية سأطرح هذا الرأى ، لأختبره مع القارىء العزيز خلال الفقرات المقبلة من هذا المقال

فى رأيى أن الدكتور طه حسين ليس أساسا بالشاعر ، وأكاد أقول ليس أساسا بالأديب بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة ، وهو ليس كذلك بالفيلسوف التجريدى الباحث عن العلاقات المطلقة بين الأشياء ، وانما هو فى جوهره مفكر عملى

وأكاد أزعم منذ البداية أن أدبه نفسه يغلب عليه هذا الطابع الفكرى العملى ، بل ان ما نستمتع به من شعر خالص وموسيقى غنية فى أسلوبه ،

انما هو شعر العقل ، وموسيقى التجسيد الخارجى لقضايا الفكر التى نسعى كى تصبح واقعا حيا مؤثرا فعالا

وأكاد أزعم كذلك أن دراساته الأدبية والتاريخية والفنية والتربوية انما هى فى جوهرها فكر فى موقف ، ورأى فى تطبيق.. ان طه حسين هو بغير شك شاعر وأديب وعالم ومفكر وفيلسوف ، ولكنه ليس بالشاعر المحلق بعيدا ، ولا بالأديب الحالم بغير هـذه الأرض ، ولا بالمفكر المعتزل ، بل أكاد أجد فيه ــ عند ما أعود الى كتبه وأتابع مواقفه ــ قائدا يدفع ويحرك ويحرض ، ولولا ملابساته الخاصة لكان له شأن فى حياتنا الاجتماعية ، أعمق أثرا من شأنه فى حياتنا الفكرية والأدبية ، رغم رفعة هذا الشأن

ولا أدرى هل اعتسف الرأى اعتسافا عندما أقف عند لحظة عابرة من لحظات الجزء الثانى من الأيام ؟ لقد وقعت على أذن الشاب الصغير جملة صغيرة ، وقعت على أذنه كما يقول « فى أول النوم وآخر اليقظة ، فردته اليقظة ليله كله »

لقد سمع من يقول معرفا الحق بأنه « هدم الهدم » . ما معنى هذا ؟ الحق هو هدم الهدم ، ولست أعرض هنا لهذا التعريف ، وانما أعرض لهذه اليقظة التى انتابت هذا الشاب الصغير فى غرفته بالقرب من الأزهر ، وفى لحظة هى فى تقديرى خلاصة عمر

وما أعتقد ان الشاب قد وقف أمام صعوبة التعريف فى هذه الجملة ، وانما وقف أمام ما فى هذه الجملة من معنى خاص يربط بين الفــكر والعمل ، بين العقل والفعل

لا أقول انه تفهمها ، لا أقول انه وعى معناها ومرماها ، ولكنى أعتقد ان شيئا فى بناء نفسه وفكره وشخصيته قد وجد فى هذه الجملة الغريبة ألفة غريبة ! .. ان هذه الجملة الغريبة فى أيامه الأولى تكاد أن تصبح خلاصة أيامه كلها فى مقبل حياته ، لقد أصبح الحق فى حياته فعلا ، وأصبح العقل عملا ، وأصبح التفكير توجيها

وفى تقديرى أنه كان من الطبيعى أن ينتقل هذا الشاب الصغير من الأزهر الى الجامعة المصرية عند افتتاحها ، وفى هذا الانتقال العملى ملامح لحركته الفكرية الداخلية كذلك

وعندما ننتقل نحن الى هذه الحركة الفكرية الداخلية ، ونتأمل أول عمل فكرى لهذا الشاب وهو بعد لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، عندما نتأمل رسالته الأولى التى حصل بها على أول دكتوراه فى جامعتنا المصرية عام ١٩١٤ ، تتبين منذ البداية وضوح هذا الفكر الحاسم ، الذى يغلب عليه الطابع العملى

فى هذه الرسالة يكاد يقيد كل شىء بنظام مطلق من الجبرية والحتمية ، نجده مؤمنا بالجبر التاريخى أى ــ كما يقول : « بأن الحياة الاجتماعية انما تأخذ أشكالها المختلفة ، وتنزل منازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب التى لا يملكها الانسان ، ولا يستطيع لها دفعا ولا اكتسابا »

وبمقتضى هذا الجبر التاريخى يرى أن « الحادثة التاريخية ، والقصيدة الشعرية والخطبة ... كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكيمياء »

بهذا التحديد العقلى الصارم يبدأ رسالته العلمية ، بل يبدأ حياته الفكرية كلها كذلك

*

قد نحس فى هذه البداية أثرا للنظرية العلمية الميكانيكية فى القرن الثامن عشر ، كما نحس بآثار للمدرسة الطبيعية فىالنقد والدراسة الأدبية عامة ، نحس بسانت بيف ، وتين ، ولكننا نحس قبل كل شىء بمفكر صادم التفكير ، يسعى لصياغة ظواهر الوجود والتاريخ ، لا ليلغى ارادته الفردية ، وانما ليمكن هذه الارادة أن تسيطر وأن تكون فعالة ومؤثرة

ولا أدرى لعل اختياره لفلسفة ابن خلدون فى التاريخ عند سفره الى فرنسا موضوعا للبحث الجامعى هناك ، لم يكن اعتباطا ، بل كان امتدادا

لهذا الاتجاه فى صياغة مظاهر التجربة الانسانية والتاريخية عامة ، صياغة عقلية صارمة ..

وما أكثر ما يتردد هذا الاتجاه بعد ذلك فى دراسات متنوعة ، وقد نجد صدى لهذا فى حديث الأربعاء عند مناقشه لنظرية التاريخ مع رفيق العظمة ، غير اننا تتبين أن هذا الاتجاه العقلى قد أخذ يخفف من صرامته ، أو بتعبير أدق من ميكانيكيته ، دون أن يفقد الدقة والموضوعية ، فيسمح بتعدد العوامل فى صياغة الظواهر الاجتماعية والتاريخية ، ولايقتصر على المؤثرات الخارجية فحسب ، وانما يقول كذلك بالمؤثرات والعوامل الذاتية والنفسية فضلا عن المؤثرات والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ويبلغ هذا المنهج الفكرى أوجه فى دراسته التاريخية البالغة العمق والخصوبة للفتنة الكبرى فى كتابيه « عثمان » و « على وبنوه » ، فى هذين الكتابين نجد الجبر التاريخى الذى قال به فى مطلع حياته الفكرية يصبح أكثر مرونة وحيوية ، تمتزج فيه العوامل الموضوعية بالعوامل الذاتية ، العوامل المادية ، بالعوامل الاساسية دون أن يفقد الدقة والموضوعية ، كما ذكرنا ..

ففى تفسير بعض الظواهر التاريخية لا يغفل العوامل المادية البسيطة مثل صعوبة المواصلات مثلا فى تفسير ابطاء عمال عثمان مما مكن للثوار من النجاح فى تنفيذ خطتهم ، وهو لايغفل كذلك عوامل المزاج الشخصى والملامح النفسية لعلى والحسن والحسين فى تفسير بعض الظواهر البالغة التعقيد ، جنبا الى جنب مع العوامل الاقتصادية والفكرية والسياسية

على اننا لا نحس فى هذه الدراسات التاريخية ، مجرد فكر يسعى للتفسير ، وانما نحس به فكرا يسعى للسيطرة على الواقع التاريخى والاجتماعى ، انه يعيد بناء التاريخ ، يعيد صياغة الأحداث وترتيبها وتبويبها على نحو منطقى عقلى صارم ، فلا نكاد نحس فيه بالعالم المؤرخ بقدر ما نحس فيه برجل السياسة ، الخبير بنفوس الرجال وأحوال الحياة ، انه يعرض لقوانين الحركة الاجتماعية ، فيحسم فيها بالأمر

القاطع ، ما أكثر ما نجده فى « عثمان » و « على وبنوه » يفسر بعض الظواهر بالقطع واليقين ، ما أكثر ما نقرأ له عبارات « أكاد أقطع » و«يقينا» ، و«لا أشك» وهو يفسر وقائع وأحداثا يشتجر حولها الخلاف

ما أكثر ما نجد له عبارات تدل على الترجيح والاحتمال ، ولكن القطع والحسم واليقين يكاد يكون نسيج البناء التاريخى الذى يسوقه أمام أعيننا ، مواكب متحركة يحكمها قانون محدد ، وان يكن متعدد الأوجه ، معقد الأسباب ، نحس بفكر الدكتور طه حسين محيطا بهذه الظواهر التاريخية ، متحركا معها ، مفسرا لها ، بل أكاد أقول مسيطرا عليها كذلك ..

على ان فكره لا يسلك هذا المسلك ازاء الظواهر التاريخية وحدها ، وانما نراه كذلك بالمنهج الصارم نفسه وهو يعالج ظواهر الحياة الأدبية ، وبهذا المنهج استطاع الدكتور طه حسين أن يحقق اضافاته الخلاقة فى تاريخ الأدب العربىكله.. بأداة العقل اكتشف ظواهر وحدد معالم أحداث أدبية وفنية منذ العصر الجاهلى حتى عصرنا الحديث ، وما أكثر ما يقال انه اصطنع المنهج الديكارتى ــ كما يقول ــ فى كتابه الادب الجاهلى ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن فى حاجة الى هذا المنهج الديكارتى ، فجوهر حركته الفكرية هو التحديد العقلى ، وليس الشك الديكارتى الا وجها من أوجه هذا الجهد العقلى ، ولكنه ليس جوهره ، حقا انه شك منهجى استطاع به الدكتور طه حسين أن يزيل كثيرا من الأوهام فى تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ، كاشفا حقيقة الأدب الجاهلى الذى يغلب عليه الانتحال ، محددا عوامل الانتحال ، واضعا معيارا موضوعيا لتحديد معالم الأدب الجاهلى الحقيقى ، ولقد استطاع الدكتور طه حسين كذلك أن يكتشف فى الأدب الجاهلى ظواهره الأدبية وأن يحدد معالم مذاهب فنية فى دراساته الأخرى

وعلى انى أريد أن أقول انه لم يكن تبنيا لفلسفة ديكارتية فى التفكير، كان وقوفا عند حدود الشك المنهجى لديكارت مطبقا على الأدب ،

والحقيقة انه ليس فيه من الديكارتية غير هذا المظهر الخارجى ، لقد واصل الدكتور طه حسين فى الحقيقة طريقه العقلى الصارم الذى بدأه برسالته عن أبى العلاء ، ولم يكن الشك الديكارتى غير جانب من منهجه العقلى العام ، ولكنه ليس سمته الأساسية بل لعلنا نجد فى هذا المنهج العقلى سمات ديكارتية أخرى غير الشك مثل الوضوح والتميز فى الحكم والتعبير والتحليل ، على ان المهم أن أؤكد ان هذا المنهج العقلى فى صياغة الظواهر التاريخية والأدبية ، وتفسيرها ، لم يكن مجرد تطبيق للشك الديكارتى ، لم يكن تبنيا للفلسفة الديكارتية ، واشاعة لها كما يقال أحيانا ، وانما هو امتداد للمنهج العقلى الصارم الذى آخذ به نفسه منذ بداية حياته العلمية

على اننا فى بعض كتاباته الأخرى قد نلمح فيها جنوحا الى التشكك فى قيمة العقل كأداة منفردة للمعرفة ، نلمح هذا فى حوار الدكتور طه حسين « مع أبى العلاء فى سجنه » بل يكاد يرجع محنة أبى العلاء الى اتخاذه العقل اماما واعتباره نبيا ، ويؤكد ان العقل لا يصلح وحده ملكة للمعرفة ، وقد نجد هذا الرأى كذلك فى كتابه « على هامش السيرة » مؤكدا به كذلك ان العقل ليس هو كل شىء ، وان للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة الى الغذاء والرضا عن العقل ..

وقد نجده فى كتابه « مرآة الاسلام » يتخذ من هذا الرأى نفسه تفسيرا للشقاق والتنازع بين الفرق الاسلامية « آمنوا بالعقل وحكموه فى كل شىء ، وزعموا انه وحده مصدر المعرفة .. وقد غرهم ايمانهم بالعقل فدفعهم الى شطط بعيد »

ورغم هذا ، فان الدكتور طه حسين لم يستعن بغير المنهج العقلى فى تفسيره للظواهر غير العقلية ، فى توكيده ان العقل ليس هو الملكة الوحيدة للمعرفة

على ان توكيده لهذه الملكات الاخرى غير ملكات العقل هو فى الحقيقة تدعيم لما بدأنا به حديثنا وهو ارتباط منهجه العقلى باحساس

عملى واقعى ، انه ليس العقـل المنعزل بل العقـل العملى الذى يتابع الظواهر ويكاد يحسها ويتقراها بل ويسيطر عليها كذلك ..

وفى كتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » مناقشة عميقة ـ لعلها أعمق مناقشة مجردة تعبر عن فلسفة أبىالعلاء فى هذا الكتاب .. يفسر الدكتور طه محنة أبى العلاء ، فيرجعها الى « العجز عن ذوق الحياة ، والقصور عن الشعور بما يمكن أن يكون فيها من جمال وبهجة ، من نعيم ولذة »

والدكتور طه فى الحقيقة كما ذكرنا يعبر بهذا عن فلسفته هو ، ان محنة أبى العلاء هى عدم تلاؤمه مع الواقع الطبيعى والاجتماعى ، وهى محنة تدفع الى هذا الاتجاه التشاؤمى فى أدبه .. وفى موضع آخر من هذا الكتاب تنمو هذه الفكرة لتعبر عن تناقض أكثر خصوبة فى حياة أبى العلاء ، بين قوة عقله وتضاؤل قدرته ، يتساءل الدكتور طه « ما هذه الحرية المطلقة التى يستمتع بها هذا العقل اذا فكر ، وما هـذا العجـز المطلق الذى يضطر العقل اليه ، اذا أراد أن يعمل أو يدفع الى عمل .. لماذا منح السجين هذه القوة المفكرة المريدة التى تأمل وتعجز عن تحقيق الأمل ، وتريد وتقصر عن انفاذ الارادة ، وترى الخير ولكنها لا تجد اليه سبيلا » ..

*

خلاصة مأساة أبى العلاء عند الدكتور طه هو انه كان صاحب فكر وشعر وانتقاد ولكنه لم يكن صاحب اصلاح عملى ، خلاصة مأسـاة أبى العلاء هو هذا الفصام بين العقل والقدرة ، بين الفكر والعمل

وفى مقابل هذا تنضج ملامح فلسفة طه حسين الايجابية : عقل مقتدر ، وفكرة عاملة ، ورأى مريد نافذ ، وموقف فعال يسعى للاصلاح والتغيير ما استطاع ..

هذه المعالم العملية الفعالة للعقل هى التى تحدد المعالم الاساسية كذلك لفكر طه حسين عامة

نقرأ له « فى مرآة الضمير الحديث » « ان تغيير الأشـياء لا يكون

بالكلام الذى يقال عن اخلاص أو تكلف ، وعن تفكير أو اندفاع ، وانما يكون بالعمل الذى ينقل الاشياء من طور الى طور »

ويقول كذلك فى موضع آخر من هذا الكتاب القيم « العمل وحده هو الذى يستطيع أن يرضى القلب الذكى ، ويقنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذا الى نفوذ »

بهذا الفهم العميق يلائم الدكتور طه حسين بين الحياة العقلية والحياة العملية ، وبهذا الفهم تتحدد معالم حياته وفكره على السواء ، ولست أعنى بالملاءمة هنا المداراة ، وانما أعنى الفاعلية ، على أننا لانتكر أن هذا الطابع العملى لفكر الدكتور طه كان يدفعه فى بعض الأحيان الى أن يخفى بعض أفكاره سعيا لنجاح بعضها الآخر

ولعل كتابه « المعذبون فى الأرض » من أبرز مظاهر هـذا المسلك الفكرى العملى ، والكتاب بغير شك هو تعبير عن الصراع الاجتماعى الذى كان محتدما فى بلادنا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وهو فى مضمونه العام ، وأثره النهائى دعوة الى التغيير الاجتماعى ، وان غلب عليه الطابع الاصلاحى

على ان الدكتور طه حسين أراد ــ فيما أعتقد ــ أن يحمى دعوته هذه بكل ما يستطيع من وسائل الحماية ، ولهذا نراه فى هذا الكتاب الذى هو دعوة الى التغيير يقول تمهيدا له : « انى راض عن حياتنا التى نحياها كل الرضا ، مطمئن اليها كل الاطمئنان ، معجب بها كل الاعجاب ، لا أريد أن أغير قليلا ولا كثيرا ، ولا أحب أن يتغير منها قليل أو كثير ، أول هذا الحديث يدل ــ فيما أظن ــ دلالة واضحة على أنى من المحافظين المتشددين فى المحافظة ، ومن أصحاب اليمين الذين لا يضيقون بأحد كما يضيقون بأصحاب الشمال »

وتكاد بعض تعابير هذه الفقرة تفضح الدكتور طه ، فكلمة « فيما أظن » ، وحرصه القاطع على تأكيد محافظته المتشددة ، وانه من أنصار اليمين ، وانه غير راغب بهذا القطع فى التغيير تكاد تكون غطاء خارجيا ،

بل طلاء سطحيا لاخفاء المتفجرات التى يشتمل عليها هذا الكتاب

على أن هذا الغطاء وهذا الطلاء لم يخدع الحكام المحافظين اليمينيين الرجعيين فى ذلك الوقت فصادروا هذا الكتاب اليمينى المحافظ المتشدد !

وهنا كذلك نستشعر فكر الدكتور طه العملى ، الذى يسعى للملاءمة مع الواقع لتحقيق فكرته ، لوضعها موضع التنفيذ ، انه لا يكتفى بالدعوة الى مدينة فاضلة ، أو بصياغة حلم عزيز ، وانما يسعى بفكره سعيا عمليا الى التغيير الواقعى

ونكاد نجد هذا الفكر العملى فى عمل أدبى آخر بل فى كل أعماله الأدبية بغير تمييز ـ فى مدخل « دعاء الكروان » نستمع الى آمنة وهى تستأذن الكروان كى تقص على الناس طرفا مما يدور بينهم من حديث « لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الذكية ، عن أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق »

***

لا أقول ان هذه الرواية كتبت بهذا الهدف العلمى وحده ، أو صيغت بمقتضاه ، فجاءت رواية تقوم على التوجيه المباشر ، لا .. وانما أحس بهذا التوجيه العملى فى كل ما يكتب من بحث علمى ، أو ابداع أدبى كهذه الرواية على سبيل المثال

بل لعلنا نتبين هذا الاتجاه العملى كذلك فى كتابه « على هامش السيرة » عند حديثه عن القديم والجديد ، انه يقول : « القديم لا ينبغى أن يهجر لأنه قديم ، والجديد لا ينبغى أن يهجر لأنه جديد ، والجديد لا ينبغى أن يطلب لأنه جديد ، وانما يهجر القديم اذا برىء من النفع ، وخلا من الفائدة ، فاذا كان نافعا مفيدا فليس الناس أقل حاجة اليه منهم الى الجديد »

وهكذا تصبح الفائدة ويصبح النفع أساسا للحكم على القيمة ، وهو حكم عملى خالص كما نرى ، لا نقول انه حكم برجماتى ، ولكنه حكم يربط بين الفكر والواقع ، بين العقل والعمل ، ويؤكد القيمة الأساسية

لفكر الدكتور طه حسين باعتباره مفكرا عمليا .

وبهذا الفهم كان موقف طه حسين من الحرية ، ان الحرية عنده هى حرية واقعية ، ليست مجرد تحليق فى فراغ ، ان الحرية عنده هى جوهر الفن والفكر والعلم والأدب والحياة جميعا ، نجده فى « مرآة الضمير الحديث » يتحدث عن الفن فيؤكد ان الفن « أثر من آثار الأحرار لا من آثار العبيد » ونجده يدعو دعوة واضحة محددة المعالم لتحرير الشباب من الحاجة الاجتماعية حتى تتوفر له أسباب الابداع « حرر الشباب من البؤس والجوع وهم التفكير فيما يقيم الأود ، وحررهم من الجهل وأتاح لهم علما وأدبا وثقافة ... الخ »

ان الحرية عنده هى الخبز وهى الثقافة وهى كذلك الهواء والنور والجمال ، انها ليست غاية فى ذاتها بل هى « وسيلة الى أغراض أرقى منها وأبقى وأشمل فائدة وأعم نفعا »

***

ولعل كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » من أكثر كتب الدكتور طه حسين توكيدا لهذه المعانى ، وتجسيدا للملامح الفكرية للدكتور طه حسين بشكل عام .. انه يعبر عن فكره ، فى التخطيط العملى والتطبيق المباشر ..

وظروف تأليف الكتاب نفسها تكشف عن هذا الطابع الفكرى نفسه ، كان تأليف الكتاب اجابة عن سؤال وجهه بعض الشباب اليه بعد توقيع معاهدة عام ١٩٣٦

يكتب الدكتور طه حسين هذا الكتاب ليجيب عن هذا السؤال الكبير:
« ما هو واجبنا الثقافى بعد تحقيق استقلالنا السياسى ؟! »

وبصرف النظر عن حقيقة هذا الاستقلال السياسى ، فان اجابة الدكتور طه حسين عن هذا السؤال كانت اجابة جادة للغاية ، عميقة للغاية ، واقعية للغاية ، عملية للغاية كذلك

انه يؤكد فى بداية الكتاب انه ليس المهم الاستقلال والحرية ، وانما

المهم ما يتضمنانه من تبعات ، المهم عنده هو تثبيت الديمقراطية وحياطة الاستقلال ، وهو يدعو بشكل حاسم الى أن « نعرض عن الألفاظ التى لا تغنى الى الأعمال التى تغنى »

وفى هذا الكتاب يؤكد ان الحرية لا تستقيم مع الجهل ، ويربط لهذا بين الثقافة وبين الحرية ، بين التعليم وبين الثورة على الظلم ويقول : « يجب أن يتعلم الشعب الى أقصى حدود التعليم ففى ذلك وحده الوسيلة الى أن يعرف الشعب مواضع الظلم والى أن يحاسب الشعب هؤلاء الذين يظلمونه ويذلونه ويستأثرون بثمرات عمله »

وهو يعرض لحظة لتنظيم التعليم فى مراحله المختلفة تجمع بين الفكر النظرى والخبرة العملية ، وهو يتعرض ــ مثلا ــ لقضية المعلم الأولى فلا يقف عند حدود واجبات هذا المدرس وانما يعرض لحقوقه كذلك ويؤكد انه « لا يعرف شرا على الحياة العقلية فى مصر من أن يكون المعلم الأولى كما هو عندنا سيىء الحال ، منكسر النفس ، محدود الأمل ، شاعرا انه يمثل أهون الطبقات فى وزارة المعارف »

ان كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » وثيقة لحقيقة هذا الفكر فى التطبيق العملى ، وما أكثر ما فى هذا الكتاب مما أصبح حقائق حية فى حياتنا الثقافية والتعليمية ، لا بفضل فكر طه حسين فحسب ، بل بفضل قيامه عمليا كمستشار ثقافى لوزارة المعارف أو كوزير لها بتحقيق ما خططه من قبل بين صفحات هذا الكتاب

ولعل الحديث عن الحياة العملية للدكتور طه حسين ودلالتها على حقيقة ملامحه الفكرية تستحق دراسة خاصة لا تحتملها هذه الدراسة السريعة ، ولهذا حسبنا أن نختتمها بكلمة عن أسلوبه التعبيرى نفسه بعد أن قمنا بهذه الجولة السريعة فيما وراء هذا الأسلوب التعبيرى

ان أسلوبه التعبيرى نفسه كما ذكرنا من قبل يكاد يغلب عليه هذا الطابع العقلى والعملى معا ، رغم ما تتذوق فيه من عطور شعرية وموسيقية ..

وأكاد أقول ان التقطيع الموسيقى والنغم الشعرى فى هذا الأسلوب ، انما هو حركة عقلية ، ودعوة عملية ، تتخذ من هذا التقطيع وهذا التنغيم ايقاعا لحركتها ، ولو تأملنا هذا الايقـاع بعمق لوجـدناه تارة ايقاعا استدلاليا قياسيا وتارة أخرى ايقاعا استقرائيا ولوجدناه فى الحالتـين عملية استنباطية تتدرج لتشمل الظاهرة العلمية أو الأدبية أو التاريخية موضع الدراسة ، حتى تسيطر عليها من كل جهاتها ، وتنتهى بهـا الى الغاية العقلية والعملية التى تريدها لها ، بل وتريدها لك أنت كذلك أيها القارىء أو أيها المستمع

ان الايقاع فى أسلوب طه حسين يتنوع ويختلف باختلاف موضوعاته وهو فى جوهره ايقاع عقلى ، انه تعبير بالشعر والموسيقى عن هموم العقل العملى ، ان لغته كلغة الساحر القديم نغمتها جزء من محاولتـه السيطرة العملية على الطبيعة ، على الحقيقة ، على الانسان

ونكاد نحس بهذا الايقاع العقلى العملى كذلك فى توقيت صـدور مؤلفاته ، ان أغلب هـذه المؤلفات ، تصدر خلال واقع حى ، استجابة لحاجات عملية ، وصدى لملابسات اجتماعية وحضارية معينة ، انهـا لا تصدر عن تأمل خالص ، أو فراغ ، وانما تصدر لتقوم بمهمة فكرية وعلمية واجتماعية ، تستلزمها حركة الحياة ، ويعيها فكره العلمى والعملى المسئول ..

ان مجموعة كتبه التى صدرت بعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص انما هى نموذج رائع للمشاركة الفعالة فى التعبير عن الحياة الاجتماعية بل وصياغتها كذلك ، بل ان الفتنة الكبرى فى تقديرى ، وخاصة الجزء الأول ــ رغم طابعه التاريخى الخالص ــ يكاد يعبر عن أصداء اجتماعية للسنوات التى كتب وصدر فيها

وهكذا نستطيع أن نؤرخ لكثير من كتبه بأحداث حياتنا الاجتماعية والفكرية ..

وهكذا فى كل ما نعرض له من جوانب فى حياة طه حسين نجد هـذا

الفكر العملى ، لا يقوم فصام بينه وبين الواقع ، وانما ملاءمة وفعل وتفاعل ، فان قامت عقبة فهى عقبة طريق ، عقبة أوضاع ، تنفجر من حولها معارك الفكر ، ومعارك السياسة ، ومعارك الثقافة عامة ..

وتاريخ طه حسين زاخر بهذه المعارك جميعا ، ذلك لأنه كان يضع دائما تفكيره موضع التنفيذ ، ويجعل من عقله وسيلة لتغيير الحياة من حوله ..

ولعلنا لا نجد فى كتابات الدكتور طه حسين فيلسوفا بالمعنى التقليدى لكلمة الفيلسوف ، ولكنا قد نجد فيها الفيلسوف بالمعنى الذى حدده هو نفسه لهذه الكلمة عندما كان يعرض لفلسفة أبى العلاء المعرى ، فالفيلسوف عنده هو الذى يجمع الحكمة علما وعملا ، وتكون حياته موافقة لنتائج بحثه

***

وبهذا المعنى نعتبر الدكتور طه حسين فيلسوفا ، فان حياته هى فكره ، وفكره كان حياته دائما ، وكانت حياته وكان فكره ، حياة وفكرا للثقافة العربية لأكثر من نصف قرن ، وستظل هذه الحياة وهذا الفكر منارة ملهمة وهادية لنا ولأجيال عديدة من بعدنا

المنهج الفكرى عند طه حسين

كامل زهيرى

اجتمعت فى شخصية طه حسين صورة عصره ، بل وأخص ما فى هذا العصر من العناء والجهاد ، ولسنا نجد فيمن سبقوه أو لحقوه بسنوات طويلة من تجمعت فيه الفوارق والنقائض ، ثم اجتمع له هذا الجهاد الطويل ، وذلك السعى الحثيث الموصول ليتعدى تلك العقبات جميعا . ولم يجتمع لكاتب أو أديب أو مفكر فى عصرنا الحديث مثل حياة طه حسين الأزهرية القحة ، ومثل هذه البيئة الريفية المحافظة المضطربة ، ومثل هـذه الخلطـة مع البسطاء والفقراء والباعة المتجولين وطلبة العلم والمجاورين وصغار التجار وأصحاب الدكاكين ، ومثل هذه المعرفة الذواقة ــ بعد ذلك ــ لأدب اليونان والرومان والأدب الفرنسى والفكر الأوربى ..

فاذا كان طه حسين قد كسب لقراء العربية أفكارا ، وابتدع فنا ، وصاغ أدبا ، وكشف منهجا وطريقة تحليل ، فان ما كسبه قد كسبه عن جدارة ، كما يكسب الفقراء ــ المخلصون ــ قوت يومهم بالكاد الضيق والجهاد الأكيد ..

فلقد عانى طه حسين كثيرا من الجهد الخفى مع نفسه ، وكثيرا من الجهاد الظاهر على الآخرين ، وارتطم ارتطاما جريئا وشديدا مع شيوخ

الأزهر ، وكانت حياته الخاصة جهادا ، والعامة نضالا ، ولم ينخرط فى هذه المعارك بقصد النشوز والشذوذ ، أو مدفوعا بعقدة نقص

وطه حسين لذلك فريد بين كتاب عصره ، لأنه جمع النقائض ، التى تمر بالأمة نفسها ، ولأنه عايشها ، وذاق وعانى من الدراسة التقليدية الضيقة فى الكتّاب وصحن الأزهر ، كما تلمس الجو « غير العقلى » فى القرية بأعلى الصعيد ، وفى أزقة القاهرة ، ثم تقلبت حياته ، فتذوق ما يسمى بالمنهج الفكرى ، وتذوق رفاهية الذوق المصقول ، وعاش بين كفر الطماعين والسوربون ، فاذا به وهو الحريص على ألا تضل خطاه ، لا يضل ولا يتعثر ، لأنه أمسك بزمام عقله فى كل هذه الرحلة الشاقة التى تصور رحلة الأمة نفسها

بل ونستطيع أن ندعى أن طه حسين هو أصدق صورة لهذا العصر . ما بين الحربين ، لأنه أخذ من كل نقائض هذا العصر بطرف ، وهو عصر ارتطمت فيه تيارات فكرية ، ووجدانية عارمة ، وكانت مصر تبحث فيه عن كيانها وكانت تلوح أمامها مسالك عدة وطرق متفرقة . وكان طبيعيا ، وحتميا ، والأمة تولد ، وتنقب عن أصلها ، وفى جذور تاريخها الطويل المتراكم ، أن تدور المناقشات ، المخلصة والمتوجسة والحامية الوطيس . حول الشرق والغرب ، والقبعة والطربوش ، والقومية المصرية والقومية العربية ، وفكرة الأمة فى نظرالدين وفى نظرالقومية ، والفصحى والعامية ، وقدر الحضارة العربية بالنسبة لحضارات الانسانية ، وعلاقة هـذه الحضارة بأوربا وحوض البحر الابيض وبتراث الاغريق والرومان ، وطرق التعليم ، ووسائل الحكم ، ودور الأزهر ، ومهمة الجامعة المصرية ، وأثر التربية الدينية ومهمة التعليم الزمنى أو المدنى وغير ذلك

وقد كابد طه حسين كل ذلك بنفسه ، وجرب هذه المسالك المتعددة ، ومن هنا كان عناؤه « تجريبيا » لم يتوفر لكثير من معاصريه على هـذه الصورة التى تجمع بين الأزهر والسوربون ، والجبة والطربوش

فلم يستقر طه حسين على نظرية معدة ، أو نظرة جاهزة ، كفته مئونة

البحث ، وزودته بالاطمئنان الكسول ، انما عانى بنفسه مهمة البحث عن كل ما يعتقد انه الصواب

ولهذا فأحب صفات طه حسين الى قرائه هى الصدق

وكثيرا ما حاولت أن أتلمس شخصية طه حسين فى كتاباته ذاتها بعيدا عما قد يحاط به من تقديس أو نكران ، فاذا بى أجد « ذات » نفسه فيما يكتب . ولهذا فان طه حسين من أكثر كتابنا حديثا عن نفسه وهواجسه ، على الرغم من انه يبدأ فى رسالة الدكتوراه التى قدمها للسوربون عن ابن خلدون ، فيعيب عليه هذا الحديث .. وان كان يعتبره من أوائل الذين كتبوا السيرة الذاتية بين كتاب العربية !

وتستطيع أن تتحقق بنفسك من أن طه حسين كان يأخذ نفسه ــ قبل الآخرين ــ بكثير من القسوة الصارمة الجادة

***

ودعنا نقف عند هذه الفقرة ، فى كتابه الأيام ، والتى يصف فيها صباه ، حين يطلب منه أبوه أن يقرأ بعض سور القرآن ، فلا يستطيع ، ويعجز حتى عن أن يقرأ سورة يس ، وهى سورة لا يعجز عنها المبتدئون وأنصاف الأذكياء ، فاذا بالفتى يجف ريقه ، ولا يستطيع أن ينطق بكلمة ، فيستكثر على نفسه مثل هذا العجز والفشل أمام أبيه ، ويأباه ، فينفلت الى غرفة مجاورة ، أتخيلها مع طه حسين ، حين يقول :

ومضى صاحبنا حتى وصل الى الكرار وانعطف الى الزاوية التى فيها القرمة ، وأهوى الى الساطور ، وهو أغلظ ما كان عليها ، وأثقله ، فأخذه بيمناه ، وأهوى به الى قفاه ضربا !.. ثم صاح ، وسقط الساطور من يديه ، وأسرعت أمه اليه ، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مر بها ، فاذا هو واقف يضطرب ، والدم يسيل من قفاه ، والساطور ملقى الى جانبه »

وليست هذه الحادثة بالبسيطة التى لا تدل على شىء

فاذا كان الفتى صغيرا ، هزيل الساقين لم يعترف به أحد ، ولم يكشف

بعد قدرته الفكرية ، أو تفوقه الذهنى ، لايزال متخبطا بين ضـعفه ونكران أهله ، فان الحادث يكشف انه كان جبار الكبرياء

وهو فوق كبريائه الشديد ، لا تأخذه بنفسه رحمة ، حين يعجز أو يفشل . ولقد خاصم طه حسين نفسه ، قبل أن يختصم الآخرين

ولعل هذه الخصومة كانت معركته الأولى ، وهو لا يزال صبيا

***

فاذا انتقل الفتى الى القاهرة ، والتحق بالأزهر ، وعاد الى قريته ، بعد عام واحد ، عاد بنفس جياشة بالكبرياء ، متسلحة بالنقد ، عازفة عن الاستسلام أيا كان الاستسلام . واذا به يصطدم مرة ومرات مع شيخ القرية الذى يحدث أهلها وأهله عن التقرب الى الله بالأولياء ، فلا يستطيع الفتى أن يكتم فى نفسه حرجا ، أو يخفى نقدا ، واذا به يكاشف من هو أكبر سنا وقدرا برأيه الصريح واستنكاره الساخر .. ويقول طه حسين هنا :

« بل وصل شذوذ الصبى الى المحكمة الشرعية ، فسمعه القاضى ، وسمعة خاصة ذلك الشيخ الذى كان يكتب للقاضى ، ويرى أنه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين ، وأحق منه بالقضاء ، لولا أنه لم يظفر بهذه الورقة التى تسمى درجة العالمية ، والتى تشترط لتولى منصب القضاء ، والتى تنال بالجد والاجتهاد قليـلا ، وبالحظ والتملق فى أكثر الأحيان ..

« تسامع هؤلاء الناس جميعا بمقالات هذا الصبى ، وانكاره لكثير مما يعرفون واسـتهزائه بكرامات الأوليـاء ، وتحريمه التوسل بهم وبالأنبياء ، وقال بعضهم لبعض : ان هذا الصبى ضال مضل ، قد ذهب الى القاهرة ، فسمع مقالات الشيخ محمد عبده الضارة وآراءه الفاسدة المفسدة ، ثم عاد بها الى القرية ليضلل الناس » ..

« .. وعلى كل حال فقد انتقم الصبى لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه والتفكير فيه ، وتغير مكانه

فى الأسرة ، مكانه المعنوى ان صح هذا التعبير ، فلم يهمله أبوه ، ولم تعرض عنه أمه واخوته ولم تقم الصلة بينهم وبينه على الرحمة والاشفاق ، بل على شىء أكثر عند الصبى من الرحمة والاشفاق »

واذا كان طه حسين قد أرجع هذا « الشذوذ » فى صباه الى الرغبة فى اثبات وجوده ، والرغبة فى الخروج من العزلة المفروضة عليه ، حتى لا يعامله أهله وصحبه على انه صاحب عاهة يشفقون عليه ، بل على انه صاحب عقل ورأى يسمعون اليه ، فان طه حسين لم يشذ رغبة فى الشذوذ والجنوح ، انما اكتشف انه يتفوق بالحجة والعقل — والسخرية أحيانا — فأخذ نفسه بكثير من الجد الصارم ، وأشعل حاسته الناقدة فى كل ما يسمع ، وكل ما يصل اليه من رأى ، أيا كان هذا الرأى ، وأيا كان مصدره ..

وها هو طه حسين ينقلنا الى « معاركه » فى داخل الأزهر ، حين يذهب الى أساتذته ليسمع منهم ، ويكتشف خطأ ما فيصطدم بهؤلاء الأساتذة ، فيضيقون بهذا النفور منه أشد الضيق وينتهى الفتى الى الحزن والغيظ ، ثم سوء الظن بالطلاب والشيوخ معا

ولا تخلو هذه المعارك من صدام أليم ، يرسب ألوانا من الضيق الشديد لاستهانة هؤلاء الشيوخ بهذا الفتى اليقظ ، « وفى ذات يوم جادل الشيخ فى بعض ما كان يقول : فلما طال الجدال غضب الشيخ وقال للفتى فى حدة ساخرة : « اسكت يا أعمى ما أنت وذاك ! »

فغضب الفتى وأجاب الشيخ فى حدة :

« ان طول اللسان لم يثبت قط حقا ، ولم يمح باطلا »

فوجم الشيخ ووجم الطلاب لحظة ، ثم قال الشيخ لطلابه : انصرفوا اليوم ، فهذا يكفى ..

« وامتلأت نفس الفتى حزنا وغيظا ، وساء ظنه بالطلاب كما ساء ظنه بالشيوخ »

ويتنقل طه حسين بضمير يقظ ، وحافظة واعية ، وحاسة نقد لاهبة ، لا يترك أستاذا الا ويدرس لفظه ومعلوماته ويكتنه شخصيته من طبقة صوته وترتيب فكره وطريقة عرضه وسعة صدره أو ضيقه بالرأى ، وهو يضفى فى كل ذلك بالفكاهة الساخرة ، أو الحزن الشديد ، ثم الضيق واذا بكل هذا ينقلب الى انفراط ثقته فى « الرأى العام » عند الطلبة والمجاورين فيقول انه صدم من موقف الأزهريين من طلبة الامام محمد عبده ، ومريديه ، والمتظاهرين بالحماسة له ، حين اصطدم الأستاذ الامام بالخديو ، وترك الأزهر ، وذهب الى دار الافتاء ، ثم مات بعد ذلك بقليل ، فانصدم ضمير هذا الفتى لما رآه « من ان مصر قد اضطربت لوفاة الامام ، وان البيئة الأزهرية كانت أقل البيئات المصرية اضطرابا لهذا الحادث الجلل . وأسف تلاميذ الشيخ ، ولعل قليلا منهم سفحوا بعض الدموع ، ولكنهم أقبلوا بعد الصيف على دروسهم ، كأن الشيخ لم يمت ، أو كأن الشيخ لم يكن ، لولا ان الخاصة من تلاميذه كانوا يذكرونه بالخير بين حين وحين »

وكذلك عرف الفتى فى ألم لاذع ، ولأول مرة فى حياته الناشئة ان ما يقدم الى عظماء الرجال من ألوان الاكبار والاجلال وضروب التملق والزلفى لا طائل تحته ولا غناء فيه ، وان وفاء الناس ينحل فى أكثر الأحيان الى كلام لا يفيد

وزاد سوء الظن بالناس فى نفس الفتى ثورة ما لاحظه فى بعض البيئات من انتهاز وفاة الشيخ فرصة للاتجار باسمه ، واستغلال الصلة به ، يتوسلون الى ذلك بالشعر حينا ، وبالنثر حينا آخر ، وبالاعلان فى الصحف والمجلات دائما

ولكن الفتى أحس شيئا آخر ، زاد به انحرافا عن الأزهر وانصرافا عن شيوخه وطلابه . أحس أن الذين بكوا الشيخ صادقين وحزنوا عليه مخلصين لم يكونوا من أصحاب العمائم ، وانما كانوا من أصحاب الطرابيش ، فوجد فى نفسه ميلا الى أن يقربهم »

وبدأت صلة طه حسين بلطفى السيد مدير « الجريدة » ، وصاحب دعوة العقلانية ، واذاعة المنطق الارسططالى ، فاذا ما تفوق طه حسين فى الجامعة المصرية ، وهو لا يزال يلبس ثيابه الأزهرية ، فهو يعمد الى درس الفرنسية ويتفوق فى دراستها ، ثم يكتب رسالة عن أبى العلاء المعرى ــ سجين المحبسين ــ ويهديه تفتحه العقلى الى أن يمتحن فى علمين هما « الجغرافية عند العرب » و « الروح الدينية للخوارج »

وعندى ان هذا الاختيار بين الجغرافية من ابن ماجد الى المقرى ودراسة الخوارج لم يكن ضربة بغير هدف ، انما كان يعبر عن يقظة هذا العقل الجديد الى مكامن القوة ومكامن الثورة فى الفكر الاسلامى العربى ..

فاذا كانت دراسة المعرى تشبع وجدان وعقل طه حسين ، فان تتبع الجغرافية والخوارج تنبىء منذ البداية عن اختيار ناقد ، وانتقاء فاحص ، ومعنى ذلك أن طه حسين كان يشبع فى دراساته وحياته العقلية ما يحسه من مضض وشكوك

فليس عندى من قبيل الصدفة أن يدور طه حسين فى فلك ثلاثة من المفكرين ، عايشهم طويلا ، وطبعوه طوال حياته الفكرية ، حتى انك تستطيع أن تكتشف هذه الرابطة « الوجدانية » بين الدارس وما يدرسه

وهؤلاء الثلاثه ، من عمالقة الفكر بلا شك وسيظلون زمنا طويلا من العمالقة ، وهم :

أبو العلاء المعرى ، شبيه طه حسين ، حتى فى رحلته الى بغداد

وابن خلدون ، صاحب المقدمة ، والذى قدم طه حسين أطروحته لنيل الدكتوراه فيه ..

وديكارت ، الفيلسوف الفرنسى ..

ولقد قيل الكثير فى علاقة طه حسين بأبى العلاء ، كما ان طه حسين نفسه ألح الحاحا شديدا على قرائه بدراساته العميقة عن أبى العلاء . ولكن علاقة طه بابن خلدون ، وبديكارت ، كثيرا ما يغفلها دارسو فكره

وأدبه ، على الرغم من أن طه حسين كان قد أعلن ذات يوم أنه يزمع التأليف عن ديكارت ، وانه جمع آراء عديدة ، وتعمق فى دراسته تعمقا خالصا ..

ولكن طه حسين لم يطلع علينا بكتاب عن ديكارت ، ولم يكتب عنه كما كتب عن ابن خلدون ، وكما أفاض فى الكتابة عن أبى العلاء

***

وقد استطاع طه حسين فى فرنسا ، أن يتشبع بأفكار ديكارت ، وأن يعجب بمنهجه الفكرى ، ونستطيع أن نقول ـ بلا حرج ـ ان منهج طه حسين هو المنهج الديكارتى على وجه اليقين ، كما نستطيع أن نزعم أن المنهج الديكارتى شائع وذائع فى فرنسا ، حتى لتجد تعاليمه على ألسنة كثيرة ، وقد بلغ من الذيوع ان كثيرين يطبقونه

فهذا الفيلسوف صاحب « قواعد هداية الذهن » وهى رسالة عارض فيها المنطق الجديد المعارض للمنطق الارسططالى .. ولعل مقاله فى المنهج هو سر خلوده وبقائه ، وقد اتضح أن ذلك الاختلاف ناشىء من أن الفلاسفة ورجال اللاهوت يتخبطون فى بحوثهم ، ويسيرون فيها على غير هدى ، دون أن تكون لهم خطة مرسومة ، أو منهج محدد

وديكارت هو صاحب القول المشهور : « أنا أفكر فأنا موجود »

ويرى ديكارت ان أول ما يلزم للمعرفة وللانسان الواعى ، هو الشعور بضرورة المنهج ، ثم ايجاده ، وتطبيقه فى مجالى النظر والعمل جميعا .

ولكن ما هو المنهج على حد قول ديكارت ؟

« انه قواعد مؤكدة تعصم ذهن الباحث من الوقوع فى الخطأ ، وتمكنه من بلوغ اليقين فى جميع ما يستطيع معرفته ، دون أن يستنفد قواه فى جهود ضائعة »

وديكارت هو صاحب هذا الهجوم الشرس العنيف على الآراء الظنية والاحتمالات . فالجهل خير عنده من المعرفة المزعزعة الناقصة . ولا يكون العلم الا اذا كان يقينيا ، ونموذج ذلك اليقين هو المعرفة الرياضية

ولكن كيف لنا باليقين ؟ ولعل طه حسين كان يسأل نفسه ذات السؤال منذ تفتحت أذناه على الرأى ، وقلب الآراء فى عقله ، وألح عليه السؤال حين التقى بديكارت ، وحين وجده ذائعا كل الذيوع فى السوربون والكوليج دى فرانس !

ويقول ديكارت اننا لا بد أن نذهب دائما من « المعانى » الى « الاشياء » أى ألا ننسب الى الأشياء الا ما ندركه ادراكا بديهيا فى معانى تلك الأشياء ، وأن نرتب جميع أفكارنا فى نسق خاص، بحيث يكون كل معنى منها مسبوقا بكل المعانى التى يستند اليها ، وسابقا لجميع المعانى التى تستند اليه

فاذا كان اليقين هو ما يطلب المفكر فلا بد له من الشك

ولا بد من الشك من كل ما تعلمه من قبل ، ولا بد من المضى فى هذا الشك الى أبعد الحدود ، ولابد من أن تبدأ النظر كله من جديد ، ولابد اذا من تعليق آرائنا وأحكامنا ، حتى تتبين الحقيقة

وقد استطاع ديكارت بمنهجه أن يثبت وجود « الكوجيتو » ، لأن الانسان الذى يشك لا بد أن يفكر ، والشك هو دليل الفكر ، كما أن الفكر هو دليل الوجود .. فليس الشك هو ما يشتهر عند البعض من اللاأدرية ، أو تعليق الحكم ، ولكنه منهج منطقى للوصول الى اليقين المراد ..

واذا كان طه حسين قد درس على بوجليه ، ودوركهايم ، ولانسون ، وليفى برول ، ودعانجون ، وجالوا ، وكازانوفا ، وبيير جانيه ، وقد جمع بين دراسة التاريخ اليونانى وتاريخ الرومان ، والفلسفة والاجتماع ، واللاتينى ، وعلم الثورة ، والبيزنطى ، والتاريخ الحديث ، والجغرافيا فلقد درس ديكارت بالذات على الأستاذ ليفى برول ، كما انه استوعب هذا المنهج ، ووجد فيه شفاء نفسه وشفاء ظنونه ..

وهنا نلاحظ ان طه حسين قد أخذ من كل شىء بطرف ، اذ لم يغلق على نفسه فى قرن من الزمان، أو عصر من العصور، وانما امتدت دراسته

من اليونانى الى الرومانى الى البيزنطى الى الثورة والتاريخ الحديث ثم الى المنهج العقلى السائد فى ذلك الحين ، بل ان أخطر ذلك كله أن موضوع اطروحته كانت عن ابن خلدون ، هذا المفكر العبقرى والعقلانى أيضا ..

وطه حسين فى رسالته عن ابن خلدون لا يتحمس له لأنه عربى ، فيكبو به الحماس المفرط ، ولكنه يحاول أن يقيمه وينقده نقدا « علميا » ، ديكارتيا منصفا . فهو يرد على بعض المتحمسين من المستشرقين الذين يرون فى ابن خلدون أبا لعلم الاجتماع ، وأبا لفلسفة التاريخ ، وهذا حق فى كثير من الأحيان ، ولكنك تلمح « انضباط » طه حسين فى تقييمه لابن خلدون ..

وقد لمست بنفسى قدر ما يلقاه ابن خلدون من تكريم فى فرنسا ، ومجامعها العلمية ، فهذا جورج دانى عميد كلية الآداب فى السوربون « عام ١٩٤٩ » ، كان قد قدم رسالة الدكتوراه التى بدأ بها حياته العلمية عن ابن خلدون بالذات . وهذا روجيه جارودى ، فيلسوف يسارى نال الدكتوراه من جامعة موسكو عن « الحرية » ، يعقد أيضا فصولا ودراسات عن ابن خلدون ، بل ويشتط فى الحماس له حتى يجعله أسبق من مونتيسكيو ومن كثير من فلاسفة أوربا ومفكريها . فاذا كان طه حسين قد قدم رسالته عام ١٩١٧ فى فكر ومنهج هذا الرجل ، فلقد سبق الكثيرين الى الاهتمام بالجانب « العقلى » فى التفكير العربى

بل ان طه حسين يزن كل كلمة — وهو فى صدر الشباب — فلا يندفع متحمسا لابن خلدون ، بل ينصفه ولا يغدق عليه الأوصاف ، ولا يعتسف معه الاعجاب ..

فاذا قرأت بعض صفحات هذه الرسالة القيمة ، وجدت فيها ما يقودك الى « منهج » طه حسين نفسه ، وهو المنهج العقلى بالذات

فاذا بطه حسين يبين ان ابن خلدون يأخذ على المؤرخين الذين سبقوه أخطاء نفسية شائعة وخطيرة . ومنها تشيع المؤلفين « أى أن يضطر

الشيعى ليشحن تاريخ الأمويين بأشنع الفضائح ، وأن يندفع مؤلف آخر الى أن يخلق الأقوياء ، وكذلك أن يبالغ من يروى تاريخ ملك ما فى أهمية كل ما يرد مؤيدا لسيده ، ويلزم الصمت عمدا ازاء كل ما يشين مجده ، وأول شرط يجب على المؤرخ مراعاته هو عدم التشيع ..

وانظر الى وجه الشبه بين هذا المنهج وبين المنهج الديكارتى ..

ويستطرد طه حسين فى دراسته عن ابن خلدون ، فيقول ان سبب أخطاء المؤرخين هو أن يصدقوا ما يرويه الناقلون دون فحص . « وأنجح وسيلة لاجتناب هذا النوع من الخطأ هى أن تستخدم للتمحيص مع كثير من العناية والتأمل طريقة يعرفها المسلمون جيدا هى طريقة التجريح والتعديل Improbatis et justicati O وطريقة التجريح والتعديل إبتدعها رواة السنة النبوية ومؤداها البحث الدقيق الذى يجب اجراؤه للتحقق من أمانة المحدث وصدقه ، وكلما أريد التحقق من صحة حديث روجعت تلك المعلومات الخاصة بمن رواه من المحدثين وقد انتهى الأمر بأن جعل من تلك المعلومات شبه معجمات يستطيع مراجعتها كل عالم فيستخرج منها بعض القواعد التى تساعد فى تقدير قيمة كل حديث . ومؤلف هذه القواعد علما يعرف « بمصطلح الحديث » ..

ويقول طه حسين : ويجب تطبيق هذه الطريقة على الوقائع التاريخية التى تأتى بها الرواية . فاذا كان الراوية أمينا صادقا ... سليم الذهن أمكن تصديق ما يرويه ... الخ ..

ومن أجمل الصفحات وأروعها فى هذه الرسالة حديث طه حسين عن أسباب الخطأ كما يراها ابن خلدون ، وهى كثيرة ، لكنها تدلك على ان ابن خلدون قد اقترح منهجا عقليا فى مقدمته ، ومن هنا اكتشف أن المجتمعات تختلف وتتشابه ، وان المؤرخ لابد أن يلم بطبائع المجتمع ، وأن ينقد « شاكا » و « معلقا » كل ما يصل اليه من رواية المؤرخين

وعلى ذلك نستطيع أن نقول ان ابن خلدون كان ديكارتيا فى منهجه التاريخى ... وان طه حسين قد عاش مع عقلين جبارين ، فى فرنسا ،

واحـد من العرب الذين تفوقوا فى القرن الرابع عشر ، وآخـر من الفرنسيين تفوق فى القرن السادس عشر ، وقد ظلا معا علمين من أعلام الفكر الانسانى ، وسيظلان كذلك الى أبد الآبدين ..

فليس من قبيل الصدفة المحضة أن يعايش طه حسين هـذين العقلين بالذات ، وأن يدرسهما دراسـة مستـأنية ، وأن يعكف على آثارهما المتعددة المنوعة ، لأننا نجد طه حسين ، حين يعود الى مصر انما ينادى فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أثار أزمة وتخوفا ، واستثـار كتابا كثيرين ، فيقول طه حسين انه يدعو مخلصا الى أن نأخذ بمناهج البحث العلمى الحديث فى دراسة الأدب العربى ..

وهو يقول فى وضوح فى كتابه « الشعر الجاهلى » الذى أصـبح فى الأدب الجاهلى ـ بعد الحذف والاضافة ـ :

« أريد أن أريح الناس من هذا اللون من التعب ، وأن أريح نفسى من الرد والدفع والمناقشة فيما لا يحتاج الى مناقشة . أريد أن أقول انى سأسلك فى هذا الجو من البحث مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة . أريد أن أصطنع هـذا المنهج الفلسفى الذى استحدثه « ديكارت » للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث ، والنـاس جميعـا يعلمون ان القـاعدة الأساسية لهذا المنهج هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن عما قيل فيه خلوا تاما

« والناس جميعاً يعلمون ان هـذا المنهج الذى سخط عليه أنصـار القديم فى الدين والفلسـفة يوم ظهر ، قد كان من أخصب المنـاهج وأقواها وأحسنها أثرا ، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديدا ، وأنه قد غير مذاهب الأدباء فى أدبهم ، والفنانين فى فنونهم ، وانه هو الطابع الذى يميز هذا العصر الحديث ..

ثم يقول : « نعم .. يجب حين نستقبل البحث على الأدب العربى وتاريخه أن ننسى عواطفنا القومية وكل مشخصاتها ، وأن ننسى عواطفنا

الدينية وكل ما يتصل بها ، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية ، يجب ألا نتقيد بشيء ولا نذعن لشيء الا منــاهج البحث العلمى الصحيح . ذلك انا اذا لم ننس هذه العواطف وما يتصل بها فسنضطر الى المحاباة وارضاء العواطف ، وسنغل عقولنــا بما يلائمها وهل فعل القدماء غير هذا ؟.. وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟.. كان القدماء عربا يتعصبون للعرب أو كانوا عجما يتعصبون على العرب ، فلم يبرأ علمهم من الفساد ، لأن المتعصــبين للعرب غلوا فى تمجيدهم واكبارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم ، ولأن المتعصبين على العرب غلوا فى تحقيرهم واصغارهم فأسرفوا على أنفسهم وعلى العلم أيضا »

ولست أجد فارقا كبيرا بين ما قاله طه حسين فى رسالته « ١٩١٧ » عن منهج ابن خلدون ، اعزازا واكبارا ، وبين ما عاد يقوله فى مصر عندما ألّف كتابه « فى الشعر الجاهلى » ــ ١٩٢٦ ــ الذى أصبح « فى الأدب الجاهلى » سنة ١٩٢٧ ..

وأستطيع أن أزعم ان ما عاد به طه حسين من فرنسا لم يكن حبــا جامحا لفرنسا ، أو لدعوة التعذيب كما قال خصومه ، بل عاد طه حسين وقد ثبت يقينه على المنهج الديكارتى ، أو المنهج العقلى ، الذى لايختلف كثيرا عن منهج ابن خلدون المؤرخ العربى العبقرى

ومن هنا ، فان هذا الادعاء الذى سار شوطا طويلا وذاع بين خصوم طه حسين من أنه كان داعية للتغريب أى الى ثقافة الغرب ، انما نأخذه بكثير من الحذر ، لأنه لو كان كذلك ، لأفرط فى الحماس لكل ما هو غربى ، انما نرى أن طه حسين قد انتقى من الغرب ومن أوربا بالذات ، خلاصة عصر النهضــة البورجوازية المســتنيرة ، وهى التى تدعى ربط جذورها بالثقافة الاغريقية الانسانية ، وهى تقلل من الاهتمام بالرومان مثلا ، وبقيود القانون والدولة ، وتهتم أشد الاهتمام بالفكر الاغريقى وأساطيره ومسرحه ، على أساس انها مهمومة بالانسان والانســانية ، وهى دعوة تطرب لها آذان البورجوازية ، أو النهضة الجديدة فى أوربا

فاذا كان طه حسين قد دعا الى تعليم اليونانيــة أو اللاتينية ، وفعل ذلك بنفسه ، ودعا الى نقل الفكر اليونانى والمسرح الاغريقى وفعــل ذلك على قدر ما وسعه الوقت والجهد فان طه حسين لم ينقل كل ما هو غربى وانما انتقى خلاصة أوربا ، وخلاصتها ان شئت أن تقول هى فى هذا المنهج الديكارتى ، وفى هذا التراث الرائع الذى تركه الاغريق خالدا خلود الانسان ..

ونحن ندعى لذلك ان من يتهم طه حسين بدعوة التغريب ، انما ينظر الى طه حســين من الخارج ، فهو يتوجس كثــيرا من الشر ، والظن الأثيم ، حين يقرأ هذا الكاتب القادم من أوربا ينعى على الجو الثقافى فى مصر هذا المنهج أو هــذا الفراغ الذى يملأ بالكلمات دون فكر ، وبالسجع دون ذوق ، وبالمقامات الرتيبة دون فن ، وبالطرب دون تكوين وتنسيق ... وهو يروى ويألم لما يرى من أن مصر قد فسد ذوقها ، حتى غاب عنها هذا البحر الزاخر من تراث الاغريق ونهضة أوربا .. بل وغاب عنها هذا المنهج العقلى بالذات ، وهو ليس غريبا على عقول العرب كما رأينا فى ابن خلدون ولكن بعض ما وصــل اليه طه حسين فى دراسته « المنهجية ! » « المثيرة ! » فى الأدب الجاهلى أثار عليه حنق شيوخ الأدب ، فاستنفروا عليه السلطات ، وأقاموا عليه ضجة عظيمة ، انتهت الى النيابة « العمومية » ! ..

ومهما يقل التاريخ فى هذه المعركة ، فلقد كانت مولدا لمنهج جديد يطبقه طه حسين على الأدب العربى ، ويستمســك به ، فكانت ثمرته مؤلفات عديدة فى الأدب وتاريخه ، استطاع طه حسين ــ وهــذا ما يميزه ــ أن يزودها بالقديم فينقذه ويصفيه على نار هادئة من النقــد العــلمى الحديث . فاذا بالمعرى والمتنبى وبشــار والقدامى والمحدثين يقدمهم طه حسين فى أسلوب شف من شدة بساطته . ومن كثرة تعرض الفكرة للتحليل والتقليب والتجريح والهضم ، فاستطاع هذا الأزهرى أن يكسب للشعر العربى والأدب العربى القديم هذا العدد الذى لا ينقص ،

بل يزيد ، من القراء الشغوفين والمعجبين ..

وإذا كان طه حسين قد كسب لنفسه ، ولقرائه ، هـذا المنهج العقلى الديكارتى ، الذى لا يصطدم مع عقلانية نوابغ العرب فى كل شىء ، فانه قد جد فى دراسة الفكر والتاريخ ، فاذا به يطلع علينا بمنهج أحدث ما تكون الحداثة ، وأجد ما تكون الجدة ، هو هذا المنهج «الاجتماعى» فى تحليل الشخصيات الفكرية والأدبية . ونجده فى كتاب «قادة الفكر» عام ١٩٢٥ الذى نقل فيه فصولا عن أرسطو ، وسقراط ، والاسكندر ، وغيرهم من نوابغ اليونان ، قد كشف عن منهج فى التحليـل ، غاية فى العصرية والحداثة . وهو يبدأ هذا الكتاب بقوله :

« .. على انى لا أريد أبدأ البحث قبـل أن أقدم بين يديه تنبيها للقراء أرى أن ليس منه بد . لقد تعود الناس فى الشرق عامة ، وفى مصر خاصة أن يفهموا من مثل هذا العنوان « قادة الفكر » الذى قدمته ان عناية الكاتب والباحث ستتناول الأشـخاص وتقصر عليهم ، فلفظ « قادة الفكر » اذا سمعه القـارىء المصرى أو الشرقى فهم منه لأول وهلة طائفة من الأشخاص لهم أثر يختلف قوة وضعفا فى تكوين الحياة الفكرية العامة فى جيل من الأجيال أو فى بلد من البلاد ، ثم اتصل ذهنه بهؤلاء الأشخاص ، وانتظر من الـكاتب أن يقص عليه تراجم هؤلاء الأشخاص . وهذا النوع من البحث مألوف شائع فى الشرق والغرب . يحبه الناس ويكلفون به منذكتب الكاتب اليونانيالمعروف «بلوتارخوس» كتابه المشهور الذى ترجم فيه لعظماء الرجال من اليونان .. ولكنى مع ذلك سأعدل عنه وسأكون شديد الاقتصاد فى ذكر الحوادث والأخبار والتواريخ التى تتصل بحياة الأشخاص الذين سـأعرض لهم فى هـذه الفصول ، لا لأنى أهمل هؤلاء الأشخاص اهمالا ، أو أنسى تأثيرهم العظيم فى البيئة التى نشأوا فيها ، بل لأن لى رأيا أظن انه هو الرأى المقرر الآن عند الذين يعنون بتاريخ الآداب والآراء وهو ان هذه الآداب والآراء على اختلافها وتباين فنونها ومنازعها ظواهر اجتماعية أكثر منها

ظواهر فردية ، أى انها أثر من آثار الجماعة ، والبيئة ، أكثر من أن تكون أثرا من آثار الفرد الذى رآها وأذاعها ..

« واذا كان الأمر كذلك فليس من الحق فى شىء أن تنسى الجماعة التى هى المؤثر الأول فى ظهور الآداب والآراء الفلسفية ، وتقصر عنايتك على الفرد الذى كان مظهرا لهذه الآداب أو لهذه الآراء ..

« ... الفرد اذن ظاهرة اجتماعية ، واذن فليس من البحث القيم العلمى فى شىء أن تجعل الفرد كل شىء وتمحو الجماعة التى أنشأته وكونته محوا ، انما السبيل أن تقدر الجماعة ، وأن تقدر الفرد ، وأن تجتهد ما استطعت فى تحديد الصلة بينهما وفى تعيين ما تطلبهما من أثر فى الآداب والآراء الفلسفية والنظم الاجتماعية والسياسية المختلفة » ..

فانظر الى هذا « المنهج الاجتماعى » الذى صارحنا به طه حسين منذ عام ١٩٢٥ ، وكيف أخذ يطبقه على كتابه « قادة الفكر » ثم أخذ يطبقه على الأدب العربى ، ثم على دراساته فى عباقرة الأدب العربى ، ثم فى دراساته عن تاريخ الاسلام ، كما يظهر واضحا عظيم الوضوح فى كتاب « الفتنة الكبرى » بالذات ..

ولسنا نعتسف الحكم اذا قلنا ان طه حسين صاحب منهج ومدرسة فكرية نجد أصداءها عند كتاب العربية ، بل نجد أصداءها الآن فى فرنسا ، تتجدد على يد من يسمون أنفسهم بأصحاب المدرسة الاجتماعية ، فى كتابة التاريخ ، وأشهرهم : لوسيان فيفر الذى تخصص فى تاريخ عصر النهضة الأوربية ، ومارك بلوك الذى تخصص فى تاريخ العصور الوسطى ، ومازال لهما شأن كبير ، وسطوة هائلة على العقول والأذهان ، منذ أسسا فى عام ١٩٣٧ مجلة «حوليات التاريخ الاجتماعى والاقتصادى»

وأيا كان الرأى ، فان الثورة التى صنعها طه حسين فى الفكر العربى صنعا هى أول الأمر ، وأخطر ما فيه ، فى المنهج الفكرى ..

ولكن خطر طه حسين انه لم يبشر بمنهج ، واكتفى بأن يكون داعيته ، بل استطاع أن يطبق هذا المنهج على الأدب العربى القديم ، والحديث ،

والفكر العصرى الأوربى كذلك . بل لقد طبقه أيضا فى حياته العملية ، لأنه اذا كان قد تحمس كل الحماس لهذه الجامعة المصرية ، وتحمس للدفاع عن « العقلانية » فى بداية هـذا القرن ، فانما أراد أن تكون هـذه الجامعة مبنى ومركز اشعاع لهذا المنهج الجديد ، ولم يظن كما قد يظن القائلون ، ان النهضات تصنع ، أو تقاس بمقدار الدروس التى يحفظها التلاميذ ، أو عدد الشهادات التى « تفرخها » الجامعة فى كل عام ..

وخطورة طه حسين ، وصـدقه ، انه عانى انتزاع « هـذا المنهج العقلانى » بعد طول حيرة ، وعناء كثير ..

فلم يكن غريبا أن يكون هذا العقل ، هو ما طمحت اليه تلك الطبقة الجديدة أو هذه الأمة التى كانت تولد بين الحربين ، وتريد أن تشق طريقها بمنهج جديد ..

فاذا سأل شاب من الشباب فى هذا الجيل ، كيف لطه حسين هذا الفتى الضعيف أن يفوز بكل ما قال من صـدق ، وأن يتبوأ مثـل هـذه الصدارة ، فانك تستطيع أن تنصحه بلا ريب ، أن يعود الى ما كتب طه حسين ، وأن تنصحه ألا يقف عند هذا الأسلوب العذب ، أو الصور الصادقة ، أو الموسيقى الداخلية فى التنسيق ، أو فى هـذا التحليـل الجارح ، أو هذا الاكتناه الهادىء المتبصر ، بل عليك أن تنصحه أن يقف عند هذا المنهج الذى كشفه طه حسين ، وآمن به ــ كاليقين ــ وطبقه فى حياته ، ولعل طه حسين كان يصف نفسـه حينما كان يعجب بوصف بول فاليرى للرسام « ديجا » والذى استشهد به عندما خرج علينا بكتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » سنة ١٩٣٩ ، فقال :

« هنالك لم أر بدا من أن أترجم هـذه الصفحة من صفحات بول فاليرى ، ومن أن أستعيرها بدءا لهذا الحديث . والغريب الذى لم أكن أتوقعه ، ولا أفرضه ، أن كثيرا من صفات هذا المصور الفرنسى ، الذى كنت أسمعه وأجهل من أمره كل شىء ، تشبه ما ألفت وأحببت من صفات أبى العلاء . فشدة الرجل على نفسه الى أقصى غايات الشدة ،

وشك الرجل فى مقدرته الى أبعد آماد الشك ، وارتياب الرجل بأحكام الناس فى أمور الفن ، وزهد الرجل فى الشهرة وبعد الصيت ، وفى الثراء وسعة ذات اليـد ، وانصرافه عن الحمـد الكاذب والثناء الرخيص ، وتأجيله لذة الظفر بالفوز ، وخلقـه المصاعب لنفسه ، وبغضه للطرق القصار والأبواب الواسعة ، وايثار الطرق الطوال والأبواب الضيقة . كل هذه الخصال التى يحدثنا بها بول فاليرى عن صديقه وأثيره ديجا ، قد حدثتنا بها القرون والأجيال عن أبى العلاء »

ولعلك لا تملك ، كما لا أملك ، أن تقول لنفسك معى :

والغريب الذى لم أكن أتوقعه ، ولا أفترضه ان كثيرا من هذه الصفات وهى أخذ الرجل نفسه بالشدة ، وشكه فى مقدرته ، وارتيابه بأحكام الناس ، وانصرافه عن الحمد الكاذب الرخيص ، وخلقه المصاعب لنفسه ، وبغضه للأبواب الواسعة وايثاره الطرق الطوال والأبواب الضيقة ، كل هذه الخصال التى وصفها بول فاليرى لصديقه ديجا ، والتى وصفها طه حسين لأبى العلاء كأنها صفات يصفها طه حسين لنفسه فى رحلته الشاقة من الضعف الى التمكن ، ومن الشك الى اليقين ..

طه حسين والدراسات الأدبية

د. شوقى ضيف

كان ظهور طه حسين حدثا مهما فى مجال الدراسات الأدبية ، فقد أخرجها من طور قديم الى طور حديث تغيرت فيه هذه الدراسات تغيرا تاما ، بحيث أصبحت لا تقل خصبا ولا امتاعا عن مثيلاتها فى الآداب الغربية ..

ومعروف انه لم يكن عندنا قبله سوى صورتين لهذه الدراسات :

أولا : صورة تحاكى صنيع القدماء فى دراساتهم للنصوص دراسة يعنى فيها بالبلاغة والنقد واللفظ الغريب ، وكان الأزهر يقوم على هذه الصورة ..

وثانيا : صورة مقابلة كان يعنى بها بعض الشيوخ فى مدرسة القضاء ودار العلوم وفى المدارس الثانوية ، وهى صورة تاريخية تذكر فيها تراجم مبتسرة منتزعة من كتب الطبقات لا تكاد تغنى أى غناء فى درس أدبى منظم .. وكانت تسمى تاريخ أدب اللغة العربية ..

وفى هذه الأثناء أنشئت الجامعة المصرية القديمة ، واستدعت طائفة من المستشرقين فى مقدمتهم « كارلونالينو » الذى أخذ يعنى فى محاضراته بدراسة تاريخ أدبنا على طريقة الغربيين فى درسهم لآدابهم الحية وآدابهم القديمة ، درسا يقوم على الموازنة بينه وبين الآداب العالمية الكبرى ، وان

الأدب مرآة للعصر الذى عاش فيه أصحابه والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى قائليه وسامعيه ، فالأديب لا يعيش منفصلا عن الجماعة ، وأدبه ليس الا ظاهرة من ظواهرها ..

وأتيح لطه حسين الفتى الأزهرى الناشىء أن يختلف الى دروس هذا الأستاذ مع كل مساء ، بينما كان يخرج فى الصباح الى الأزهر ، فيستمع الى دروس الشيخ سيد المرصفى وهو يفسر لتلاميذه نصوصا من « ديوان الحماسة » لأبى تمام أو كتاب « الكامل » للمبرد أو كتاب « الأمالى » لأبى على القالى على نحو ما كان أسلافنا القدماء يدرسون النصوص الأدبية دراسة تعتمد على النقد اللغوى والبصر بجواهر الكلام ومعرفة روائعه وخصائصه الأسلوبية

وأخذت الطريقتان المتقابلتان تثيران فى نفس الفتى كثيرا من الخواطر فتارة يوازن بين ما يسمعه فى أول النهار وما يسمعه فى آخره ، وتارة تلم به أفكار فيما ينبغى أن يكون عليه درس أدبنا وبحثه بمناهج الغربيين المحدثين ، ويستقر فى نفسه انه ينبغى أن نجمع بين الطريقتين فى دراساتنا الأدبية :

طريقة نالينو التى تدرس أدبنا درسا تاريخيا منظما يدرس فيه العصر ومؤثراته السياسية والاجتماعية والعقلية التى أثرت فى نفوس منشئيه كما تدرس آثار هؤلاء المنشئين دراسة نقدية فاحصة

وطريقة الشيخ سيد المرصفى التى تدرس نصوص الأدب دراسة فقه وتحليل من شأنها أن تنشىء الذوق المرهف والملكة النقدية الدقيقة

وما نكاد نمضى معه فى عام ١٩١٤ حتى تتجسد الطريقتان فى نفسه ، وحتى يكتب على أضوائهما رسالته النفيسة « ذكرى أبى العلاء » ويتقدم بها الى درجة الدكتوراه فى الجامعة القديمة ، وينال الدرجة مع الاطراء والثناء على جهده العلمى الخصب ، اذ درس أبا العلاء وآثاره وبيئته وعصره والمؤثرات التى أثرت فى أدبه وفلسفته دراسة دقيقة غاية الدقة . دراسة تتضح فيها الحاسة التاريخية البصيرة ، كما تتضح فيها

سلامة الأحكام الأدبية ، وأنه يتقن فهم النصوص وتحليلها اتقانا رائعا . لذلك قررت الجامعة القديمة ارساله فى بعثة الى فرنسا

ويعكف هناك على الآداب الفرنسية واليونانيـــة واللاتينية ، ويفقهها فقها عميقا ، ويعنى بالمشاكل الفلسفية والاجتماعية فيتخذ من فلســفة « ابن خلدون » الاجتماعية موضوعا لرســالته للدكتوراه ، ويظفر بها كما يظفر باعجاب ممتحنيه من الأساتذة الفرنسيين

ويعود الى الجامعة القديمة عقب الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن ، فيعنى بالقــاء محاضرات فى تاريخ اليونان وأدبهم ، ويعرض على طــلابه صحفا مختــارة من شــعرهم التمثيلى وكأنه يريد آن يفتح صفحة كبيرة للموازنة بين أدبنا القديم والأدب اليونانى

وما يلبث حزب الأحرار الدســتوريين أن يخرج صحيفته اليوميــة « السياسة » ويختاره محررا أدبيا لها ، فينشر بها كل يوم أربعاء مقالة ضافية عن الشعر العربى ، ويتخذ من شــعراء العصر العبــاسى الأول موضوعا لمقالاته ..

ويدرس هؤلاء الشعراء درسا تاريخيا علميا منظما كما يدرس عصرهم دراسة جادة ، واصفا له بأنه كان عصر شك ومجون وزندقة على نحو ما توضح ذلك دراسة بشار ، وأبى نواس ، وحماد عجرد ، وابان بن عبد الحميد ، واضرابهم ..

ويهب كثيرون وفى مقدمتهم رفيق العظم أديب ســوريا مدافعين عن العصر ، زاعمين ان فى ذلك تحريفا لصورته الحقيقية ، كأنما ظنوا ان فى ذلك تشويها لعصر المنصور ، والمهدى ، والرشيد ، والمأمون

ويرد عليهم بأن العلم لا يعرف مذهب تقديس السلف وان هذا المذهب هو الذى يشوه الحقائق التاريخية ، اذ يفضى بمعتنقيه الى الهوى ويردهم عن جادة الحق والصواب

وضرب لهم أمثلة مختلفة من عصــور زاهية فى تاريخ اليونان القديم وتاريخ فرنسا الحديث كان يشيع فيها اللهو والمجون ، وشيوعهما فى عصر

عربى لا يعنى الازراء عليه ، وانما يعنى وصفه التاريخى الصحيح وصفا لا يمليه الهوى ولا العقيدة وانما تمليه الحقائق الخالصة

وتتحول الجامعة القديمة فى عام ١٩٢٤ الى جامعة حكومية ، ويصبح طه حسين أستاذا لآداب اللغة العربية ، فيعنى بدراسة الشعر الجاهلى ويخرج فيه عام ١٩٢٦ كتابا يحدث دويا هائلا ، اذ أخضع منهجه فى بحث هذا الشعر لمنهج ديكارت الفلسفى الذى يفتح أبواب الشك على مصاريعها فى بحث أى شىء حتى تصل الى اليقين ، دون عائق يعوق من مذهب أو عقيدة ..

وعلى أساس هذا المنهج ، عدّ الأحكام التاريخية القديمة المتصلة بالشعر الجاهلى وغيره أحكاما اضافية ، بحيث يمكن تغييرها اذا لم تكن دقيقة كما يمكن تصحيحها اذا كانت خاطئة . فالقدماء ليسوا منزهين عن الخطأ ؛ وقد يجانبهم الصواب ، وعلينا أن نصوّب ما أخطأوا فيه . وانتهى الى نظرية عامة هى نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى ، وأن جمهوره مصنوع زائف ، زيفته العصور التالية

وانبرى كثيرون يردون على طه حسين فى الصحف ، تارة يعتدلون فى ردهم ، وتارة يعنفون . وجُمع كثير من الردود فى كتب ، نشرت فى الناس .. من ذلك كتاب « الشهاب الراصد » لمحمد لطفى جمعه ، و « نقض كتاب فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضر حسين ، و « نقد كتاب فى الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى ، ومحاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى يشتمل عليها كتاب « فى الشعر الجاهلى» للشيخ محمد الخضرى

وأعاد طه حسين طبع كتابه باسم جديد هو « فى الأدب الجاهلى »

وظلت الثورة عليه قائمة ، على نحو ما يصور ذلك محمد احمد الغمراوى فى كتاب « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » ومصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن »

وناقشه هؤلاء الكتاب طويلا فى تطبيقه لمنهج ديكارت على الشعر

الجاهلي ، وهل هو يتخذ الشك وسيلة للشك نفسه أو هو يتخذه وسيلة لليقين ، ومضــوا يراجعــونه فى بعض الفروض وبعض النتائج وبعض النصوص وبعض الأدلة والبراهين..كان قد عدّد دوافع الشك فى الشعر الجاهلى فقال انه لا يمثل حياة الجـاهليين الدينية والعقليـة والسياسية والاقتصادية كما انه لا يمثل ما كان يشيع فى الجنوب من اللغة الحميرية ولا ما كان يجرى فى لغة العدنانيين الشماليين من لهجات متفاوتة . وعدد أسباب الانتحال ، وردها الى السياســة والدين والقصص والشعوبية واختلاق الرواة الوضاعين

كلّ ذلك ناقشه الكتّاب السالفون ، كما ناقشوا دراســاته التطبيقية للشعراء اليمنيين والعدنانيين ، وأثير فى أثناء المناقشة ، بل المعركة الحامية ، غبار كثير ، وانجلى الغبار عن تأصيل قويم فى دراســة الشعر القديم . فهذا الشعر ينبغى ألا يقبل جميعه وان يعرض على امتحان علمى دقيق قبل قبوله ، بحيث لا يتخذ منه أساسا للدرس الا ما صح والا ما رضيه العلم الوثيق ، وما وراء ذلك ينبغى أن يرفض ويطرح بعيدا ، بحيث تكون أحكامنا الأدبية سليمة

ولم تؤصل هذه الدراسة القيمة البحث فى الأدب الجـاهلى وحده ، فقد أصلت أيضا البحث فى الأدب العربى بعامة ، اذ دعت الى حرية الفكر والا يخضع الباحث لشىء سوى روح البحث التحليلى ..

وليس هذا فحسب ، فقد عرض طه حسين لمقاييس التاريخ الأدبى وبدأ بالمقياس السياسى الذى يتخذه شـيوخ الأدب فى مصر أساسا لدراســة تاريخ الأدب ، وأوضح ما فيه من قصور ، وثنى بالمقياس العلمى عنــد مؤرخى الآداب الفرنسية الذين زجوا بتاريخ الأدب فى مضــمار العلوم الطبيعية ، مطبقين عليه قواعدها وقوانينها الحتمية

وصور ما ذهب اليه سانت بوف من ترتيب شخصيات الأدباء للأمة فى فصائل وأنواع على نحو ما يرتب علمــاء النبات الفصائل النباتية ، ورسم فى دقة ما ذهب اليه « تين » من ان الأديب انما هو ثمرة حتمية

لقوانين الجنس والزمان والمكان ، الجنس بأخلاقه وطباعه وعاداته ومزاجه وملكاته ، والزمان بكل ما يتصل به من ظروف سياسية واقتصادية وثقافية ودينية ، والمكان بكل ما يرتبط به من شئون اقليمية وجغرافية

وأوضح كيف ان برونتيير خطا الى أبعد مما خطا اليه صاحباه ، اذ طبق على فنون الأدب وأنواعه نظرية داروين فى التطور والنشوء والارتقاء

وما لبث طه حسين أن خلص الى مقياس سماه المقياس الأدبى ، وهو مقياس يقف بتاريخ الأدب ودراساته بين العلم والفن ، بحيث لا يغرق مؤرخ الأدب فى العلم اغراقا من شأنه أن يصيب بحوثه التاريخية الأدبية بالجفاف ، وبحيث لا يغرق فى الفن اغراقا من شأنه أن يفنى شخصيات الشعراء والكتاب فى شخصيته ، بل يتخذ طريقا وسطا بين العلم والفن ، طريقا يتفق فيه علوم اللغة والصرف والنحو والبيان والتاريخ ومناهج البحث الأدبى فى استكشاف الظواهر وحقائق النصوص الأدبية ، مع ما ينبغى له من الحس الدقيق المرهف والذوق المهذب المصفى ، بحيث تتجلى شخصيته فيما ينثر من أحكام وآراء وفيما يصور من مواطن الجمال الفنى فى الآثار الأدبية المختلفة

وعلى هذا النحو وضع طه حسين لنفسه ولمدرسته التى أخذ طلابها ينشئون على مثاله الأصول التى ينبغى أن يبنوا عليها دراساتهم الأدبية ، وهى أصول ترد الى جانبين :

١ ــ جانب علمى يتصل بفحص النصوص الأدبية وفقهها وتحقيقها واستنباط دلالاتها ، مع دقة التفسير والتعليل والتحليل ومعرفة الظروف التى أحاطت بها والمؤثرات المختلفة التى أثرت فى منشئيها وبيان الصلات بينهم وبين محيطهم وبيئاتهم وعصورهم

٢ ــ وجانب فنى يتصل بنقد النصوص وتصوير شخصيات أصحابها وما تحدث فى نفس قارئها من لذة ، وهو الجانب الذى يحيل التاريخ الأدبى الى عمل ممتع يلذ العقل والشعور . اذ نرى من خلاله خصائص

المؤرخ الأدبى العقلية وملكاته وقدرته على طرافة العرض والتصـوير ، حتى لكأننا بازاء عمل فنى رائع

ومضى طه حسين يدرس لطلابه الأدب العربى على هذه الأصول الفنية العلمية جامعا الى ملكاته العقلية النافذة شعورا مرهفا واحساسا حادا ، منفقا فى هذا الدرس أعواما طوالا ، فرغ فيها لبحث كثير من الظواهر الأدبية وشخصيات الشعراء والكتاب ، مؤرخا ، وناقدا محللا مستنبطا ، كأروع ما يكون الاستنباط والتحليل والنقد والتاريخ ، مبتغيا دائما أن يرضى العلم والفن وينهض بحقوقهما ، متخذا لنفسـه أسلوبا متميزا ، أسلوبا يجمع بين الدقة والرشاقة والعذوبة والنعومة ، أسلوبا استخلص فيه رحيق لغتنا وأدبنا وقدمه غذاء للعقول والقلوب والأفئدة

وظل بين حين وآخر يفجأ المتأدبين بدراسات أدبية ممتعة تملأ نفوسهم اعجابا بما يجرى فيها من أحكام صائبة وتحليلات بارعة وما تصاغ فيه من أسلوب ساحر يخلب الألباب

وتتوالى مصنفاته النفيسة ، فىحافظ ، وشوقى ، وفى بعضأعلام الشعر والنثر العباسيين وفى المتنبى ، ويصنف فى أبى العلاء غير كتاب ويتناول بعض الشعراء المعاصرين بالنقد والتحليل

***

ويتمثل بعض قصائد الشعر الجاهلى تمثلا رائعا ويعرضها فى صـورة جذابة على المتأدبين ترفع عنها كل ما كان يظن بها من جفاف واجداب ، وتجعلهم يسيغونها ويتذوقونها ويجدون فيها لذة ومتاعا

وناهيك بما كان يظهر تلاميذه عليه فى محاضراته من الدقة فى تحليل الشخصيات والآثار الأدبية ، يعينه فى ذلك زاد ثقافى واسع من الآداب الغربية الحديثة والقديمة وهو زاد جعله يصـل دائما بين أدبنا وآداب الأمم المختلفة ، كما جعله يصل فى قوة بين آثار أسلافنا وما عاصرها من مظاهر الحياة الاجتماعية والشعورية والعقلية

وبهذا كله لم يؤصل طه حسين الدراسات الأدبية العلمية فحسب ، بل

حبه أيضا الى الشباب ، وجعلهم يقبلون عليه ويشغفون به شغفا شديدا

أما تلاميـــذه الذين كانوا يتلقون عنه محاضراته فقد ملأ قلوبهم فتنة بالبحث فيه بحثا علميا فنيا دقيقا ، وسرعان ما أخذوا يدرســـون أنحاء حياتنا الأدبية القديمة والحديثة درسا قويا خصبا ، ولم تمض أعوام طويلة حتى وضحت مذاهب أسلافنا الفنية فى الشعر والنثر

وتوالت الدراسات فى أدبنا العربى القديم والمعاصر وفنونه المختلفة ، ودرست بعض الشخصيات الأدبية المعاصرة دراســـة تحليلية نقدية قيمة وأرخت بعض عصورنا الأدبية تأريخا علميا فنيا دقيقا

ونشرت بجانب ذلك نصوص أدبية كثيرة نشرا علميا بديعا ، وأخذت دراسات فقه اللغة العربية تنمو نموا واسعا

ولعلى لا أبالغ اذا قلت ان كل الجهود الأدبيـــة العلميـــة التى نهضت وتنهض بها جامعاتنا انما هى ثمرة طبيعية لأصـــول البحث الأدبى التى وطدها طه حسين بمحاضراته ومصنفاته ومقالاته والتى بثها فى تلاميذه . ومضوا بدورهم يبثونها فى تلاميـــذهم ، مما يجعله بحق الرائد الموجه لنهضتنا العلمية فى الدراسات الأدبية

طه حسين الناقد

فرانشيسكو جابريللي

يعتبر نشاط طه حسين فى حقلى النقد والأدب الجانب الرئيسى من انتاجه العظيم المتعدد النواحى ..

واذا كانت كتاباته الثقافية والسياسية ومقالاته عن تاريخ الاسلام القديم وانتاجه الفنى الأصيل تشكل جوانب أخرى من جوانب نشاطه المتعدد الأشكال ، فان النقد الأدبى هو الذى استنفد أولى طاقاته وأحدثها والذى أعطى شكلا ومادة لأشهر مؤلفاته التى كانت محل نقاش الكثيرين والتى كانت سببا فى ذيوع شهرته فى داخل مصر والعالم العربى وخارجهما . وعندما أذاعت أكاديمية « لينشيى » الايطالية فى عام ١٩٥١ هذه الشهرة بيننا باختيار طه حسين عضوا من أعضائها الأجانب كانت الشعبة التى التحق بها هى شعبة « نقاد الفن والشعر » وقد كان هذا اعترافا كبيرا دوليا بفضل ذلك الرجل الذى شاء له القدر أن يبدأ حياته — وهو مصاب بعاهات جسمانية — بذلك التعليم التقليدى وبذلك التكوين الاسلامى اللذين كانا قائمين فى مصر منذ ستين عاما مضت

ان ذلك الطريق الطويل الشاق حسب ما جاء فى تاريخ حياته الذى وضعه عنه « ليدزبارسكى » الذى قاد الشباب الأزهرى الى هضم أعظم الثقافات الكلاسيكية والأوروبية لا يمكننا أن نتحدث عنه مرة ثانية لأن

(*) فرانشيسكوجابريللى : أستاذ اللغة العربية بجامعة روما وعضو مراسل فى مجمع اللغة العربية . وعضو أكاديمية لينشيى

طه حسين نفسه قد تحدث عن جانب كبير منه

على ان ما يمكننا وما يجب علينا أن نشير اليه هنا هو ان النقد الأدبى كان موضع التجربة فى ذلك التطور وان طه حسين قد تخلى عن الأساليب التقليدية الموروثة فى ميدان التاريخ الأدبى بالذات وانه سرعان ما ظهرت أمامه بوضوح تلك الأزمة . واننا نرى فى كل من المقدمة التى وضعها لكتابه « ذكرى أبى العلاء » وفى كتاب « الأدب الجاهلى » انه تحدث فى شيء كثير من الاعتراف بالجميل عن دراساته لتاريخ الأدب العربى التى تلقاها فى الأزهر على يدى الشيخ « سيد بن على المرصفى » والتى قابل بينها وبين طرق الدراسة الجديدة والعالم الجديد الذى تكشف له عن طريق الاستشراق الأوربى (ذلك الاستشراق الذى يرى فيه بعض العرب المتطرفين انه لم يكن سوى صورة خفية من صور الاستعمار)

كان الشيخ المرصفى الطيب فى بداية القرن العشرين لا يزال من أتباع ومقلدى أبى عمرو بن العلاء وفقهاء اللغة الآخرين المتعصبين لكل ما هو قديم والذين عاشوا فى القرن الأول فى أيام الدولة العباسية وكان هؤلاء يرون ان اللغة الوحيدة الصحيحة هى لغة نحول الجاهلية التى كانت دون غيرها تطغى طغيانا تاما على أى تطور أدبى تال آخر . أما الأساتذة الأوربيون فى جامعة القاهرة الجديدة ثم فى جامعات فرنسا من أمثال اينياتزيو جويدى وكارلو الفونسو نالينو و ج. ميلونى ثم ب . كازانوفا و ج . وييت و ل. سينيون وغيرهم . فانهم فتحوا أمام ذكاء هذا الشاب المصرى الطموح آفاقا واسعة لفكرة تاريخية عن الثقافة العربية القديمة وعن مستقبلها وتطورها وعن آثار البيئة التى عاش فيها وعن التطورات والمقارنات اللغوية . كانت هذه هى الطريقة التاريخية والفيلولوجية الأوربية التى كانت أعظم بكثير وأوسع مدى من تلك الطريقة المدرسية التقليدية الوطنية ولكنها كانت مبهمة وغير واضحة من الناحية النظرية حتى ان معلميه الجدد من المستشرقين لم يستطيعوا أو لم يريدوا تلقينها له . ولقد أتاحت الثقافة الفرنسية التى كان طه حسين قد بدأ منذ ذلك

الحين فى تلقيها الفرصة له للتعرف عليها عن طريق الكتب واستطاع هضمها فيما بعد بفضل اقامته فى فرنسا وبفضل تلك الروابط العائلية التى ارتبط بها فيها . ولقد ظهر كل من « سانت بيف » و « تاين » و «جول ليميتر » فى أثناء أحاديثه وفى أساليبه النقدية ذاتها كأحسن وأصدق النماذج المعاصرة فيما يتصل بالأفكار الجمالية الأساسية

ومن الممكن القول بالاجمال بأن دراسة تاريخ وفقه اللغة العربية على طريقة المستشرقين الغربيين فصلا عن النقد النفسانى وعلم الاجتماع وتأثيرية التعليم الفرنسى هى العناصر الجوهرية فى النقد الأدبى الذى كتبه طه حسين ..

ان الصيغة الموجزة وان كانت تقريبية تتضمن فى حالتنا هذه بعض العناصر الأساسية الايجابية والسلبية فى شخصية صاحبنا ولكنها تغفل بعض العناصر الأخرى . هذه الصفة تتضمن فاعلية الاستشراق الأوربى ذى الطابع الايجابى وتكمله وذلك بفضل النقد الأدبى الفرنسى . وتعترف الصيغة المذكورة بنقص ناتج عن الألفة باللغة والفكر الألمانى والايطالى . وقد سلّم بذلك طه حسين بنفسه (وهو نقص يتبين بصورة خاصة فى ميدان النقد الأدبى) ولكنها فى الوقت ذاته تنقل عناصر أخرى هامة من عناصر الثقافة والنقد عند كاتبنا ، نرى من اللازم الاشارة اليها هنا وابرازها ، وأحدها واضح وجوهرى وهو أساسها العربى وكان من الممكن الحصول عليها بطرق قديمة من الثروة اللغوية والأدبية الوطنية التى لايمكن أن يحصل عليها أى انسان آخر غير عربى عن طريق الكتب وحدها والتى تسهل فهم الكتب الكلاسيكية ودراستها ، وهناك عنصر أخير يجب عدم اغفاله يشرف هذا الكاتب والناقد العربى ، وهو تلك الألفة غير العادية التى حصل عليها بالعالم الكلاسيكى الاغريقى الرومانى الذى لايزال حتى اليوم غريبا على عدد كبير من المفكرين العرب المعاصرين ولكنه كان منذ نصف قرن مضى كتابا مغلقا تمام الاغلاق ..

وان معرفة طه حسين بقادة الفكر وبمفكرى اليونان وفلاسفتها

وشعرائها بمعزل عن الألفة المباشرة القليلة أو الكثيرة بالنصوص قد فتحت أمامه آفاقا أبعد مدى من آفاق الأدب القومى التقليدى ، وجددت ووسعت ذلك الاتصال بين الدراسات العربية والدراسات اليونانية ، ذلك الاتصال الذى تم فىعهود الدولة العباسية الخصبة ، وقد قدم ذلك لكاتبنا عنصرا للمقارنة بينها وبين الأدب القومى الكلاسيكى (بينما تبدو ألفته بعناصر الثقافة الفارسية الأخرى أقل من الفته بالثقافة اليونانية) ويضاف الى ذلك اتصال طه حسين وتفوقه فى اللغة الفرنسية واطلاعه على ما كتب بها فى مختلف نواحى الفكر والفن الأوربى الحديث . ولدينا الآن أمام أعيننا لوحة كاملة غنية كل الغنى عن زمنه وبيئته ، وعلى الأخص فى البداية ، تبين لنا الثقافة والعلوم الانسانية التى قامت على أساسها المؤلفات النقدية التى أنجزها هذا الباحث المصرى ..

بدأ طه حسين حياته كناقد أدبى أو بوجه عام ككاتب فى عام ١٩١٥ عندما أخرج كتابه ذكرى « أبى العلاء » الذى كان هو الرسالة التى منحته عنها الجامعة المصرية شهادة الدكتوراه . وكانت هذه الشهادة هى أول درجة اكاديمية منحتها تلك الجامعة الجديدة . وعندما تحدث المؤلف عن هذا الكتاب صرح فى شىء من البهجة والسرور بأن بحثه هذا كان الأول من نوعه فى حقل الثقافة العربية فى ذلك الوقت ، وذلك بسبب الموضوع الذى وقع عليه اختياره والمنهج الذى سار عليه فى كتابته ..

وفى الحق ان شاعر المعرة لم يكن قط حتى ذلك الوقت موضع دراسة عميقة فى بلاد الشرق التى كانت لا تعرف عنه شيئا سوى ايمانه المتزعزع . واننا اذا استثنينا ما كتبه عنه فى بلاد الغرب « كريمر » عام ١٨٨٨ ، فقد كان هذا الكتاب الأخير بسبب اللغة التى كتب بها مجهولا لم يصل علم طه حسين اليه ولم تكن قد كتبت عن « أبى العلاء » حتى تلك اللحظة سوى كتابات جزئية غير كافية وضعها عنه «مارجوليوس» و«سالمون» أما رسالة الدكتوراه المستفيضة التى وضعها عنه مؤلفنا ، فانها بسبب ظهورها باللغة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى بقيت بدورها مجهولة

فى الغرب الذى لم تزدهر فيه الدراسات الخاصة بأبى العلاء الا بعد تلك الحرب بفضل ما كتبه عنه « نيكوتش » و « كراكوفسكى » و «فيشر» وغيرهم ..

وفى الواقع انه كان يشوب كتاب طه حسين الذى كان من الممكن أن يطلق عليه فى أوربا اسم « عصور وحياة ومؤلفات أبى العلاء » شىء من عدم الانسجام بين الجانب التاريخى العام الذى كان مقدمة لسيرة الشاعر وبين هذه السيرة نفسها وبين دراسته الدقيقة لكتاب « رهين المحبسين » التى لم تكن سوى ملخص مضغوط لهذا الكتاب . وأما كتاب « اللزوميات » الذى يتركز فيه فكر « المعرى » وشعره فيمكن القول بأن طه حسين قد مرَّ عليه مرورا دون أن يقوم بتحليله تحليلا دقيقا كما ان كتابا آخر من كتب أبى العلاء الرئيسية مثل « رسالة الغفران » التى لقيت فيما بعد لأسباب كثيرة جانبا كبيرا من الاهتمام سواء فى الشرق أو الغرب لم يقم طه حسين الا بالقاء نظرات سريعة عليها ..

هذا وان القيمة العظيمة التى أحرزها كتاب طه حسين الأول الذى وضعه عن « المعرى » انما تتركز ـ اذا لم نكن مخطئين ـ فى صورة وسيرة ذلك الشاعر الذى استطاع طه حسين أن يكتب صفحات مليئة بالعطف عن فلسفته وآرائه النفسانية ..

على ان هذا الكتاب الذى وضعه طه حسين فى سن الشباب كان أول ثمرة لألفة طه حسين ومحبته لهذا الشاعر الشامى الكفيف ، ولم تمض خمسة وعشرون عاما حتى عاد طه حسين وتناول فى كتابه « مع أبى العلاء فى سجنه » عام ١٩٣٩ الحديث عن هذا الشاعر واستطاع بكل براعة أن يستكمل ما كان هناك من نقص فى الجانب النقدى فى كتابه القديم ..

وبينما كان كتاب طه حسين الأول يبدو فى شكل رسالة علمية جافة فان بحثه الجديد يمكن وصفه بأنه ليس كتابا علميا جامدا يتعارض مع الدين ولكنه كان بالأحرى حديثا وديا بين المؤلف المعاصر والشاعر القديم فى ذلك الوقت الذى بلغ فيه طه حسين قمة المجد بصفته كاتبا ومؤلفا

استعمل فى هذا الكتاب أيضا أسـلوبا فى الحديث الكلامى يختلف كل الاختلاف مع الأساليب العلمية ، أدخله فى تلك الأثناء أيضا فى « حديث الأربعاء » الذى كان وسطا بين الكتاب النقدى والحديث الحر عن تاريخ حياته الخاصة ..

وهكذا نجد ان الاستدراك الذى وضعه تكملة لما كتبه عن « المعرى » يبدو لنا من الناحية النقدية عظيم القيمة الى حد بعيد . وقد عالج طه حسين هذه المرة موضوع كتاب « اللزوميات » وتحدث عن بعض المسائل الرئيسية أو لمسها لمسا خفيفا (مثل مسألة الفن والصناعة الفنية والوحدة الفنية المطابقة والمعارضـة وبعض الآراء الفلسفية والاجتماعية الى غير ذلك) كما عالج كتاب « فصول وغايات » الذى نشرت بعض أجزائه منذ عهد قريب ، وأبرز ما فى هذا المؤلف الأخير من مشابهات دقيقة بما تضمنه كتاب « اللزوميات » من موضوعات بالرغم من أسلوبه المتكلف ..

لم يقف عند هذا الحد اهتمام طه حسين وتعلقه بشخصية « أبى العلاء » فقد قدم لنا بالفعل فى عام ١٩٤٤ مختـارات من أشـعار « أبى العلاء » مشروحة بالنثر الحديث فى كتابه « صوت أبى العلاء » ..

كما بدأ حوالى عام ١٩٥٠ بالتعاون مع الأستاذ ابراهيم الابيارى فى اخراج طبعة جديدة مشروحة من كتاب « اللزوميات » لا نعرف على وجه الدقة الى أى مدى وصل العمل فيها والى أى حد بلغت مساهمة الدكتور طه حسين فى اخراجها .. تلك الطبعة التى ننتظر على أى حال أن نرى فيها مقدار تعلقه واهتمامه العظيم بوصفه ناقدا للشاعر الذى أحبه وتعلق به منذ أيام صباه ..

يبدو ان دراسة أبى العلاء (التى أشار فيها طه حسين أكثر من مرة الى رغبته وتشـوقه الى اخراج مؤلف كامل مستفيض بعـد أن ازداد نضوجا عما كان عليه عندما ألف كتابه الأول) قد استحوذت على جانب كبير من نشاطه فى ميدان النقد ..

وفى الحق ان أعظم جانب من نشاطه النقدى هو الذى ظهر فيما بين

صدور كتاب « ذكرى أبى العلاء » وظهور مؤلفاته الأخرى اللاحقة عن شاعر المعرة . ذلك النشاط الذى كان قد بدأه عام ١٩١٥ ، واستمر بعد عام ١٩٢٢ عندما أخرج سلسلة مقـالاته « حديث الأربعاء » وزاد من شهرته فيما بين عامى ١٩٢٦ و ١٩٢٧ عندما أخرج كتابه « الشعر أو الأدب الجاهلى » الذى أثار عاصفة هوجاء فى مصر . ويعرف الجميع موضوع هذا الكتاب الذى يتعارض بعض التعارض مع العقيدة والذى لم يطرأ على جوهره أى تغيير فى الطبعتين اللتين صدرتا بعنوانين يختلفان اختلافا بسيطا . اذ تحدث عن عدم صحة نسبة معظم الأشـعار الجاهليـة الى أصحابها ، وعن ان هذه الأشعار قد كتبها علماء وشعراء القرنين الأولين من الهجرة بدافع من أهوائهم السياسية والدينية وعن الغرور والمفاخرات القبلية ومؤلفات علماء الأنساب وروايات الأقدمين وجشع الشعراء

ويرى المستشرقون الأوربيون ان هذا الموضوع كما قدمه مؤلفه هو أول ثمرة لمبادىء « ديكارت » التى تشبّع بها أثناء اقامته فى أوربا . ولم يكن هذا الموضوع سوى شكل ظاهرى لمذهب من مذاهب المتشككين سبق أن حبذه منذ عام ١٨٧٢ « اهلواردت » كما حبذه فى عهد طه حسين « مرجليوت » الذى شاركه فى رأيه أيضا « بلاشير » بطريقة أكثر اعتدالا

أما هذا الموضوع فانه لم يكن بالنسبة لمصر والعالم العربى بأسره أقل أو أكثر من اعتداء على ما للتقاليـد الشعرية الوطنية من قيم واجبـة الاحترام . ولقد زاد من عنف هذا الاعتداء ومن أثره السىء ان أحدا من قبل لم يتناول بالنقد أقدم المخلفات الأدبية العربية ..

هذا وان الجدل والحرب القلمية التى استعرت نيرانها لم يكن من شأنها توقيع عقوبات من جانب الهيئات الجامعية أو القضائية وكانت دليلا على عدم نضوج الرأى العام المصرى فى ذلك الوقت (ولا نستطيع أن نقول ذلك عن الرأى العام المصرى فى الوقت الحاضر) ازاء موضوعات ومناقشات علمية كانت تمس قيما دقيقة من قيم التقاليد الأدبية والدينية ..

واننا اذا بحثنا هذه المسألة فى خارج حدود تلك التقاليد بحثا علميـا

بحثا ونقدناها نقدا حرا ، فان اصالة هذا الموضوع المتطرف لا تبدو لنا أمرا مقبولا يمكن التسليم به ، كما لم يبد ذلك فى نظر أوربا المستشرقة غير المتحيزة ، والتى ربما لا تبدو اليوم كذلك بالنسبة للمؤلف نفسه ..

ونحن دون أن نصل الى آخر اتجاهات طه حسين المحافظة فى الميدان الأدبى والدينى فى بحثه للشعر العربى القديم فى « حديث الأربعـاء » نجد ان كميات كثيرة من الماء قد امتزجت بنبيذ تشككه القديم . ومع ذلك فيمكننا أن نشير الى احتمال وقوع تزييف فى فقرات متفرقة ولكن صحة ذلك التراث القديم فى مجموعه لا تبدو لنا انها موضع أى شك أو اعتراض . وهذا ما يستبعد كل الاستبعاد كل امكان فى اعادة بناء صورة مشابهة لأولئك الشعراء ..

وان التفرقة بين الممكن والمحتمل أو عدم الصحة المؤكدة للأبيـات المتفرقة والتزييف الاجمالى المزعوم يعود الى اتفاقه فى الرأى مع النظرة السائدة الآن بين المستشرقين الأوربيين فيما يتصل بالشعر الجاهلى ..

هـذا وان الكتاب الثورى الذى نشر منذ ما يقرب من أربعين عاما مضت (الذى هو دون شك مستقل استقلالا تاما عن مقالة مرجليوث المعاصرة) يبقى مع ذلك وثيقة ودليلا على شجاعة مؤلفه ، وعلى عدم تحيزه ، وشدة اعجابه بالمبادىء التى تعتمد على العقل وبآراء « ديكارت » التى كان فى ذلك الوقت متشبعا بها ..

وعلى كل حال .فان هـذا الكتاب يسر القـارىء اذا ما فكر فى تلك المبالغات العقائدية التى كانت سائدة فى بيئته وعصره ..

هذا وان النقد القاسى باسم تلك المبادىء قد أدى حقا بطه حسين الى اصـدار تصريحات لابد أن تكون قد تركت شيئا من الحيرة فى نفوس أساتذته المستشرقين مثل مسألة انكاره الـ « كوانية Koiné » اللغوية فى الشعر الجاهلى ومثل انكاره صحة جميع القصائد الشعرية المنسوبة الى شعراء من أصل عشائرى من القحطانيين لأنها لم تنظم بلغة من لغة جنوب بلاد العرب الى غير ذلك . ولكن نجاح فضيحة كتاب « الأدب الجاهلى »

ورفض قبول رأى صاحبه لأسباب متعددة مناسبة وغير مناسبة لا يجب أن تجعلنا ننسى قيمة هـذا الكتاب العظيمة الذى يشتمل على مراجعة مستفيضة ونقد من نوع جديد لتراث اللغة العربية القديم بأكمله . وقد قام بهذا النقد وبهذه المراجعة على مستوى أعلى بكثير من مستوى تلك الملخصات الشائعة التى كان يضعها الكتّاب أمثال جرجى زيدان والشيوخ المتزمتون . كما يجب ألا ننسى بعض ملاحظات طه حسين التى لا تخلو من براعة عظيمة وأخيرا وليس آخرا نقاء أسلوبه وانسيابه ..

هذا وان ظهور ذلك الكتاب الذى أثار حوله كثيرا من الجدل قد لفت نظر الرأى العام الى المؤلف أكثر مما استرعى انتباهه ظهور كتاب طه حسين الأول عن « أبى العلاء » ..

هذا ولا ننسى ان التعريف بالآداب والفلسفة اليونانية الذى اشتهر به طه حسين فى تلك السنوات ومقالاته الأولى الأسبوعية التى ترجع الى عام ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ والتى نشرها فى جريدة « السياسة » ثم بعد ذلك فى جريدة « الجهاد » ابتداء من مقالته عن « سانت بيف » ضمن «حديث الأربعاء » التى جمعت فيما بعد فى كتاب واحد قد تمثل فيها نشاط طه حسين ومؤلفاته الممتازة فى ميدان النقد والتى لاقت نجاحا كبيرا ..

ولقد بدأت هـذه الأحاديث « أى أحاديث الأربعـاء » ببحث ذلك التجديد الشعرى فى عهد الخلفاء العباسيين وبالتحدث عن كبار شعرائه من أمثال (أبى نواس ، مطيع بن اياس ، وبشار بن برد ، وغيرهم) ومن سبقهم من أمثال (وليد بن يزيد) لكى يعود بعد ذلك الى الشعر العربى فى عهد الدولة الأموية . ثم الى الشعر الجاهلى . بينما كانت هناك مقالات أخرى ومحاضرات جمعت كلها فى عام ١٩٣٦ ونشرت تحت عنوان « من حديث الشعر والنثر » كانت تكملة لبحوثه فى تاريخ الأدب القومى فى عهد الدولة العباسـية مع بحث خاص عن تطور النثر . ثم ظهرت أربع صور أخرى للشعراء المحدثين (أبو تمام ، والبحترى ، وابن الرومى ، وابن المعتز) ..

فى ذلك الوقت كان نشاط طه حسين فى ميدان النقد يتجه أيضا الى الأدب المعاصر . وقد كتب عددا من المقالات فى « حديث الأربعاء » وجدت لها مكانا فى المجلد الثالث من مجموعة هذه الأحاديث المستفيضة وقد تناوب الحديث فيها تارة عن الكلاسيكيين ، وتارة عن كتّاب الأدب المعاصرين من أمثال (سلامة موسى ، والعقاد ، وهيكل ، وفكرى أباظة ، وايليا أبو ماضى ، وغيرهم) وعما وضعوه من مؤلفات فضلا عن مناقشاته فى مسائل النقد العامة وفى موضوع الخلق الأدبى . وقد ظهرت المجموعة الكاملة « لأحاديث الأربعاء » فى ثلاثة أجزاء ، جاء فى آخرها كحاشية لها بحثه « من حديث الشعر والنثر » . واننا اذا استثنينا النظام التاريخى للمادة بدلا من تاريخ نشر كل بحث من أبحاثه المتفرقة فاننا نجد انه قد قدم لنا بهذه الطريقة الخطوة الجوهرية لكتاب « فى تاريخ الأدب العربى » حتى القرن الأول العباسى بأكمله ، رسم فيها صورا كتابية لكل مؤلف من المؤلفين مع بعض فصول مترابطة ومقدمة لبعض المسائل العامة ..

لم يكن هذا الكتاب النقدى من جهة المبدأ مخصصا للباحثين المتخصصين وان المؤلف عندما أخذ فى الحديث عن شعراء الجاهلية نجده يخاطب بالأحرى صديقا وهميا كان فى بداية الأمر غريبا ومعاديا لكل اهتمام بذلك الفن البدوى القديم العسر الفهم الذى دالت دولته والذى أخذ طه حسين يرشده اليه على طريقة سقراط بين أشواك الغريب بأن جعله يتذوق على الأقل بعضا من الشعر القديم . هذا وان كل ذلك الجانب من مؤلفات طه حسين كما هو الحال بالنسبة لمعظم انتاجه بعد كتاباته الأولى عن « أبى العلاء » يخلو خلوا تاما من كل خشونة وحذلقة متصنعة لأنه كان يفضل أن يدخل مباشرة فى حديث فكه يتفق مع حساسية القارىء المتوسط وثقافته . ولعمرى ان هذه البساطة دون ادعاء هى سر مقدرة هذا المؤلف السماعية العظيمة وتجاربه النقدية المرهفة وآرائه وأذواقه التى يقدمها الى جمهور من القراء أكثر أهلية من قراء الصحف ذوى الثقافة السطحية . هذا وان هواة الشعر ونقاده وكذلك مؤرخى الأدب

العربى الكلاسيكى لايستطيعون أن ينكروا قيمة كتابات طه حسين مهما تكن درجة موافقتهم أو مخالفتهم لها ..

وعندما تحدث مؤلف كتاب « الأدب الجاهلى » عن الفحول (لبيد ، وطرفه ، وزهير ، وعنتره ، وغيرهم) نجد انه قد أبدى شيئا من التحفظ حول صحة بعض الفقرات ، غير انه أظهر انه يعتقد بأنه نواة كافية لرسم صورة واضحة لكل شاعر من هؤلاء الشعراء الأقدمين . وحتى فيما يتعلق بالشاعر المثقب العبدى وهو يمثل صوتا صحراويا ضاع عنه كل أثر تاريخى فنرى ان طه حسين الذى يعتبر من أتباع فلسفة « ديكارت » ومن أعداء التصوير يتوقف متأثرا لسماع صدى شعره ذلك الصدى العجيب الذى هو صدى حلو من أصداء الماضى البعيد ..

وعندما قام طه حسين بتحليل الشعر العربى فى عهد بنى أميَّة ظهرت أشد وضوحا روح النقد عنده اذ كان يميز بين صور الشخصيات التاريخيه (فى البيئة البدوية والحضرية المزدوجة) وأبطال قصص الحب ثم مجنون ليلى ، ووضاح اليمانى .. ولكن ربما كانت آبدع الصور التى رسمها صاحبنا ، هى صور عشاقه المحدثين العباسيين الذين أخذ فى التحدث عنهم الواحد بعد الآخر والذين نجح عدد كبير من الصور التى رسمها لهم : مثل صورة أبى نواس التى رغم كونها بسيطة وجزئية تعتبر فى المقدمة — لا من حيث التاريخ الزمنى فحسب — بالنسبة للبحوث الكثيرة التى وضعت عن هذا الرجل الذى يعد صاحب مدرسة أدبية فى الشرق فى مدى عشرات الأعوام الأخيرة ..

وفى رأيه ان صورة بشار بن برد التى اتفق الجميع على مدحه لم يكن لها قيمة فى نظره لأنه كان شخصية غامضة كريهة لم تتجل مواهبها الا فى الهجاء . وقد سرد طه حسين فى لمسات سريعة حياة الشعراء ورجال البلاط السياسيين من أمثال مطيع بن اياس ، ومروان بن أبى حفصه ، وسعيد الحميرى الذين كانوا يتناوبون الاخلاص الفكرى تارة ، وأعمال النفاق تارة أخرى . وقد برز فى مقدمة سلالة المحدثين الثانية الشاعر العربى

اليونانى أبو تمام (الذى كان طه حسين يرى انه أكبر شعراء مدرسة القرن التاسع) وابن الرومى الذى هو أيضا من أصل يونانى الذى تجلت ثقافته الاسلامية اليونانية ، ولكن يجب أن نحذر المبالغة فى تقدير هذا النفوذ العنصرى أكثر من قدره . والأمير الشاعر ابن المعتز ..

هذا وان نبوغ طه حسين وصفاء ذهنه الثقافى الغير العادى وميله للثقافة اليونانية وجدت لها فرصة للظهور أيضا عندما أراد كتابة تاريخ النثر العربى فى الفترة الواقعة ما بين القرن الثانى والرابع الهجرى وهو نثر رآه ينبع من العناصر الثلاثة : الوطن العربى ، والفلسفة اليونانية ، والثقافة الفارسية حتى عهد ابن المقفع الذى يعتبر عادة منشىء النثر العربى الفنى ، وان ناقدنا يقدم عليه الكاتب العربى الأكثر اصالة عبد الحميد الذى يرى فيه أثر النفوذ اليونانى الذى تحدث عنه نظريا فيما بعد « فى القدامى » ..

وعندما يتحدث طه حسين عن دور العنصر الفارسى فى الحضارة والثقافة الاسلامية سرعان ما نشعر بألفته القليلة بها وبعطف أقل نحوها

ولكن عندما يتعلق الأمر باللغة اليونانية تصبح من المؤسف كثيرا رؤية أبى العلاء الجديد هذا وهو يشتعل حماسة ويحتفظ بسيطرة الناقد الخبير كما رأينا ذلك (فى الجزء الخاص بنقده للأدب المعاصر) بمناسبة ظهور ترجمة أحمد لطفى السيد العربية لكتاب « الأخلاق » . فانه بينما كان يصفق لهذه الترجمة أظهر عدم صحة ما جاء بها من آراء ومن مشابهات ومبالغات شعرية أثارت كثيرا من الجدل والمناقشة عند المصريين من محبى اليونانية الذين يربطون بين كل من هوميروس وارسطو . وان تقييمه للمدرسة الفكرية فى عهد الدولة العباسية فى كتابه « حديث ... » وفى حاشيته قد أغفل أعظم شخصية من الشخصيات العربية فى تلك القرون وهو آخر الشعراء الكلاسيكيين « المتنبى » الذى خصص له طه حسين فى العام التالى لذكراه الألفية التى احتفل بها احتفالا كبيرا فى عام ١٩٣٦ مجلدا كاملا عنوانه « مع المتنبى » تتكون منه ومما كتبه عن أبى

العلاء وأجزاء كتابه « حديث ... » أقوى دعائم مؤلفاته النقدية . وان كتابه هـذا عن « المتنبى » على غرار كتابه الثانى عن شاعر المعرة يبدو كأنه أحاديث حرة وليست علمية عن حياة وأشعار أديب يعترف طه حسين انه لايشعر بأنه من بين المفضلين عنده ..

وربما كان عدم تحيزه هذا قد سمح له بتحليل هذا الرجل ومؤلفاته تحليلا دقيقا وبعيدا عن كل تحيز . ورغما من الاعتراضـات الأولى على عدم وجود طريقة يسير عليها فى كتابه فان هذا الكتاب سرعان ما تغلغل تغلغلا عميقا فى مشاكل سيرة هذا الشاعر وأصبح تكملة للأبحاث التى قام بها كل من «ماسينيون» و«بلاشير» ولو انه خالفهما بعض المخالفة . وهذا الكتاب هو بحث تاريخى وطوبوغرافى دقيق وبيئة تاريخية ازدهر فبه انتاج ذلك الشاعر ، ويقسم ديوانه تقسيما دقيقا ، ويتابع تطوره وتقدم الهامه الفنى وتطوره أو بالأحرى تقدمه النفسانى والأدبى ..

كانت لدى المتنبى فى بداية الأمر رغبة شديدة فى الشهرة وفى معرفة ودراسة كل شىء جديد مما جعله يتصل بالأمراء القرامطة ويغامر بنفسه فى ذلك التنبؤ الغامض ، وقد انتهى الأمر بالمتنبى الى أن يقبل أن يعيش عيشة شاعر البلاط الذى يقدم مدائحه فى مقابل ما يتقاضاه عنها من ثمن

ولقد وجد المتنبى فى شخص سيف الدولة بطـل العروبة والاسـلام المغوار ـ الحاكم الوحيد الجدير بما تجود به قريحته من مدائح وبأحسن جانب من الهامه ـ وبعد انقطاع صلتـه بالحمدانيين وجـد البيئة التى يستغل فيها مهنته الشعرية فى مصر وفى الوطن العراقى وفى بلاد الفرس وقد لاحظ طه حسين ان هذا البلد الأخير قد أوحى له باحساس مرهف بجمال الطبيعة وربما كان فى استطاعته أن يفتح أمامه آفاقا فنية جديدة لو لم تعاجله منيته المحزنة ..

ولقد كتب طه حسين فى هذا المجلد الخاص بالمتنبى بطريقة أكمل مما كتبه عن أبى العلاء نفسه قصة المقدرة على الاحساس والتعبير . ولا يجب على أحد أن يفسر حرفيا تصريحه النهائى الذى قال فيه : « اننى فى هذا

الكتاب قد قدمت صورة حقيقية لنفسى » أو يفهمه كما يمكن فهمه على انه موافقة تامة كاملة على موضوعه وعلى انه اتخاذ موقف فكرى وأخلاقى عندما قام بسرد تاريخ حياة بطل العروبة هذا الذى أخذ اسمه يسير من الآن فصاعدا فى طريق التدهور والانحطاط ..

هذا وان حديثه عن العزة العربية والاسـلامية التى قلّ وجودها فى انتاج طه حسين السابق يتذبذب بطريقة خاصة فى هذا الكتاب كما لو ان شاعر « الكوفة » قد نفث فى مؤرخ سيرته شرارة من أحسن جانب من جوانبه . وليس ثمة شك فى ان كتاب طه حسين عن المتنبى يسجل كما هو معروف لدينـا أهم مرحلة من مراحل نشاط صاحبنا فى ميدان النقد اللاذع . وفى الأعوام التى تلت عام ١٩٤٠ ربما كان يبدو ان هـذا النقد يسير فى المرتبة الثانية بعد المؤلفات التاريخية ومؤلفاته الخاصـة بالتاريخ القصصى وبعد ما كتبه فى السياسة الثقافية وبعد ابداعاته الفنية الحرة ..

كذلك لا يستطيع الانسان أن يقدر أضواء وظلال مؤلفات طه حسين مستفيضة حق قدرها دون أن يكون على معرفة تامة بمادة الثقافة العربية الحديثة ومادة الاستعراب الحديث المزدوجة . وان النقد الأدبى عند طه حسين من بين معلوماته الثقافية هو تخطى الصور البـلاغية التقليـدية واستعراض ألفاظها ومعانيها وتحديد هذه الصور البلاغية وما فيها من استعارات مجازية. كانت التقاليد القديمة تقدر بها قيمة أى شـاعر من الشعراء . وان هذه النظرة الشكلية للعمل الأدبى الذى يحتفظ مؤلف صاحبنا على غير قصد ببعض آثارها البسيطة قد حلت محلها للمرة الأولى فى العالم العربى دراسة الشخصيات الشعرية الفريدة والمدارس الفكرية والعوامل الاجتماعية التى تبدو أحوالها فى نظره توفيقـا بين نفسـانية « سانت بيف » وبين آراء « تاين » الاجتماعية . ولكنا نرى من اللازم أن نذكر ذلك عندما نتحدث عن هذه الأساليب النقدية الجديدة المنحدرة من أصل غربى ونحن على علم تام بالتراث الأدبى القومى القديم والحديث

هذا وان نقاد الأدب الشبان ، وحتى غير الشبان من أمثال أحمدضيف ، وابنة الشاطىء ، وسهير القلماوى ، وغيرهم .. قد عاشوا تجربة طه حسين ولو ان كلا منهم قد اتخذ له فيما بعد منهجا خاصا وهى تجربة ادماج تيار جديد فى الحلقة المغلقة من حلقات التعليم الأدبى التقليدى والاتصال بعالم من عوالم الأفكار والقيم الداخلة ضمن اطار الأدب العالمى الذى كان الأدب العربى الذى بلغ شأوا كبيرا فيما مضى قد أخذ ينعزل عنه رويدا رويدا ويبقى فى حالة من الجمود ..

كان تيمور وأخوه والعقاد والحكيم وغيرهم ، ممن برزوا فىعالم الكتابة والأدب فى عشرات الأعوام الأخيرة أشبه ما يكونون بالشعراء السوريين الذين تعلموا فى المدارس الأمريكية فى بداية هـذا القرن وكذلك كان طه حسين موقظا للهمم التى كانت فى سبات عميق ومحييا للأدب ومكتشفا لأراض بكر لثقافة بلاده ولطرق أنسب ما تكون لانعاشها حتى ولو كانت هذه الطرق أكثر أهمية وتشابها فى ظواهرها وليست جديدة مبتكرة أو نتيجة جهد فكرى عميق ..

ولكن قد يكون من غير العدل قصر قيمة وعمل هذا الناقد على مجرد عملية تعريف مواطنيه بالآراء والأساليب الغربية . واذا كانت المواد الفكرية التى استعان بها فى نقده الأدبى هى كلها غربية فان طرق تطبيقهـا على الأدب القومى كانت من مبتكراته . وان النتائج التى توصل اليها كان فيها أغلب الأحيان معونة صادقة وأصيلة لتاريخ الأدب العربى ولها قيمتها أيضا بالنسبة لعلم الاستعراب الأوربى . واننا عندما استعرضنا أعمال طه حسين الكثيرة فى ميدان النقد أشرنا الى بعض هذه النتائج التى هى فى نظرنا نتائج ايجـابية الى حد ما . ومن هـذه النتائج اعادة تقـدير الروايات القديمة التى كان قد شكك فيها وتحديد ملامح بعض الفحول من أمثال شعراء المعلقات وأنسابهم ..

أما فيما يتصل بالعهد الأموى فان طه حسين بمـا أبداه من الاهتمام بصـور بعض شـعراء الغزل الثانويين من أمثال : عبيد الله بن قيس ،

والأحوص ، ويزيد بن الطثرى ، وكثيّر ، وغيرهم ، وبمسألة العلاقات بين تاريخ الغزل والأشعار المأثورة عن أصحابها بوجه عام .. وقد سبق فى هذا الميدان جميع الأبحاث التى قام بها كراكوفسكى وبلاشير ..

هذا وان الصفحات التى خصصها طه حسين لعدد كبير من شعراء العصر العباسى حتى ولو كانت جزئية ومكتوبة على الطريقة التأثرية يمكن القول بأنها لا تزال حتى اليوم المحاولة الأولى لتحديد صورهم ونقدها ..

على انمئات الصفحات الكثيرة الأخرى التىخصصها للشاعرينالكبيرين المتنبى وأبى العلاء من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر ليست جزئية ولا مكتوبة على الطريقة التأثرية رغما من طرقها وأساليبها الكلامية . وان الأبحاث التى وضعت عن أبى العلاء فى الوقت الحاضر حتى فى بلاد الغرب لم يستطع واضعوها أن يهملوا كتابات هذا الناقد المصرى التى استندوا اليها وأدمجوها ضمن المراجع الخاصة بهذا الموضوع للاسترشاد بها عند كتابتهم عن شاعر المعرة كما سبق أن أشرنا الى ذلك ..

على ان أبحاثهم هذه كانت أقرب ما تكون الى تفسيرات جزئية منها الى دراسات عميقة للفن والفكر ، عند أبى العلاء . تلك الدراسات التى ربما كان طه حسين لأسباب متعددة هو صاحب الأهلية الوحيد للقيام بها قبل أى انسان آخر ..

أما فيما يتصل بالمتنبى (وأرجو أن يسمح بالكلام فى ذلك لمن جرب أسلحته الأولى فى الاستعراب بدراسة هذا الشاعر العراقى بالذات) فان الكتاب الذى وضعه طه حسين يبدو لنا انه كتاب أساسى أصيل ، ويمكن أن يوضع فى صف واحد مع الكتاب الذى وضعه بلاشير ..

ومما يستحق الذكر ان كتاب الناقد المصرى الذى هو من أحسن ما كتب ، يمكن أن يقال عنه بحق انه أصلح وأفضل انتاج عرفه علم الاستعراب ..

ومما لاشك فيه ان أحدا من مؤلفاته لم يصل دائما الى مستوى أرفع من هذا المستوى الرفيع فان بعض مؤلفاته (ابتداء من كتابه الشهير الذى

وضعه عن الشعر الجاهلى وكذلك عن درجة أثر النفوذ الاغريقى فى العهد العباسى) بدت فى نظر العلماء المستشرقين منذ اللحظة الأولى غير مقبولة لأسباب أخرى غير تلك « الفضيحة المعروفة » وغير رفض البيئة المصرية لها . كما ان بعض مؤلفاته هى بمثابة نياشين عظيمة وتحتوى على صور لعدد من الشعراء كان المستشرقون أقل اقتناعا بها وكانت تبدو فى نظرهم مؤلفات كتبت على عجل ودون سند ..

هذا كما ان بعض المسائل الأساسية الخاصة بالأدب العربى كمسألة تمييز الطابع والمحصول الفردى فى بعض المصطلحات والأساليب التىكانت فيما مضى جافة لايبدو ان هذا النقد الحديث قد تعرض لها أو تحدث عنها ولو انه كان أكثر تفوقا من النقد القديم ..

ولكن كتابات طه حسين فى النقد فى نطاق تلك الحدود الواسعة تمثل فى نظرنا ذروة البعث الفكرى العربى ، وتقدم معاونة صادقة كبيرة لدراسة هذا الأدب العظيم دراسة علمية ..

ونحن لا نستطيع أن نختم هذا البحث السريع دون أن نشير الى منهج طه حسين الخاص فى النقد ، والى لغته ــ أى أسلوبه ــ اللذين نرى أنهما ليسا امتياز هذه الشخصية الفريدة وفضلها الأخير ..

وان من يقول بأن النثر الذى كتب به طه حسين مؤلفاته النقدية ، هو أنموذج فى الأناقة لانسيابه ووضوحه ، وأنه لم يظهر ما هو أحسن منه فى كل ما كتب بالعربية فى الوقت الحاضر فانما يقول شيئا معروفا حق المعرفة ويعلمه أى انسان ممن يقرأون لهذا الكاتب ..

ويمكن القول بأن طه حسين قد حقق معجزة من المعجزات وهى انه نقل الى لغته القومية تلك الأناقة والوضوح والشفافية التى امتازت بها اللغة التى نستطيع أن نطلق عليها اسم لغته الثانية أى اللغة الفرنسية التى يعرفه الجميع انه يتقنها كل الاتقان كأستاذ فيها وهذا دون أى مساس بروح اللغة العربية ودون أن يعرض نفسه لتهمة الخروج عن قواعدها أو بث العجمة والكلمات الأجنبية فى مفرداتها . وان لغته النقدية بينما تبتعد عن

كل حذلقة وعن كل خشونة بربرية تنساب فى بساطة وسهولة عجيبة . وفى عبارات لطيفة ورقيقة لا تتعارض مع ما فى نثره الفنى من ثروة وتنوع (ونذكر على سبيل المثال كتابه على هامش السيرة وأجزاء كتابه الأيام) دون أن يعتمد على الكلمة فى التعبير مكتفيا بالأثر الذى يشع عن الفكرة المجردة ..

واذا جاز لأى شخص غير عربى الحكم على اللغة العربية وأسلوبها فانى أرى ان لغة طه حسين وأسلوبه النقدى تتمثل فيهما الأناقة البالغة التى اشتهر بها اليونانيون فى نطاق صور تقليدية تميل الى الأسلوب المسمى بالأسيوى ..

وان الصفحات التى كتبها طه حسين هى فى حد ذاتها فى أغلب الأحيان عمل فنى رائع . ويكفى أن نذكر من بعض الأمثلة الكثيرة على ذلك مثلين أولهما حديثه مع أبى العلاء الذى كتبه أثناء اقامته على شواطىء خليج نابولى الذى لم يستطع أن يرى جماله وانما استمتع بهوائه . وثانيهما تلك الصورة الحية التى رسمها لأبى العلاء والتى تذكر كل ايطالى بالمقطوعة الشعرية التى كتبها الشاعر الايطالى ليوباردى التى تحدث فيها عن ذلك الشيخ الأبيض الذى أقعده المرض ..

كان نقد طه حسين حتى أثناء شبابه الغض معركة رابحة فى سبيل النهضة الفكرية والأدبية ولتوسيع آفاق ثقافته القومية وفى سبيل حرية الفكر المطلقة من كل التزام ومن كل أفكار اجتماعية أوسياسية أودينية سابقة

وربما كانت كل هذه المواقف التى اتخذها الأستاذ الجليل أيام شبابه وأيام نضوجه لا تطابق الآن أفكاره وسلوكه بعد أن تقدمت به السن ..

على ان قيمة هذه المعركة بقيت فى نظرنا كما هى . كما اننا لم يتغير احترامنا وحبنا له وتحياتنا التى تتقدم بها اليه مع هذه الصفحات حتى ولو لم تخل من بعض النقد المؤدب ومن بعض التحفظات ..

وقد يبدو لنا اننا نخفض من هامته الفكرية العالية اذا ما اكتفينا بأن نوجه اليه مجرد تقريظ ممل ..

فى الشعر الجاهلى نظرة أم نظرية ؟

د. أحمد كمال زكى

اصالة وذكاء وارتباط بالعلم على قاعدة ديكارتية . هذا هو الدكتور طه حسين ، الباحث والرائد الانسانى فى أدبنا وفكرنا المعاصرين .. غزا ميادين العلم والفن ، ليرسى دعائم نهضة قوامها التحرر من التقليديات ما كانت تؤذن هذه بجمود وتقتل روح التطور ..

وعلى الرغم من انه خلف آثارا تاريخية وفنية وفلسفية وتأملية ونقدية تعتبر من أساسات ثقافتنا ، فمن المؤكد ان أهم تلك الآثار كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى صدر عام ١٩٢٦ وكان حلقة من حلقات البحث فى قيمة تراثنا الشعرى .. بدأها محمد بن سلام الجمحى المتوفى نحو عام ٢٣٢ هجرية ، وشارك فيها من بعده عبر القرون أقطاب الثقافة العربية كأبى الفرج الأصبهانى ، والسيوطى ، ثم أمسك بها المستشرقون ، فطه حسين ..

وليس يعنينا ما بين ابن سلام والمستشرقين .. فهو ترديد لكلام قيل ، وتسليم بآراء وضعت حتى كأنما الأمر انتهى بيقين مطلق ..

وانما يعنينا نشاط المستشرقين لا من حيث انه كان كشفا ، ولكن من حيث انه كان دعما لكشف قديم .. اما جريا وراء حقيقة ، واما رغبة فى هدم صرح من الصروح ..

والواقع ان الدكتور طه حسين دخل ميدان الشعر العربى كباحث وفى أذنيه يتردد ما اعتاد أن يقوله كل من « نولدكه » و « مرجليوت » وهو ان ما يضاف للعرب قبل الاسلام من شعر ليس لهم ، وانما لجماعة من المزيفين قالته ونحلته طائفة من الشعراء عاشوا فى العصر الجاهلى وردد المسلمون من بعدهم أسماءهم وتنفا من أقوالهم ..

*

وفى عام ١٩٢٥ ، أى قبل أن يصدر طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » نشر « مرجليوت » فى مجلة الجمعية الأسيوية بحثا بعنوان « نشأة الشعر القديم » ينكر فيه صحة هذا الشعر معتمدا على ما ورد فى كتب من جاء بعد ابن سلام ، تاركا كتاب ذلك الرائد الذى كان متداولا اذ ذاك .. فقد طبع فى ليدن بعنوان « طبقات الشعراء » سنة ١٩١٣ — ١٩١٦ ، بتحقيق يوسف هل ، وأشار اليه قبل طبعه بأعوام كل من الرافعى ، وجرجى زيدان ..

هذا يعنى ان قضية التزييف ـ ولنطلق عليها منذ الآن قضية «النحل» أو « الوضع » ـ كانت معروفة عندما شرع الدكتور طه حسين مع المستشرقين فى تقييم شعرنا القديم . ويبدو انه انتفع بكتاب ابن سلام أكثر مما انتفع به أحد من قبله ، وقد ظهر ذلك فى محاضراته التى كان يلقيها ، ثم فى كتابه « فى الشعر الجاهلى » ..

ولقد أحدث ذلك الكتاب ضجة هائلة ، وأثار رجال الدين ، وهز وزارة المعارف والبرلمان والصحافة ، ووضعت الكتب بأقلام كبار دارسى العصر ـ كالشيخ محمد الخضرى ـ لمناقشته والرد عليه مصرحين بأن فيما ذهب اليه ذلك الباحث الذى عقدوا عليه الآمال « أغلاطا كثيرة » يرجع بعضها الى طريق الاستنتاج العلمى ، وبعضها الى عدم الدقة فى النقل ، وبعضها الى قصور فهم التاريخ .. !

وكانت الحملة من العنف بحيث اضطر الدكتور طه حسين الى تعديل آرائه ـ بخاصة ما عرض منها للدين ـ وأعاد طبع الكتاب عام ١٩٢٧

بعد سحبه من السوق ، ووضع له عنوانا جديدا هو « فى الأدب الجاهلى » حاذفا منه أشياء ، ومضيفا اليه أشياء أخرى دون أن يغير نظرته الى الشعر القديم ..

وعلى الرغم مما جد من جديد بعد ذلك ومناداته هو عام ١٩٣٥ — على صفحات « الجهاد » — بما يعتبر تغييرا لهذه النظرة فقد طبع « فى الأدب الجاهلى » عدة مرات آخرها عام ١٩٦٤ بلا أى تعديل ..

لماذا ؟ ..

لا يمكن أن نقترح سببا بعينه ، فالسبب الحقيقى عند طه حسين نفسه ، ولكننا نرى انه فى ثباته على الفكرة يرفض التنازل عما قد يخل بنظرة ترقى الى أن تكون نظرية متكاملة .. فما تلك النظرية ؟ ..

نستطيع أن نحدد خطوطها العامة بأن العرب الجاهليين كان لهم شعر فى فترة مبكرة جدا نجهل نحن فيها أولياته وطريقة نموه ، ويصعب علينا أن نقبله بصورة لغوية واحدة لأن الجزيرة العربيــة جمعت الى جانب اللغة اليمانية أو الحمــيرية بلهجاتها المختلفة لغة العرب الشماليين وهى العدنانية بلهجاتها المختلفة أيضا ..

*

ولما كان فيما يروى من شعر جاهلى ما هو منسوب ليمانيين كامرىء القيس فلماذا أتانا بلغة عرب الشمال العدنانية ؟ .. ألم يقل أبو عمرو بن العلاء المتوفى فى القرن الثانى الهجرى : ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا ؟ ..

لقد ساق الدكتور طه حسين تلك العبارة بهذا النحو الذى أثبتناه ناقلا اياها عن كتاب ابن سلام كما يقول ، وكذلك نقل كل الأقوال التى تدعم نظريته ..

وانتهى الى ان « الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليــا ليست من الجاهلية فى شىء ، وانما هى منتحلة بعد ظهور الاسلام .. .. .. وان ما تقرؤه على انه شعر امرىء القيس أو طرفة أو ابن كلثوم وعنترة ليس من

هؤلاء فى شيء ، وانما هو انتحال الرواة أو اختلاق الاعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين » ص ٦٣ فى الأدب الجاهلى ط . عام ١٩٣٣ ..

بهذه القولة الموجزة قطع طه حسين بكل شيء ، وكان ابن سلام من ورائه يمده بكل ما يريد ..

وقد اعترف هو بأنه قرأ كتابه وتأمل آراءه وصاحبه طويلا ، وكان يستشهد به دائما وباطراد ملح . وبالمقارنة بين الرجلين السلف والخلف نراهما يجمعان على ان فى الشعر القديم المروى مفتعلا موضوعا لا خير فيه ولا حجة فى عربيته ، ويعترف الأول بكثرة هذا الموضوع المفتعل فى حين يعمم الثانى حتى يجعل المفتعل هو الأغلب ..

كما يجمعان على ان كثيرين « أفسدوا الشعر » أى زيفوه ، ومن هؤلاء حماد الراوية ، وخلف الأحمر .. وبلغت الغفلة بفريق من العلماء كمحمد ابن اسحق بن يسار عالم السير المشهور أن أثبتوا المزيف فى كتبهم ، وقد اعتذر عنه ابن يسار بقوله : « لا علم لى بالشعر ، أوتى به فأحمله » ..

*

واذا كان ابن سلام قد أوجز فى حديثه عن العوامل الداعية الى الوضع ، فان طه حسين أطال وعلل وقسم وبوّب ، جاعلا نقطة البداية اللغة من حيث هى فيصل فى الحكم ، وأما ما عدا ذلك فأسباب الوضع تقوم على قاعدة ان المسلمين عندما تشاغلوا بالجهاد « لهوا » عن الشعر وروايته فلما عادوا اليه بعد الاستقرار رأوا انهم نسوه ، ومن ثم راحوا يؤلفونه وينحلونه للجاهليين ..

وتحتل « أسباب انتحال الشعر » صفحات ضخمة من كتاب الدكتور طه حسين بعد أن قدم لها بفكرة عامة هى ان الانتحال ليس مقصورا على العرب . وهذه الأسباب هى السياسة والدين والقصص والشعوبية ورواية القديم ، وشفع كل سبب بروايات متعددة ..

ففى السياسة مثلا نرى العصبية التى كانت بين قريش والأنصار تجعل

واحدا كالنعمان بن بشير يقول شعرا فتضـاف اليه أقوال من تزييف الشيعة ، ومن ناحية أخرى راحت قريش نفسها تستكثر من الشعر فى الاسلام بعد أن تبين لها قلة رصيدها الجاهلى منه ..

وفى الدين لم تكن العواطف ازاءه أقل من العواطف السياسية أثرا فى وضع الشعر ونحله للجاهليين ، حتى لقد وضـع الشعر على الجن باسم الدين لارضاء حاجات العامة الذين يطلبون المعجز والغريب . ومن هنا راح القصاصون ــ معتمدين على الآيات التى ذكرت الجن ــ يخترعون ما شاء لهم خيالهم أن يخترعوا ..

وفى جانب آخر نرى على سبيل المثال ان العرب عندما تسلطوا على غيرهم وقاموا بتقديم القرآن للأمم المغلوبة ، راحوا يضعون ما يفسر لهم ألفاظه وعباراته عندما لا تسعفهم الرواية الصحيحة ..

وفى القصص الذى تأثر بالسياسة والدين نرى أن طبيعة العربى الذى تهفو نفسه الى الشعر كانت تلح عليه فى أن يضيف الى أبطال الجاهلية كتبع الحميرى ، وجذيمة الأبرش ، ومضاض الجرهمى أشعارا عربية ، بل قد تضاف الى عاد وثمود مثل هذه الأشعار التى أنكرها ابن سـلام واعترف بسماجتها وقال عندما أثبت اعتذار ابن يسار عن اثباته الشعر الموضوع فى كتابه : ولم يكن ذلك له عذرا .. !

*

وفى الشعوبية نرى الكثير ، فقد أنطق الموالى ــ كيدا وغلا ــ عرب الجاهليين بكثير من نثر الكلام وشعره .. فيه كما يقول طه حسين مدح للفرس على لسان واحد كالأعشى الذى زار كسرى وآخر كعدى بن زيد وثالث كلقيط بن يعمر ، الخ .. ووجد من الشعوبية علماء كخلف وحماد وأبى عبيدة معمر بن المثنى من كان يكره الجـاهليين حتى ليحمل عليهم حملا ما لم يقولوه قط ، فضلا عن نحل القديم الثابت روايته عندهم الى من لم يثبت انه صاحبه وقائله ..

وفى رواية القديم نرى ان أغلب حملته كانوا من أمثال خلف وأبى

عبيدة ، وهؤلاء كانوا على درجة من سوء الخلق والكذب وحب اللهو والمجون فقدوا عندها الأمانة العلمية والاخلاص العلمى.. فهم يشوهون ، وهم يزيدون ، حتى قال أحد المخلصين القدماء : العجب لمن يروى عن حماد ، كان يكسر ويلحن ويكذب ..

والواقع ان هذا كله لم يكن خافيا على القدماء ، وقد تنبهوا الى خطورته حتى أننا لا نكاد نرى عالما من علماء القرن الثانى أو الثالث يروى شيئا دون أن ينص على حظه من الصدق ..

فالاصمعى يتثبت ، ويروى ما يؤمن بقوة سنده وسلامة مضمونه ، ويعترف بأنه عندما كان فى المدينة لم يجد الا المصحف المصنوع من الشعر ، وقال بصراحة : أكثر شعر مهلهل ــ وهو من أوائل شعراء الجاهلية ــ محمول عليه ..

وأبو عبيدة عندما يتجرد للحقيقة ينحو هذا النحو ، فيعلن أن بعض الأنصار حمل على امرىء القيس أقوالا بعينها ، وان بعض الأبيات التى تنسب لصعصعة بن معاوية السعدى تروى فى الوقت نفسه لحارثة بن بدر ــ وهذا هو المعنى الدقيق لكلمة النحل ــ وان الأبيات الخمسة التى تروى فى « الطيرة » منسوبة للحارث بن حلزة لم ترد فى قصيدة كاملة كما تصور رواة عصره فقد صنعها الموالى فيما صنعوه ..

*

واذن فالدكتور طه حسين يبدو محقا فى كل ما يصدر عنه ، بل لابد فى هذا الحال من أن نسلم معه ــ على الأقل ــ بعدم وجود شعراء يمانيين « ١٩٢ فى الأدب الجاهلى » لاختلاف اللغة أولا ، وبشبهة الوضع بعد ذلك اذا صحت اللغة . ولكن هل يكون ذلك هو أصح ما ينبغى أن نأخذ به ؟ ..

أظن لا ..

لأن الدكتور طه حسين نفسه لايرفض الشعر الجاهلى كله .. فهو يقبل الشعر المضرى منه وان يكن يشك فيه للاحتياط « ٣٦٠ فى الأدب

الجاهلى » على أساس انه لا يجد فيه مصاعب لغوية يراها عند شعراء ربيعة واليمن ، ولأن قضيـــة اللغة اليمانية نفسها ليست بالابعاد التى تصورها . ونضيف الى ذلك ان ما قيل عن الوضـــع والنحل كان من الشمول والدقة بحيث لا يمكن أن نرفض ما أجمع الأولون على صحته حتى وان كان هذا لشاعر يمانى ..

والواقع ان الدكتور طه حسين برغم سعة أفقه واصالته وقدرته على البحث فاته الحرص المطلوب ، حتى ليقع التحريف فيما يسوق من أقوال. وأهم صور هذا التحريف ما جاء فى رواية أبى عمرو بن العـــلاء التى أثبتناها كما أثبتها هو فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » .. وبالرجوع الى كتاب ابن سلام نرى الرواية تساق على النحو التالى : ما لسان حمير وأقاصى اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا ، فكيف بما على عهد عاد وثمود مع تداعيه ووهيه ؟

وتعنى الرواية ان لغة حمير وأقاصى اليمن أيام أبى عمرو فى منتصف القرن الثانى الهجرى انحرفت عن طريق اللغـــة التى يكتب بهـــا العلم والأدب ، وهذا شىء طبيعى جدا تعرفه اللغات عنـــدما تتسع رقعتهـــا وتختلف بيئاتها التى تنزل فيها ..

*

ومن المؤكد ان الخلاف اللغوى الذى وقع بين اليمانيين وغيرهم ــ وقد ساق الدكتور طه حسين أدلة له فى كتابه ــ لم يكن خلاف عصر واحد ، وانما كان خلاف عصور تطور خلالها اللسان العربى من صـــورة تبدو لنا غريبة اليوم الى الصـــورة التى نعرفهـــا ، وهو لا يعنى خلافا بين الشماليين والجنوبيين بقدر ما يعنى خلافا بين شتى القبائل العربية عدنانية كانت أو يمانية ، ونجم عن ذلك وجود اللهجات العربية ..

وهنا يجب أن نقرر ان القبـــائل اليمانية نفسها لم تستقر قط فى تلك الحدود التى ترسم اليوم لليمن والتى عرفت قديما باسم « يمنت » وتدخل فيها عدن وحضرموت ، ورأينا كندة اليمانية مثلا ــ وهى قبيلة امرىء

القيس ـ تستقر فى العروض بالشمال وخزاعة فى مكة وقبلها جرهم . والاوس والخزرج فى المدينة . كما رأينا بعض هذيل وكنانة يتوغل فى أرض يمانية جغرافيا ، ويجتمع فى العراق والشام من الشمال والجنوب بطون وعشائر لعبت دورا خطيرا فى حركة الفتح الاسلامى العظيم ..

وقد لحظ علماء اللغة ذلك فيما يبدو ، حتى ان واضع مادة اللغة السامية فى دائرة المعارف البريطانية لم يفرق بين سامية الشمال وسامية الجنوب ، فى حين فرق بين سامية الجزيرة كلها وسامية الشام أو سامية العراق ..

وان يكن هذا يعنى شيئا فليس أكثر من ان عامل اللغة لم يكن بالخطورة التى قدرها الدكتور طه حسين .. فقد وجدت لغة أدبية واحدة بجانب اللهجات التى تتباعد فيما بينها كثيرا ، وهذه اللغة الأدبية كانت مزدهرة فى الفترة التى اكتملت فيها للقصيدة العربية أسبابها الفنية من عروض وايقاع وصياغة وموضوعات . ومن هنا لا يكون غريبا على واحد كامرىء القيس أن ينشد بها شعره كما أنشد بها أى شاعر من مضر ، وكما اعتاد أن ينشد بها شعراء ربيعة الذين كانوا يجاورون كثيرا من القبائل اليمانية ..

*

فاذا انتقلنا الى الشق الآخر من النظرية رأيناها فى الحقيقة دعوة الى التثبت والاحتياط أكثر منها دعوة الى الانكار ، وجاء أغلب استشهاداته على أسباب الوضع عن شعر اسلامى . فضلا عن انه أورد أقوالا نسبها الى ابن سلام وهى لا توجد فى كتابه ، من ذلك كلامه عن قريش الذى لخصناه له من قبل وصرح الرافعى فى كتابه « تحت راية القرآن » بأنه ليس فيه ، ومنه أيضا ما رواه عن عدى ولقيط ـ وقد عرضناه ـ فاننا لا نراه عند ابن سلام فى الموضع الذى قدره هو بل لا نراه فى أى جزء من أجزاء الكتاب ولكنه مع ذلك انتفع بأقوال ثابتة منها قول ابن سلام :

« وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع

والأشعار ، فقالوا على ألسنة شـعرائهم ، ثم كانت الرواة فزادوا فى الأشعار التى قيلت » ..

وهنا يجب أن نحتاط فنكمل العبارة بقول العالم القديم : « وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون» ٤٠ طبقات فحول الشعراء ، ط . المعارف عام ١٩٥٢

واذن فلا ضرر .. فهناك شعر جاهلى زيف بعضه وعرف هذا البعض علماء الأدب ، فلماذا يعاد القول فيه ؟

أما بالنسبة للمستشرقين فالهدف بيِّن ظاهر ، وبالنسبة لعميد الأدب كان الموضوع مجالا يحاول أن يبرز فيه مؤكدا انه كعربى لا يمكن أن يكون دون مرجليوت الأجنبى فى الاستنباط والاستنتـاج والتوسع فى فهم دلالات الأخبار ..

ومن جانب آخر استخدم لأول مرة المنهج الفلسفى الذى استحدثه ديكارت « للبحث عن حقائق الأشياء فى أول هذا العصر الحديث » ..

وكل هذه من غير شك جهود ان لم تغن كثيرا فى وضع نظرية ، علمت أسلوب جمع الحقائق وتوثيقها وازجاء المقدمات ــ برغم السلبية التى تلعب فيها عبارات « ربما » و « لا يبعد » و « ليس ما يمنع » دورا ما ــ قبل اعلان النتائج التى تأسر القارىء وتشل ملكاته ..

طه حسين والأحزاب السياسية

رجاء النقاش

كان طه حسين منذ بداية حياته الفكرية فى عام ١٩٠٨ تقريبا رجلا من رجال الأدب والفكر ، قبل أن يكون رجلا من رجال السياسة .. ولذلك فنحن اذا بحثنا فى كتبه التى تحدث فيها عن تاريخ حياته وتجاربه ، وأهمها كتاب « الأيام » فاننا لا نجد فيها شيئا عن طه حسين السياسى ، لا نجد فيها شيئا عن علاقاته بالأحزاب المختلفة ورجال هذه الأحزاب ، وانما كان طه حسين حريصا فى «الأيام» وفى كتبه التى تحدث فيها عن نفسه على أن يحدثنا عن تطوره الوجدانى والعقلى ، وعن التجارب النفسية المختلفة التى صنعت منه هذا الشخص العظيم الذى نسميه طه حسين ..

ولذلك كان كتاب « الأيام » ، خاصة جزؤه الأول ، أقرب الى الشعر منه الى النثر .. انه تاريخ شعرى عاطفى لطه حسين .. وليس فيه من تجاربه العملية ، ومعاركه الواقعية الا القليل اليسير ..

والسبب الأكبر فى هذا كله ، كما قلت ، ان طه حسين كان أديبا ومفكرا بالدرجة الأولى ، وهو عندما دخل السياسة « منذ كان فى العشرين من عمره أو حتى قبل ذلك » لم ينس أبدا انه دخل هذا الميدان الصاخب العنيف كأديب ومفكر ، ولم يدخله كسياسى محترف للسياسة ..

ومن هنا لم تفرض القوى السياسية التى ارتبط بها طه حسين عليه طابعها الخاص ، بقدر ما ترك هو طابعه على هذه القوى واستفاد منها بخدمة أفكاره وقضاياه التى كان يؤمن بها بطريقته العنيفة الحارة المتطرفة فى الايمان بالأشياء ..

وهذا الحرص على الجانب الأدبى والفكرى فى حياة طه حسين وكفاحه الطويل ، هو الذى جعل لطه حسين شخصية مستقلة حتى فى أشد أيام ارتباطاته بالأحزاب ، وفى أعمق لحظات اتصاله بها ..

ولنترك هذا الحديث النظرى ، ولنبحث ـ مباشرة ـ فى قضية طه حسين والأحزاب السياسية .. لقد حدث أول ارتباط بين طه حسين وبين الأحزاب السياسية فى أوائل هذا القرن . وكان الحزب الذى ارتبط به طه حسين فى هذه التجربة السياسية الأولى هو حزب « الأمة » ..

وكان الذى جذبه الى الحزب هو شخصية لطفى السيد ، أكبر رأس مفكر فى الحزب ، ومحرر صحيفة « الجريدة » التى تنطق بلسان الحزب والتى أسسها الحزب فى عام ١٩٠٧ برأس مال قدره عشرون ألف جنيه .. ومن هنا لم يكن ارتباط طه حسين بهذا الحزب الرجعى ، الذى يمثل كبار الاقطاعيين والأغنياء ، راجعا الى التكوين « الاجتماعى » للحزب .. فلم يكن طه حسين منحدرا من أسرة غنية ولم يكن بعيدا عن مشاعر الطبقات الشعبية الفقيرة ، فهو نفسه قد خرج من أسرة متوسطة أقرب الى الفقر منها الى الغنى .. ولكن طه حسين ارتبط بحزب « الأمة » لسبب فكرى واضح .. فقد كان طه حسين فى ذلك الحين طالبا فى الأزهر ، وكان ميالا ـ نتيجة لتفتحه الذهنى العجيب ـ الى الآراء المتحررة المتجددة فى الأدب والحياة ..

لقد كان يعيش فى بيئة الأزهر الدينية المتحفظة ، وهو أقرب ما يكون الى التيار الذى خلقه محمد عبده .. ولم يكن هذا التيار المتحرر المتفتح هو التيار الغالب فى ذلك الحين ، بل كان تيارا مغلوبا يكافح ويناضل من أجل الانتصار وكسب المواقع المختلفة .. وكانت أقرب بيئة خارج الأزهر

الى عقلية طه حسين المتفتحة الثائرة البعيدة عن الجمود والتزمت ، هى تلك البيئة التى خلقها لطفى السيد فى مصر عن طريق « الجريدة » لسان حال حزب « الأمة » ..

لقد كان لطفى السيد أكبر عقل مثقف ثقافة غربية فى مصر فى ذلك الحين .. لقد تعلم فى أوروبا ، وعاد الى مصر مقتنعا بالثقافة الغربية اقتناعا عميقا ، وأراد أن ينقل هذه الثقافة الى مصر ، أو بالأحرى أراد أن يجعل مصر تتجه وجهة غربية عصرية فى ثقافتها الجديدة .. فى العلم والسياسة والمجتمع ..

ولم تكن طريقة لطفى السيد فى الدعوة الى آرائه طريقة عنيفة ملتهبة ، بل كانت طريقة هادئة ، تهدف الى الايضاح والتنوير وانتهاز الفرص المناسبة ، أكثر مما تهدف الى توجيه « صـدمة » فكرية وروحية الى الجماهير بشكل أو بآخر . واستطاع لطفى السيد بأسـلوبه المعتـدل المطمئن الى نفسه المتمكن من أساسه الثقافى أن يخلق جزيرة فكرية فى مصر .. جزيرة ترحب بالتجديد الفكرى والاجتماعى والسياسى ..

ولقد كانت هـذه الجزيرة الفكرية التى خلقها لطفى السيد هى تقريبا الجزيرة الوحيدة الموجودة فى البيئة المصرية والتى تنبع من البيئة المصرية نفسها ، فلقد كانت هناك جزيرة أخرى متحررة تدعو الى الثقافة الغربية وتؤمن بها وكانت هذه الجزيرة تتمثل فى المثقفين الشوام أمثال : يعقوب صروف ، وشبلى شميل ، وفرح انطون ، وغيرهم .. ولكن هؤلاء لم يكونوا محتكين بالبيئة المصرية احتكاكا عميقا ، ولذلك ظلوا غرباء عنها ضعفاء فى التأثير عليها ..

أما لطفى السيد فقد كان له تأثيره الفكرى الواسع ، لأنه ابن البيئة المصرية النابع منها العارف بمشاكلها معرفة دقيقة ..

ووجد طه حسين فى لطفى السيد ، وفى التيار الفكرى المتحرر الذى خلقه لطفى السيد بيئة ملائمة تماما لفكره .. لعقله الذى يضيق بالبيئة المحافظة فى الأزهر ويصطدم بها كل يوم ..

لم يكن هناك أحد يمكن أن يقبل آراء طه حسين المجددة ، ورغبته فى تطوير الأدب والفكر ، أعظم من لطفى السيد . ولم يكن لطفى السيد يكتفى بقبول آراء طه حسين وافساح صدره لها بل كان يشجعه على هذه الآراء تشجيعا واسعا عميقا ..

ولابد أن نقف هنا لحظة لنلاحظ نوعا من التناقض الغريب فى داخل حزب « الأمة » ، فلقد كان الحزب كجهاز سياسى حزبا رجعيا شديد الرجعية ، يميل الى مهادنة الانجليز والتعاون الهادىء معهم ، وكان الحزب يرفض رفضا قاطعا أى ارتباط بالأتراك أو التعاون (كما كان الحزب الوطنى يدعو فى ذلك الحين) .. كان حزب « الأمة » اذن حزبا رجعيا .. وكان من الناحية الفكرية حزبا مغلقا لا تكاد تكون له مبادىء واضحة ، ولا يكاد يكون له منهج ذو قيمة أو أهمية .. ومع ذلك (وهنا التناقض) استطاع لطفى السيد وحده من بين أعضاء هذا الحزب أن يخلق تيارا فكريا واسعا ، كان من الواضح ان حزب « الأمة » نفسه لا علاقة له بهذا التيار ..

وهكذا .. كان هناك انفصال بين السياسيين الذين يكونون الجسم الأساسى للحزب ، وبين هذا المفكر النشيط الذى يكون وحده تيارا خاصا به وهو لطفى السيد .. ويجمع حوله عددا كبيرا من المثقفين ..

كان هناك اذن تيار سياسى فى حزب « الأمة » خافت ، لا أثر له ولا شعبية ، بينما كان هناك تيار آخر هو تيار فكرى منتسب بالدرجة الأولى الى لطفى السيد .. ربما لا يحس به أعضاء حزب « الأمة » أنفسهم ، فهؤلاء كان لا يعنيهم الا أن يحافظوا على مصالحهم ، حيث سماهم لطفى السيد باسم : أصحاب المصالح الحقيقية ! ..

فطه حسين اذن قد ارتبط بحزب « الأمة » من خلال التيار الفكرى لا من خلال التيار السياسى .. لقد ارتبط بالفكر الحر المتفتح على الثقافة الغربية .. وكان طه حسين ثائرا على الفكر المحافظ فى الأزهر وخارج الأزهر ، وكان يبحث عن مأوى لأفكاره المتحررة الثائرة ووجد هذا

المأوى بوضوح فى التيار الثقافى لحزب « الأمة » ..

وفى اعتقادى انه لولا لطفى السيد واتجاهه الفكرى المجدد المتحرر لما ارتبط طه حسين بحزب « الأمة » ، فلقد كان الدافع الأساسى لهذا الارتباط دافعا فكريا ولم يكن دافعا سياسيا بحال من الأحوال ..

ونحن لا نجد فى انتاج طه حسين الفكرى فى هذه الفترة المبكرة من حياته أى ميل الى تأييد الاقطاعيين والنظام الاقطاعى الذى كان يمثله حزب « الأمة » من الناحية السياسية والاجتماعية .. لم يكن طه حسين مؤيدا للاقطاع والرجعية ، بل كان « لاجئا » الى جزيرة الفكر الحر الجديد فى شخصية لطفى السيد الذى كان ــ بالمصادفة ــ من أعضاء حزب « الأمة » البارزين ، لأنه يرتبط مع الحزب بمصالحه (فهو من كبار الاقطاعيين) وان كان ينفصل عنه بفكره وعقله « لأنه من كبار المثقفين المجددين » ..

*

ولم ينتسب طه حسين فى هذه الفترة (حوالى عام ١٩٠٨) الى الحزب الوطنى فقد كان الحزب الوطنى حزبا للشعب حقا ، ولم يكن حزبا للأغنياء والاقطاعيين مثل حزب « الأمة » ، ولكن شعبية الحزب الوطنى كانت تتمثل فى جانبه السياسى ، أما فى الجانب الفكرى فقد كان حزبا محافظا متعصبا فى كثير من القضايا الفكرية الرئيسية ؛ لذلك لم يكن طه حسين (الذى يقلقه الفكر أولا وقبل كل شىء) يستطيع أن يجد راحته وغايته فى فكر الحزب الوطنى ..

فالحزب الوطنى يقوم فى دعوته الوطنية على أساس دينى ، ومعنى هذا الأساس الدينى أن ترتبط مصر بتركيا فى ظل الخلافة الاسلامية ..

وتركيا فى ذلك الحين هى رمز للتخلف الشرقى ، سواء فى مظهره السياسى ، حيث كانت الحكومة التركية ، حكومة سلاطين مستبدين طغاة رجعيين لايعترفون بالديموقراطية التى كانت حلم كثير من المثقفين فى مصر وفى كثير من دول الشرق العربى فى ذلك الحين. ولقد كان الايمان بالارتباط

مع تركيا (كما كان الحزب الوطنى ينادى) ترجمته الفكرية هى الايمان بالتقاليد القديمة الجامدة ، ورفض مظاهر الحياة الحديثة العصرية المرتبطة كل الارتباط بالغرب وثقافته ..

ولقد نشأت بين طه حسين ــ فى هذه الفترة المبكرة من حياته ــ وبين أحد أعلام الحزب الوطنى وهو الشيخ عبد العزيز جاويش معركة حول موضوع « السفور والحجاب » ..

وهذه المعركة تكشف لنا كيف كان هناك اختلاف واسع بين التفكير العصرى المتحرر الذى آمن به طه حسين ، وبين التفكير المحافظ الذى كان يعيش فى ظل الحزب الوطنى ..

لقد كان طه حسين يدافع عن سفور المرأة وتحريرها من الحجاب ، وهى فكرة عصرية ، أخذها من تفتحه على الثقافة الغربية والحضارة الغربية ، وكتب عام ١٩١١ سلسلة من المقالات يدعو فيها الى هذا الرأى ، وهو يلخص مقالاته فى هذه الكلمات فيقول :

« لا فرق بين المرأة والرجل فى الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق منهى عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه . فالمرأة لا تخلو بالأجنبى ولا تسافر وحدها ، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى . ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء فى غير اثم ولا لغو . لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب ، وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل . وليس عليها الا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الانسانى كافة . هذا هو حكم الاسلام ، وهو رأينا الذى لا نحيد عنه ، ولا نعدل به رأيا آخر » ..

وقد كان هذا الرأى الذى قال به طه حسين منذ أكثر من نصف قرن ، يعتبر رأيا تقدميا ، مفرطا فى تقدميته ، يحسب ضمن آراء المدرسة المتطرفة ــ آنذاك فى تحرير المرأة ــ وعلى رأسها قاسم أمين ..

وقد رد علي هذا الرأى الشيخ عبد العزيز جاويش (أحد زعماء الحزب الوطنى) وقال فى هذا الرد الذى دافع فيه عن اعجاب : « ان رأى

« الأستاذ » طه حسين يعتمد على أصلين أوليين :

« الأول : ظنه أن الحجاب انما اصطنع ليكون عقوبة على المرأة ..

« والثانى : قوله ان المرأة والرجل اذا نشآ على قواعد الدين وأصوله وهذبت أخلاقهما أمنا عادية الشر ولم نحتج الى حجاب ونقاب ..

« أما الأصل الأول فنحن نخالف الأستاذ فيه ، نقول ان الحجاب لم يتخذ عقوبة للمرأة ولا حجرا عليها ، وانما اتخذ تكريما لقدرها وتعظيما لأمرها ، ودفعا للأذى عنها . فاننا لا نخاف المرأة على نفسها فقط ، بل نخافها ونخاف معها الشبان وما يتصفون به من سوء الخلال وكواذب الأخلاق ..

« وأما الأصل الثانى فنحن نوافق الكاتب عليه . نقول ان تهذيب الأخلاق وتربية النفوس على أصول الدين يغنيان أكثر من غناء الحجاب والنقاب ..

« ولكن أين السبيل الى ذلك ؟ ..

« تلك هى المسألة التى لايستطيع أحد أن يجيب عليها الا بالقول ، حتى اذا آن له أوان العمل وحان حينه وقف منه موقف الحائر ؛ لايدرى أيقدم أم يحجم ، ولا يعرف الى أين يذهب ولا من أين يجيء » ..

*

هذا مثال من أمثلة الخلافات بين طه حسين ومفكرى الحزب الوطنى .. ولقد كانت هناك خلافات أعمق وأعقد ، ومن بين هذه الخلافات الرئيسية ما أشرنا اليه منذ قليل من ان رأى طه حسين هو اقامة دولة عصرية على أساس « قومى » لا على أساس دينى ، فالوطن فى مفهومه شيء آخر غير الدين ، ويجب فصل الدين عن الدولة ، وما كان الحزب الوطنى يوافق على مثل هذا الرأى الذى أخذ به طه حسين من الثقافة الغربية والنظام السياسى الغربى ..

على العكس لقد كان الحزب الوطنى ينادى باقامة الدولة على أساس دينى ، ومن هنا كان يؤمن بالعمل على استمرار الخلافة العثمانية ، باعتبار

ذلك استمرارا للخلافة الاسلامية ، التى هى هدف الحزب الوطنى وأساس دعواه ..

فى الناحية الأخرى كانت آراء لطفى السيد، هىالآراء القريبة الى قلب طه حسين وعقله .. فلقد كان ينادى بفصل الدين عن الدولة والأخـذ بفكرة الدولة المدنية العصرية ، وكان ينادى بتحرير المرأة وسفورها ، ويتبنى « الكاتبات » اللائى كن يكتبن فى الدعوة الى تحرير المرأة ، فقد نشر فى صحيفة « الجريدة » مقـالات لاحدى رائدات الحركة النسائية وهى « ملك حفنى ناصف » ثم نشر لها كتابها المشهور « النسائيات » ، وقدمه تقديما حارا متحمسا ..

وفى النهاية كان لطفى السيد مؤمنا بالعقل أكثر من ايمانه بالعاطفة ، ولقد كان طه حسينأقرب الى الايمان «بالعقل» منه الى الايمان بالعواطف.. ومن هنا وجد فى لطفى السيد ، ومن معه من مثقفى حزب « الأمة » جاذبية ، لم يجدها فى الحزب الوطنى الذى يؤمن بالتقاليـد والعواطف العنيفة الملتهبة ، ولا يكاد يقترب من الأسلوب « العقلى » فى معـالجة أمور الحياة والفكر والسياسة !

ومما ينفى تهمة الرجعية السياسية عن طه حسين فى هذه المرحلة ــ رغم ارتباطه بحزب « الأمة » الرجعى ــ انه فى ذلك الحين (حوالى عام ١٩٠٨) كان هناك حزب ثالث فى مصر اسمه الحزب الوطنى الحر ، وكان هـذا الحزب يلتف حول جريدة « المقطم » وصاحبها فارس نمر ، وكان زعيم هذا الحزب رجلا اسمه محمد وحيد ، وقدكانهذا الحزبيميل ميلا واضحا الى التعاون مع الانجليز ويقول هذا الحزب على لسان مؤسسه محمـد وحيد هذا « ان سلامة المصريين فى سلامة المحتلين » ..

لقد كان هذا الحزب يناصر الانجليز ، وفى وقاحة لا حد لها ، وكان يتبنى نفس آراء حزب « الأمة » ، ولكن بطريقة أكثر صراحة وتطرفا وابتذالا ، ولم يقترب طه حسين من هـذا الحزب اطلاقا ، ولو فى لحظة واحدة من لحظات بدايته الفكرية ، ذلك لأن هذا الحزب كان خاليا تماما

من جناح المثقفين الذى يملأ حزب « الأمة » ويجعل له وجها آخر غير وجهه السياسى وهو الوجه الفكرى المتحرر ..

فطه حسين اذن لم يرتبط سياسيا بحزب « الأمة » ، والا لكان قد ناصر أيضا الحزب الوطنى الحر ، أو عطف عليه ، أو كتب فى صحفه ، ولكنه فى الحقيقة كان مرتبطا أساسا بالحركة الفكرية لحزب « الأمة » .. هذه الحركة المجددة المؤمنة بالثقافة الغربية العصرية ..

لقد كانت هذه الحركة هى أنسب بيئة لهذا الأزهرى الشاب الذى كان ثائرا أشد الثورة على الأزهر ، والذى فصل بالفعل من الأزهر نتيجة لتطرفه ، ولآرائه التى لم تعجب علماء الأزهر ..

*

على ان حزب « الأمة » قد بدأ يمر حوالى عام ١٩٠٩ (بعد عامين) من انشائه بأزمة عنيفة من أزماته .. فلقد نشأ هذا الحزب ــ كما يسجل الباحثون والدارسون لهذه المرحلة من تاريخنا ــ بايحاء من اللورد كرومر الذى كان يعادى الخديو عباس عداء عنيفا ، وكان الحزب الوطنى يناصر الخديو ، ويمثل قوة سياسية شعبية لها خطرها وتأثيرها الكبير ، وقد أراد كرومر أن ينشىء حزبا آخر يناصر الانجليز ويقف ضد الحزب الوطنى فأوصى بعض أنصاره بانشاء حزب « الأمة » ، ولكن اللورد كرومر ترك مصر عام ١٩٠٧ ، وجاء بعده السير « الدون جورست » واتبع سياسة الوفاق مع الخديو ــ على عكس سياسة كرومر ــ هنا بدأ حزب « الأمة » يفقد دوره ، وبدأ يذوى ويذبل .. الى أن انتهى الى الجمود وفقدان القدرة على أى حركة سياسية ..

لقد كان هذا الحزب يتوقع أن يستولى على الحكم من خلال اللورد كرومر ... ولكن اللورد كرومر رحل عن مصر ، ورحلت سياسته ، ورحلت معه أيضا أحلام حزب « الأمة » ..

*

وفى فترة الأزمة التى مر بها حزب « الأمة » اقترب طه حسين من

الحزب الوطنى اقترابا محدودا بعد أن ظل بعيدا عنه مختلفا معه الى حد بعيد . وكانت بداية التقائه بهذا الحزب ، عندما أنشأ الشيخ عبد العزيز جاويش ــ أحد زعماء الحزب ــ مدرسة ليلية لتعليم اللغة الفرنسية لمن يريد ذلك من الطلاب ، وقد كان الحزب الوطنى يؤمن بضرورة تعاون المصريين مع فرنسا كقوة أوروبية للضغط على انجلترا ، ولاشك ان هذه الفكرة كانت وراء انشاء مدرسة الشيخ عبد العزيز جاويش لتعليم اللغة الفرنسية للطلاب المصريين ، كما كانت وراء كثير من مواقف الحزب الوطنى وتصرفاته المختلفة ..

وقد انضم طه حسين الى هذه المدرسة ، وتعلم فيها مبادىء اللغة الفرنسية . ثم أخذ ينشر فى صحف الحزب الوطنى مقالات وقصائد مختلفة ..

على أننا نلاحظ فى هذه المرحلة من حياة طه حسين ان ارتباطاته بالحزب الوطنى كانت ارتباطات بجانب واحد من مبادىء هذا الحزب ، وهو جانب الدعوة الى الجلاء والاستقلال التام ، فقد ظل طه حسين محتفظا بخلافاته الفكرية التى أشرت اليها منذ قليل ، مع الحزب الوطنى ، وقد كتب طه حسين كثيرا من « قصائده » يدافع فيها عن استقلال مصر فى هذه الفترة ونشر معظمها فى صحف الحزب الوطنى ، ومن نماذج هذا الشعر قوله فى احدى قصائده ، مخاطبا الانجليز فى قصيدة كتبها عام ١٩٠٩ :

تيمموا غير وادى النيل وانتجعوا
فليس فى مصر للأطماع متسع

كفوا مطامعكم عنا ، أليس لكم
مما جنيتم وما تجنونه شبع ؟ ..

وفى قصيدة أخرى قالها يخاطب العام الهجرى الجديد :

كن أنت بعد أخيك خير هلال
وأضىء لمصر سبيل الاستقلال

أشرق وحدث مصر عن آمالها
ماذا صنعت بهذه الآمال
أمصدق فيك الظنون وناظر
للنيل نظرة مالح وصال ؟ ..
ومبدد عن مصر بعض همومها
فلقد أضر بها أخوك الخالى
أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها
من ريبهن بوابل هطال

وقال غير ذلك من النماذج الشعرية التى تعتبر الآن أثرا طريفا من آثار طه حسين والتى جمع الكثير منها الأستاذ محمد سيد كيلانى فى كتابه الممتاز القيم « طه حسين الشاعر والكاتب » ..

وكل هذه النماذج وغيرها من كتابات طه حسين ، تدلنا على شىء واحد هو أن ارتباط طه حسين بالحزب الوطنى كان هذه المرة ارتباطا سياسيا ولم يكن ارتباطا فكريا ، فما زال طه حسين مؤمنا بآرائه التى تشده الى لطفى السيد ومثقفى حزب « الأمة » الذى مات الآن وانحل من الدعوة الى فصل الدين عن الدولة ، والى تحرير المرأة ، وما الى ذلك من آراء لا يوافق عليها الحزب الوطنى ..

أما من الناحية السياسية فطه حسين ينادى بمبادىء الحزب الوطنى وهى الجلاء التام والاستقلال الكامل ..

وقد ظل طه حسين على ارتباطه السياسى غير الفكرى بالحزب الوطنى حتى سافر الى فرنسا فى بعثة دراسية عام ١٩١٤ بعد أن نال الدكتوراه من الجامعة المصرية ..

وعاد طه حسين بعد انتهاء بعثته فارتبط من جديد ارتباطا عميقا بلطفى السيد وجماعة المثقفين الذين كانوا أعضاء فى حزب « الأمة » القديم أو كانوا أصدقاء لهذا الحزب ، ولم يعد طه حسين بعد رجوعه من فرنسا الى الاتصال بالحزب الوطنى على الاطلاق ..

ويمكننا أن نجد فى هذه المرحلة من حياة طه حسين عنصرا جديدا يفسر لنا زيادة ارتباطه بهذه المجموعة من المثقفين ، لقد كان طه حسين يحس بعد أن تمكن من تعليم نفسه وتدعيم ثقافته ، انه قد عاد من باريس وهو يحمل فى عقله آراء جديدة سوف تصدم الرأى العام حتما صدمة عنيفة . وان مثل هذه الآراء الجديدة تخالف التقاليد والأفكار التى تعود عليها الرأى العام . ولقد كان طه حسين يتوقع ــ وهو محق فى ذلك ــ أن يثور ضده الرأى العام ثورة عنيفة وخاصة ان الأمية كانت منتشرة فى صفوف الشعب ، وان التقاليد الفكرية المحافظة كانت معششة فى العقول بصورة قاسية ..

ومن هنا تصور طه حسين انه لا مأمن لفكره الا بين نخبة من المثقفين ، ولو كانت هذه النخبة قليلة ، ولكنها على أى حال سوف تفهمه وتقدره بل وسوف تقدم له الحماية وتدافع عنه ..

ولذلك لم يفكر طه حسين بعد عودته من أوروبا فى أن يرتبط بحزب شعبى ، فالحزب الشعبى عادة يمتد الى قاعدة جماهيرية كبيرة ، وهو يحرص على ارضاء هذه القاعدة ، وعدم استفزازها أو تبنى آراء لا توافق عليها . ولقد كان الحزب الشعبى الذى بدأ يظهر ويستولى على قيادة الحياة السياسية فى ذلك الحين هو حزب الوفد ..

لم يرتبط طه حسين بالوفد بعد عودته من باريس ، ولم يقف الى جانبه ، بل ظل مرتبطا ببقايا حزب « الأمة » ، وأصدقاء هذا الحزب ، من أمثال عدلى ، وثروت . وفى عام ١٩٢٢ تم انشاء حزب « الأحرار الدستوريين » من بين أعضاء حزب « الأمة » القديم ، وقد أنشىء هذا الحزب لمعارضة الوفد ، وللوقوف الى جانب السراى فى حربها مع الوفد

وانضم طه حسين الى هذا الحزب واشترك فى صحيفته « السياسة » التى كان يرأس تحريرها أحد كبار المثقفين فى حزب «الأحرار الدستوريين» بل وفى مصر كلها وهو الدكتور محمد حسين هيكل ، قريب لطفى السيد وتلميذه . وكان طه حسين فى ذلك الحين مدرسا فى كلية الآداب بالجامعة

المصرية . ووقف طه حسين فى هذه الفترة بعنف وقوة ضد الوفد وضد سعد زغلول ..

ولا شك ان هذا الموقف من جانب طه حسين ــ فى التقييم السياسى ــ كان موقفا خاطئا فالوفد فى ذلك الحين كان أكثر الأحزاب المصرية ثورية وقربا من الشعب ، بينما كان الأحرار الدستوريون بعيدين عن الشعب ومصالحه فهم مجموعة من الأعيان والاقطاعيين ..

ولكن موقف طه حسين فى ذلك الحين كان وراءه أكثر من مبرر .. فكما أشرت كان حزب « الأحرار الدستوريين » (وقد احتوى حزب « الأمة » القديم وأضاف اليه) يضم جناحا من كبار المثقفين المتحررين الى أقصى حد وكان على رأسهم أيضا لطفى السيد ، الذى كان على رأس الجناح المثقف فى حزب « الأمة » القديم أيضا ..

وهذه البيئة من المثقفين كانت تتقبل طه حسين وتساعده بكل ما فيه من تمرد فكرى وثورة عقلية ولم تكن تنفر منه أو تضيق به ، كما كان المتوقع لو ان طه حسين انضم الى حزب الوفد ، حيث لم يكن الوفد يستطيع ــ بسبب قاعدته الشعبية ــ أن يتقبل مثل هذه الآراء الفكرية الجديدة التى تصدم الجماهير فى تقاليدها الفكرية المختلفة ..

ومن ناحية أخرى لم يكن حزب الوفد ولا قيادة سعد زغلول فوق الشبهات . فلقد بدأ الوفد يفكر بعقلية البحث عن السلطة أى انه بدأ يتخلص من ثوريته الحارة العنيفة التى مكنته من قيادة ثورة عام ١٩١٩ ، وبدأت المآخذ تظهر ضد سعد زغلول من جماعات متعددة من بين المثقفين على وجه الخصوص . فكانوا يأخذون عليه نوعا من « المكيافيللية » السياسية ، ويأخذون عليه استبداده واصراره على قيادة الحركة السياسية المصرية ــ التى اشترك معه فى قيادتها كثيرون من زملائه الأكفاء ــ بطريقة فردية متسلطة لا تعطى فرصة العمل للآخرين . وسواء صحت هذه المآخذ على سعد زغلول أو لم تصح ، فمن المؤكد انه كان قد فقد لمسة الاجماع على زعامته الى حد يقرب من التقديس خلال ثورة

عام ١٩١٩ . لقد فقد اللمسة فى عام ١٩٢٢ (حين أنشىء حزب « الأحرار الدستوريين » وما بعده الى عام وفاته ١٩٢٧) ..

ومن هنا لم يعد سعد فوق النقد .. ولم يعد حائزا على الولاء المطلق لقيادته وزعامته ..

ومما لا شك فيه أيضا ان العلاقة الشخصية كان لها دور فى هذا الموقف الذى اتخذه طه حسين ضد الوفد وضد سعد زغلول . فلقد كان طه حسين على علاقة عميقة بلطفى السيد منذ بداية هذا القرن ، كما كان على علاقة وثيقة بأسرة عبد الرازق (حسن عبد الرازق ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق) وكانت هذه الأسرة من دعائم حركة الأحرار الدستوريين كما كانت من قبل من دعائم حزب « الأمة » ، وكانت هذه الأسرة بالذات قريبة الى قلبه لأن من بين أفرادها عالمين كبيرين تعلما فى الأزهر مثلما تعلم طه حسين ، ولكنهما كانا من أكثر المنادين بالتجديد والتحرر فى الفكر العربى الاسلامى عموما ، وقد خاضا كثيرا من المعارك فى سبيل هذا التجديد . هذان العالمان هما مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ..

تجمعت هذه العوامل كلها فربطت بين طه حسين وبين « الأحرار الدستوريين » وأبعدته عن الوفد . وفى هذه الفترة نفسها كان هناك زميل آخر لطه حسين .. ابن من أبناء جيله .. وواحد من ألمع مفكرى هذا الجيل .. هو عباس العقاد .. وكان العقاد يقف فى الطرف المقابل لطه حسين .. كان يرتبط بالوفد وبسعد زغلول أشد الارتباط ..

ولعل المقارنة بين الكاتبين تساعدنا على الوصول الى مزيد من الوضوح فى موقف طه حسين ، فلقد كانت المعركة فى حياة العقاد معركة مادية .. لقد خرج من أسرة فقيرة جدا ، مما أضناه وأرهقه ، وجعله فى بداية حياته قريبا جدا من واقع الشعب وحياة جماهيره ، بينما طه حسين لم يعان كل هذه القسوة فى بداية حياته ، بل وجد من أسرته المتوسطة ما يعينه على مواصلة تعليمه . وكانت المعارك الفكرية الأولى فى حياة

العقاد مع شوقى وهو شاعر كبير وارستقراطى كبير وقد تجسدت فى هذه المعركة العنيفة بين العقاد وشوقى وكأنها معركة مع كل من يمثلهم شوقى من الارستقراطيـة الفكرية التى كانت تملأ حـزب « الأمة » ، وحزب « الأحرار الدستوريين » من بعـده ، بينما كانت معركة طه حسين مع الأزهر ، أى مع الرأى العام كله ، ذلك الرأى العام الذى كان يعتبر أى هجوم على الأزهر هجوما على الدين .. لا يقبله ولا يقره ..

ومن ناحية ثالثة لم يظهر العقاد بأى آراء ـ فى القضـايا الكبرى ـ تصدم الرأى العام وتثيره .. بينما كانت كل آراء طه حسين فى بداية حياته الفكرية صدمة مستمرة متواصلة للرأى العام . ومن هنا كان العقـاد قادرا على أن يقف بلا خوف فى صف الرأى العام ، بينما كان طه حسين عاجزا عن أن يلتزم هذا الموقف ..

على كل حال لم يمض وقت طويل حتى جاءت المعركة الحاسمة الأولى فى حياة طه حسين وهى معركة كتابه « فى الشعر الجاهلى » فقد صـدر هذا الكتاب فى عام ١٩٢٦ . وأثار زوبعة ضخمة فى الرأى العام انعكست على مجلس النواب الذى كانت أغلبيته وفدية . وكان يرأسه سعد زغلول بينما كان رئيس الوزراء هو عبد الخـالق ثروت المتعاطف مع الأحرار الدستوريين والمعادى للوفد . ومن الأشياء الدالة على موقف طه حسين انه أهدى كتابه فى طبعته الأولى الى عبد الخالق ثروت ، وكان نص هذا الاهداء الذى لم يظهر فى الطبعات التالية هو :

« الى حضرة صاحب الدولة عبد الخالق ثروت (باشـا) .. سيدى صاحب الدولة ... كنت قبل اليوم أكتب فى السياسة وكنت أجد فى ذكرك والاشادة بفضلك راحة نفس تحب الحق ، ورضا ضمير يحب الوفاء . وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة ، واذا أنا أراك فى مجلسها كما كنت أراك من قبل ، قوى الروح ، ذكى القلب ، بعيد النظر ، موفقا فى تأييد المصالح العلمية توفيقك فى تأييد المصالح السياسية . فهل تأذن لى فى أن أقدم اليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والاجلال العظيم » ..

وهكذا أهدى طه حسين كتابه ، أو قنبلتــه الفكرية الى عبد الخالق ثروت ، صديق الأحرار الدستوريين ، وصديق جناحهم المثقف على وجه الخصوص ..

ولا شك ان طه حسين كان يعرف ان كتابه سوف يثير زوبعة فكرية ضخمة ، ولم يتوقع الحماية من الرأى العام ، وانما توقع هذه الحماية من النخبة المثقفة التى كانت ترتبط ارتباطا حزبيا بالأحرار الدستوريين أو تربطهم به رباط صداقة ومودة من أمثال : لطفى السيد ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد الخالق ثروت ، ومصطفى عبد الرازق ، وعلى عبد الرازق

وقامت الزوبعة بالفعل ... ووقف البرلمان الوفدى برئاسة سعد زغلول ضد طه حسين ، وتقدم النــائب الوفدى عبد الحميــد البنان ببلاغ الى النيابة ضـــد طه حسين ، وألقى ســعد زغلول نفسه خطــابا فى احدى المظاهرات التى قامت تطالب برأس طه حســين بسبب كتابه ... وقال سعد فى هذا الخطاب :

« ان مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها .. هبوا ان رجــلا مجنونا يهذى فى الطريق ، فهــل يضير العقلاء شىء من ذلك .. ان هذا الدين متين ، وليس الذى شك فيه زعيما ، ولا اماما حتى نخشى من شكه على العامة . فليشك ما شاء . وماذا علينا اذا لم تفهم البقر » ..

ويمكن متابعة تفاصيل هذه القضية المثيرة فى كتاب « فصول ممتعة » للأستاذ محمد سيد كيلانى ..

والسؤال هنا ...

من الذى دافع عن طه حسين عندما اتهمه الوفديون وزعيمهم بأنه فى كتابه عن الشعر الجاهلى ملحد خارج عن الدين ؟ ..

ان الذين دافعوا عنه ووقفوا الى جانبه هم :

أولا : لطفى السيد مدير الجامعة وهو أحد أعلام الأحرار الدستوريين وأحد مؤسسى الحزب ، وهو الذى كتب أول بيان خرج به الحزب على

الناس ، وألقاه عدلى (باشا) فى أول اجتماع للحزب « فى فندق شبرد القديم » ... وكان لطفى السيد قد انفصل عن الأحرار الدستوريين ــ شكليا ــ بعد أن أصبح مديرا للجامعة . باعتبار ان منصب مدير الجامعة يجب ألا يكون منصبا حزبيا ..

ثانيا : على الشمسى وزير المعارف آنذاك ... وكان فى ذلك الوقت قريبا من الأحرار الدستوريين محسوبا عليهم ... وقد دافع « على الشمسى » فى البرلمان عن طه حسين دفاعا صريحا وقال للنواب فى دفاعه : « اننا نطمع فى أن تكون الجامعة معهدا طلقا للبحث العلمى الصحيح » ..

ثالثا : « وهذا هو الأهم » عبد الخالق ثروت نفسه ، وقد كان رئيسا للوزراء وهو الذى أهدى له طه حسين ــ كما أشرنا ــ كتابه الذى أثار كل هذه العاصفة العنيفة ..

وعبد الخالق ثروت من كبار أصدقاء الأحرار الدستوريين ، وان كان من الناحية الشكلية يبدو مستقلا . وقد هدد ثروت بالاستقالة اذا أصيب طه حسين بأى ضرر .. وهكذا وقف حزب « الأحرار الدستوريين » الى جانب طه حسين ... بينما وقف الوفد ابتداء من زعيمه سعد زغلول ضد طه حسين ... وقف حزب الأقلية مع حرية الرأى ... ووقف حزب الأغلبية ضد حرية الرأى... وقفت النخبة المثقفة التى تلتف حول الأحرار الدستوريين مع طه حسين .. ووقفت الجماهير العريضة ، بأفكارها المحافظة ضد طه حسين ، وتابعت قيادة الوفد هذا الموقف ، بل وغذته بعنف وقسوة ..

وكان طه حسين فى ذلك الحين يبدو من الناحية الشكلية أيضا مستقلا بعيدا عن الأحزاب ، لأنه أستاذ فى الجامعة .. والأستاذ الجامعى يجب أن يكون فوق الأحزاب ..

ولقد حرص طه حسين فى هذه الفترة حرصا كاملا على استقلاله الشكلى ... ولكنه كان يميل بالتأكيد الى الأحرار الدستوريين ، بسبب

موقفهم من حرية الرأى ، ومســاندة مثقفيهم للتجديد الفكرى مساندة واضحة ..

وقد اضطر طه حسين فى هــذه المعركة الى سحب كتابه « فى الشعر الجاهلى » وحذف بعض الفقرات التى أثارت هذه الحملة العنيفة ضده ، ثم أعاد اصداره باسم جديد هو «فى الأدب الجاهلى» وان كان طه حسين قد أعلن أكثر من مرة انه متمسك بمـا جاء فى الطبعة الأولى من كتاب « فى الشعر الجاهلى » .. وانه لو وجد فرصة لأعاد نشر هده الاراء ..

وهدأت العاصفة بعد أن حــذف طه حسين من الكتاب ما تسبب فى اثارة هذه العاصفة ..

واستمر طه حسين مرتبطا بالأحرار الدستوريين وآستاذا فى الجــامعة أعواما متعددة الى أن وصل الى منصب عميد لكلية الآداب ..

*

وجاء عام ١٩٣٢ ليحمل معه مرحلة جديدة فى حياة طه حسين السياسية ففى هذا العام كان على رأس الحكومة الطاغية الرجعى اسماعيل صدقى . لقد جاء به الملك فؤاد الى الحكم ليضــمن عن طريقه أن تكون السلطة مطلقة فى يد السراى . وجاء صــدقى نفســه الى الحكم ليخدم بمنتهى الصراحة والوضوح الرأسمالية المصرية الناشئة ، التى تريد أن تشترك مع الاستعمار فى نهب البلاد واستغلالها ..

وأراد صدقى أن يكتسب كل الصفات الشكلية التى تؤهله لرياســة الوزارة ولتحطيم الدستور . وللقيام بدور البطولة فى ظل الديموقراطيــة الزائفة ..

لقد كانت هذه الديموقراطية تقتضى وجود حزب وصحيفة معبرة عن هذا الحزب وأغلبية برلمانية ... وألف صدقى (باشا) بالفعل حزبا جديدا هو حزب الشعب ، وعقد الحزب « المفتعل » أول اجتماعاته فى ١٧ نوفمبر عام ١٩٣٠ ، وأصدر جريدة للحزب اسمها « الشعب » أيضا ، وأجرى انتخابات زائفة قاطعها الشعب « الحقيقى » وسالت فيها دماء المواطنين

وتمكن صدقى من تزييف برلمان يؤيده بأغلبية الأصوات ..

وكان طه حسين فى هذا الوقت عميدا لكلية الآداب ، فطلب منه صدقى (باشا) أن يحرر جريدة « الشعب » المدافعة عن الحكومة ، ورفض طه حسين هذا الطلب . فقد كان أصدقاؤه ــ الأحرار الدستوريون ــ متحالفين مع الوفد فى معارضة الحكومة القائمة معارضة حاسمة . وكانت الأمة كلها غاضبة على هذه الحكومة ..

ولكن السبب الأكبر ــ فيما أعتقد ــ لرفض طه حسين التعاون مع صدقى (باشا) هو الرجعية الفكرية الواضحة التى كانت تتميز بها هذه الحكومة . فقد أغلقت الحكومة « معهد التمثيل والرقص التوقيعى » بحجة انه يمس الآداب العامة . وحاربت الاختلاط بين الشباب والفتيات فى الجامعة حربا قاسية شعواء ، وأثارت عديدا من المعارك والحروب ضد حرية الفكر . وضد التجديد الفكرى بالذات . فكيف يقبل طه حسين المفكر المجدد المستنير أن يتعاون مع حكومة تتصف بكل هذه الرجعية الفكرية ؟ ..

كيف يقبل أن يتعاون مع حكومة تغلق معهد التمثيل ، وهو المؤمن بالفن المسرحى ، والذى كاد يطير فرحا ، عندما قرأ فى ذلك الوقت تقريبا مسرحية « أهل الكهف » .. أول مسرحية لتوفيق الحكيم .. حيث اعتبر طه حسين هذه المسرحية بداية لفن جديد فى الأدب العربى هو فن المسرح

كيف يتعاون مع هذه الحكومة وهو المؤمن بحرية المرأة وبضرورة تعليمها تعليما كاملا ، والذى يؤمن ان الاختلاط فى الجامعة حق طبيعى للفتاة والشاب ؟ ! ..

كان من الطبيعى اذن أن يرفض طه حسين التعاون مع هذه الحكومة الرجعية العنيدة فى رجعيتها . وقررت الحكومة من جانبها أن تحارب طه حسين . فعزلته من منصبه كعميد لكلية الآداب ، وعينته مفتشا للغة العربية فى وزارة المعارف ، وتقدم بعض النواب الى وزير المعارف باستجواب يفتح قضية طه حسين القديمة التى أثيرت منذ ستة أعوام عند

صدور كتاب « فى الشعر الجاهلى » وتساءل هؤلاء النواب كيف تسمح الحكومة لكاتب « ملحد خارج على الدين مثل طه حسين » أن يبقى فى عمله ؟ ! ..

وكانت الاتهامات فى هذا الاستجواب ضد طه حسين مركزة فيما يلى :

١ — « انه ظهر فى صورة نشرت فى جريدة « الاهرام » تمثل طلبة كلية الآداب حول عميدهم — الدكتور طه حسين — وقد جلست كل شابة الى جانب شاب » ..

٢ — « ان الدكتور طه حسين المسئول المباشر عن جميع ذلك هو الرجل المعروف بمصادمة آرائه لنصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية وقد ظهر عداؤه للاسلام فى كثير من تعاليمه وآثاره ، منها كتاب «فى الشعر الجاهلى » الذى ضجت عند صدوره البلاد بأسرها . ولا يزال هذا الكتاب يدرس فى الجامعة بعنوان « فى الأدب الجاهلى » ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئا من روحه اللادينية ، كما وانه قد زين للشبان وسائل المجون والفسوق فى مؤلفه « حديث الأربعاء » ولا يمكن للأمة أن تطمئن الى وعوده المتكررة بالعدول عن هذا السبيل المعوج ، فسوابقه لا تشجع على تصديقه » ..

وينتهى هذا الاتهام بتحريض صريح ضد الدكتور طه حسين حيث يقول : « حضرات النواب » فى ختام اتهامهم « فكيف سكتت وزارة المعارف عن ذلك كله ، ولم تحرك ساكنا ؟ .. وكيف تسمح أن يكون هذا الرجل عميدا لكلية الآداب بعد أن افتضح أمره ، وضجت الأمة من خطر تعاليمه وآرائه » ..

ونص هذا الاتهام المثير الطريف الذى وجهه النواب — فى البرلمان — الى طه حسين عام ١٩٣٢ منشور فى كتاب « طه حسين الكاتب والشاعر» للأستاذ محمد سيد كيلانى ..

وعوقب طه حسين من حكومة صدقى بنقله — كما أشرنا — الى وزارة المعارف ... وفى اليوم الأول لنقله من الجامعة أضرب طلاب الجامعة تحت

قيادة الطلاب الوفديين . وخرجوا فى مظاهرة ضخمة الى بيت طه حسين حيث استقبلوه وحملوه على الأعناق وهتفوا بحياته .. وحياة الفكر الحر المضطهد ! .. ومن يومها رفض طه حسين الذهاب الى وزارة المعارف .. ومن يومها بدأ تحول جديد فى حياته ! ..

لقد أحس ان الجماهير التى تخلت عنه فى الماضى تقف الى جانبه وتؤيده ضد حكومة صدقى الرجعية ، وأحس ان الحكومات والأحزاب الرجعية لا يمكن أن تؤيد الفكر الحر الا اذا ضمنت ان لها من وراء هذا التأييد مصلحة كبيرة ضخمة . فلقد كان الأحرار الدستوريون على سبيل المثال يحتضنون المثقفين ويسبغون عليهم الرعاية ، ليكسبوهم حولهم تعويضا لهم عن انصراف الشعب عنهم ، ومحاولة من جانبهم لاكتساب شىء من الاحترام والتقدير ..

والأحزاب والحكومات والرجعية عموما لا يمكن أن تؤيد الفكر الحر أيضا الا عندما تحس ان هـذا الفكر ليس له ترجمة فى الواقع العملى تمثل خطرا عليهم ... فلو كانت ترجمة الفكر الحر عمليا ـ هى الدعوة الى مجانية التعليم أو الى نشر العدل بين المواطنين ... فهى ـ فى هـذه الحالة ـ دعوة مرفوضة تستحق الابادة ! ..

لقد اكتوى طه حسين بالرجعية فى صـورة عملية مباشرة ... وكانت آراؤه الآن قد بدأت تتبلور فى الدعوة الى نوع من التغيير الاجتماعى العميق بتوسيع قاعدة التعليم والعـدل فى صـفوف المجتمع ، وكانت الجماهير التى انصرفت عنه فى الماضى قد بدأت تقبل عليه الآن ، وتمنحه التأييد والتقدير ..

ومن عام ١٩٣٢ حتى عام ١٩٣٦ كان طه حسـين يتحول بسرعة الى الارتباط بالوفد وجماهيره وصحافته ! ..

ومن غرائب المصادفات ان طه حسين كان يتقرب فى هـذه الفترة من الجماهير ، بينما كان مفكر آخر كبير يبتعد عن الجماهير بعد أن تخلت عنه ... وكأن القدر لم يرد لهذين المفكرين الكبيرين أن يلتقيا فى معسكر

سياسى واحد ... هذا المفكر الآخر هو عباس العقاد ، ففى هذه الأعوام الحاسمة بالذات بدأ العقاد ينفصل عن الوفد ، ودخل معركة عنيفة ضده . ثم انتهى به الأمر فى عام ١٩٣٦ الى الوقوف فى معسكر الأحرار الدستوريين ثم فى معسكر السعديين ... أى فى معسكر الأقليات الرجعية التى ينطوى تحت جناحها بعض المثقفين اللامعين !

أما طه حسين فمنذ اصطدامه بحكومة صدقى بدأ يوثق صلته بالوفد . حتى أصبح فى عام ١٩٥٠ وزيرا للمعارف فى آخر وزارة وفدية ! ..

وكالعادة لم يرتبط طه حسين بالوفد ارتباطا حزبيا مباشرا ... أى انه لم يصبح عضوا فى أى منظمة من منظمات الوفد ، ولكنه ارتبط به عن طريق الصحافة والعلاقات الشخصية المباشرة ..

وفى هذه المرحلة التى امتدت من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٥٢ حدث تحول آخر فى موقف طه حسين الفكرى . لاشك ان التحول السياسى كان نتيجة من نتائجه ... هذا التحول الفكرى هو ان طه حسين انتقل من الدعوة الى الجديد فى الفكر الى دعوة أخرى ، هى التجديد فى المجتمع نفسه ..

لقد بدأ يطالب بتعميم التعليم ومجانيته ، وبدأ يطالب برفع الظلم الاجتماعى عن الطبقات الشعبية ، وأخذ يعود الى التاريخ الاسلامى نيستمد منه البراهين المختلفة على ان الاسلام كان ثورة اجتماعية ضد الظلم المادى ، وأثبت فى عديد من كتبه مثل كتاب « الوعد الحق » ان الدعوة الى العدل أساس من أسس الاسلام . ففى هذا الكتاب يتحدث عن الأرقاء الذين ناضلوا وتعذبوا من أجل الاسلام ، وكان هذا الكتاب معناه ان العدل الاجتماعى مطلب أساسى من مطالب الاسلام ..

هكذا أصبح طه حسين الآن ، فى مرحلته الجديدة ، قائدا من قادة التغيير الاجتماعى ، وكان هذا التغيير الاجتماعى يلتقى مع أعمق معانى التغيير الفكرى وأروعها وأكثرها اصالة وجدية . فلم يعد فى دعوته الى التجديد الفكرى يحس — كما كان يحس من قبل — بالرغبة فى العزلة عن الجماهير والتعالى عليها ، وبأن لا مكان له ، كمفكر مجدد ، الا بين

النخبة والصفوة القليلة ... كلا .. انه يستطيع أن يصل الى أروع معانى التجديد الفكرى من خلال ارتباطه بالمصالح الأساسية للطبقات الشعبية

ان حمـاية الرجعيين للفكر الحر هى حمـاية متقلبة مترددة ، تخضع لمقياس المصالح الخاصة المحدودة . أما حماية الشعب كله فهى أفضـل وأبقى وأكثر منطقا ووضوحا . ولعله اكتشف فى هذه المرحلة من حياته ان المفكر المجدد الحر لايستطيع أن يعيش مستريح الضـمير بين شعب جاهل فقير متأخر . ومن هنا خاض طه حسين المعركة فى هذه المرحلة مع الشعب كله ومن أجله ..

ولم يكن ارتباطه بالوفد ارتباطا حزبيا بالمعنى الضيق ، بل كان بحثا عن وسيلة جديدة لتوصيل أفكاره الى الناس وتحقيقها فى الواقع . ولقد كان طه حسين داخـل حزب الوفد خير مدافع عن « تأميم » التعليم ، سواء فى كتبه المعروفة مثل كتابه « مستقبل الثقـافة فى مصر » أو فى مواقفه العملية المختلفة ..

ولقد لقى من وراء موقفه عنتا شديدا ، وتشهيرا لا حد له من الأوساط الرجعية ... تلك الأوسـاط التى كانت تعزو اليه انه أفسـد التعليم بسياسته التى كان شعارها « العلم كالماء والهواء حق للجميع » ..

ومن الملاحظ ان طه حسين فى هذه الفترة من حياته أصبح أكثر ميلا الى المحافظة فى آرائه الفكرية ، بينما انتقل تطرفه الى مواقفه الاجتماعية بل لقد عاد الى دراسة الاسلام ، الذى اتهم فى بداية حيـاته بمهاجمته ، ولكنه استطاع من خلال دراساته الاسلامية أن يبلغ منهجه الجديد فى التفكير الى الجمـاهير الواسعة . وذلك من خلال احترامه لعقـائدها وأفكارها المختلفة ..

فهو يغير من النظرة الشائعة للاسلام على انه دين روحى فقط ... بل يثبت انه دين يدعو الى الثورة الاجتماعية بغاية أسـاسية هى تحقيق العدل ، حتى لقد اتهم طه حسين بسبب كتبه التى ظهرت فى هذه المرحلة الأخيرة من حياته اتهامات سياسية متعددة ، وصودرت بعض كتبه نتيجة

لهذه الاتهامات .. ويمكننا أخيرا أن نلخص الخصائص العامة التى ميزت علاقة طه حسين بالأحزاب السياسية فيما يلى :

أولا : كانت علاقاته السياسية فى خدمة أفكاره ، لقد كان على الدوام يبحث عن بيئة مناسبة لفكره الحر المتفتح ويرتبط بهذه البيئة أينما وجدها

ثانيا : لم يدخل طه حسين أبدا ضمن تنظيمات حزبية محددة ، بل كان يرتبط بالأحزاب ارتباط الصداقة والتعاطف الواضح دون أن يكون عضوا فى التنظيمات المختلفة لهذه الأحزاب ..

ثالثا : فى أشد أيام ارتباط طه حسين بالأحزاب الرجعية ، لم يناصر فى كتاباته أو تصرفاته ، الاقطاع ، أو الرأسمالية ، أو أى نوع من أنواع الرجعية الاجتماعية ، أو الفكرية . وكل ما يؤخذ عليه فى فترة ارتباطه بأحزاب الأقليات انه أمدها بتأييد معنوى راجع الى مكانته الفكرية وقدرته فى التأثير على الجماهير كما انه اشترك مع الأحزاب الرجعية فى بعض معاركها السياسية اليومية ... حيث شن — على سبيل المثال — حملة عنيفة لمصلحة الأحرار الدستوريين ، على الوفد وسعد زغلول ..

رابعا : ظل فكر طه حسين الأساسى بمعزل عن الضياع فى زحمة الحياة السياسية . ولذلك احتفظ دائما بشخصيته الفكرية المستقلة ، رائدا مستنيرا ... وعندما سقطت الأحزاب بعد الثورة لم يسقط طه حسين ، بل واصل طريقه المستقل فى الفكر والحياة ..

خامسا : خط اتجاه طه حسين فى السياسة تأثر بموقفه الفكرى الى حد بعيد ... فقد كان فى البداية يؤمن بالتجديد الفكرى ولا يلتفت الى التجديد الاجتماعى الا قليلا ، أما فى المرحلة الأخيرة التى بدأت منذ عام ١٩٣٢ فقد آمن بالتجديد الاجتماعى وآمن بأنه لا قيمة لتغيير الفكر بدون تغيير المجتمع ..

وهذا هو ما يجعل طه حسين بحق مقدمة كبيرة من مقدمات الثورة الشاملة على الأوضاع الرجعية التى انهارت ، بعد كفاح طويل ، عام ١٩٥٢

المــرأة .. فى أدب طــه حســين

صوفى عبــد الله

يضل ضلالا بعيدا من يتناول أدب طه حسين مجردا عن البعد الاجتماعى . فهو فى أدبه كله يدير الأحــداث والشخصيات والأفكار مرتبطة كلها بأبعادها الاجتماعية أشد الارتباط لأنها تستمد وجودها الحى ، وتطورها ، وتقلبها ، وخطرها ، من تلك الأبعاد الاجتماعية قبل كل شىء . فلا سبيل الى فهم شىء من هــذا كله الا عن هذا الطريق ..

وطه حسين فى أعماله الفنية الابداعية جميعا ــ ابتداء من سيرة حياته فى كتاب « الأيام » الى أعماله القصصية على تباينها فى المنزع والأسلوب ــ يأخذ نفسه بتصوير آفاق الحياة كما خبرها فى صعيد مصر ، وفى ربوع ذلك « الحى العتيق بين (الباطنية ، وكفر الطماعين) فى القــاهرة » ، مجاورا فقيرا وطالب علم مكافحا . ثم فى الأحياء الأنيقة المترفة وقد غدا أستاذا جامعيا وأديبا وقائدا من قادة الفكر فى أمته مرموق المكانة مسموع الكلمة موسعا عليه فى الرزق ..

ولا سبيل الى أن تكون صورة حياة قوم ، فى مجتمع ما ، صادقة ما لم يكن للمرأة فى هذه الصورة مكان وأى مكان ... ولا سيما حينما تكون هذه الصورة نتاج وجدان أديب كان منذ نعومة أظفاره شــديد الحاجة الى المرأة . بل أشد حاجة اليها من الكثرة الغالبة من النــاس . بسبب

« ظروفه المعينة » .. فهى العشير والأنيس والمعين والصديق الذى لايكاد يكون له عنها غنى .. ان كان لسواه من الناس غنى عنها بحال من الأحوال ..

وقد جاءت صورة « المرأة » من نتاج وجدان هذا الأديب ثمرة طبيعية فيها كل خصائص حياته الخصبة المتنوعة الآفاق فكريا واجتماعيا أشد ما يكون التنوع ، على امتداد حقبة من الزمن تترامى من أواخر القرن الماضى الى صميم هذا القرن العشرين . وهى أشد حقب تاريخنا الاجتماعى ازدحاما بالتقلبات والاندفاع فى التطور بين قديم مسرف فى التخلف والجمود وجديد مسرف فى التطلع الى التحرر ..

وذلك كله حرى أن يجعل صورة « المرأة » فى أدب طه حسين تسجيلا حيا دقيقا شديد التنوع لما قطعناه من أشواط بعيدة فى مراحل تطورنا الاجتماعى والفكرى ..

وأحفل ما يكون هذا الوطاب الأدبى الفكرى من نتاج وجدان طه حسين يصور واقعنا الاجتماعى الصميم فى ريف مصر وحواضره لاسيما فى الصعيد . فاذا بنا نلتقى وجها لوجه بالأم الصعيدية العريقة الحصان والكاعب الصعيدية الرزان ، والغانية « الغازية » اللعوب ، وتاجرة الأسرار والغوايات ، والمرأة الميسورة المستغنية بجاه أسرتها ، والمرأة الفقيرة الكادحة المتجملة ، والمرأة المحرومة المنكودة المتعففة ، والمرأة الأثيرة عند زوجها ، والزوجة المبتلاة بما يكون فى حياة الضرائر من محنة وعذاب ، والعذراء أو الكاعب التى أوتيت من رقة القلب ورهافة الحس ما لاتفهمه أو تسيغه بيئتها وتضيق به دنياها .. تلك الدنيا التى صاغ العرف الاجتماعى قوالبها الفولاذية الصماء ..

● ارض الشدائد ●

وما أشبه ذلك المجتمع المصرى الصميم فى أخريات القرن الماضى بأرض الشدائد التى لا تنبت سوى شجر السنط ، بصلابته وأشواكه وأعواده العجفاء ..

فالمرأة من نتاج أرض الشدائد هذه أمرها يوشك أن يكون عجبا يجاوز غاية العجب . حتى لتكاد تنكره أشد الانكار فى يومنا هذا كأن لم تكن تلك المرأة جدتنا نحن قبل جيلين من الناس أو ثلاثة أجيال على أكثر تقدير ..

فلئن كان الجمود والتزمت والضغط الاجتماعى والتفاوت الطبقى العنيف ، والحواجز الطبقية الصلدة سمات ذلك المجتمع ، وجوهر أرض الشدائد هذه وما ينبت فيها على اختلاف صنوفه من المخلوقات الآدمية فحظ المرأة من هذه الشدائد مضاعف .. أيا كان مكانها من السلم الاجتماعى ..

فقد تكون المرأة ثرية غاية الثراء ، أو فقيرة أشد الفاقة . وقد تكون جميلة أثيرة ، وقد تكون قبيحة مزدراة . فهى على كل حال امرأة أنثى ، وهى فوق خضوعها لكل صنوف الضغط الطبقى الذى يتحكم فى حياة الرجال من أبناء بيئتها ومصائرهم تخضع أيضا لضغط طبقى خاص بها ، مؤداه ان مرتبتها دون مرتبة الرجل ، وان العرف الاجتماعى فى طبقتها ، وفى مجتمعها بكافة طبقاته ، يصوغه الرجل وحده على آساس سيطرته التامة عليها ماديا وفكريا .. فهى « شىء » أو تكاد تكون « شيئا » ونصيبها من حقوق الآدمية لابد أن يكون ضئيلا ، فهو أضأل من نصيب الرجل فى طبقتها على كل حال ..

وأنكى من هذا كله وأدهى ــ على خطره الشديد ــ ان المرأة نفسها كانت تجد ذلك العنت المزدوج طبيعيا جدا فى الغالب الأعم .. فتقوم بوجدانها على رعايته وحراسته ، وتجد فى خروجها عليه عارها كله وضياعها كله .. وبذلك يكون خضوعها المزدوج ، وخنوعها المضاعف ، كفاء العنت المزدوج والضغط المضاعف الواقعين عليها من خارج فى سائر أطوار حياتها : كاعبا ، وزوجة ، وأما ..

وفى ضوء هذا « البعد الاجتماعى » تبرز صورة المرأة حية نابضة ــ لا مسطحة فاترة تجريدية خامدة ــ أينما التقينا بها وجها لوجه فى أدب طه حسين الابداعى الغزير المتنوع ..

● الأم .. ●

وتتبع الترتيب الطبيعى الذى عرف به طه حسين المرأة أو تعرف اليها فى حياته . فنبدأ بالأم ، والأم هى الذروة العليا التى تجتمع فيها الخلاصة الصافية أصفى ما تكون الخلاصة لخصائص الحنان والرفق والرقة فى الوجدان البشرى كله ..

فكيف نجد هذه الأم فى ذلك الاطار من الواقع ؟

نجدها أول ما نجدها فى ذلك الجزء الأول من كتاب « الأيام » ونضع يدنا على ذلك الموضع الذى وقف فيه الشيخ الطفل أمام أبيه يمتحنه فيما زعم فقيه « الكتّاب » من انه أتم حفظ القرآن وانه يعيد فى كل يوم عليه ستة أجزاء منه . بحيث يختم فى كل أسبوع أجزاء القرآن الثلاثين لا يتخلف عن ذلك يوما ..

وطلب اليه أبوه أن يقرأ سورة « سبأ » فلم يفتح الله عليه بحرف . فطلب اليه أن يقرأ سورة « فاطر » ؛ فلم يفتح الله عليه بحرف ، بل وعجز عن قراءة سورة « يس » ، على شيوع حفظها بين عامة الناس ، فلم يفتح الله عليه الا بالآيات الأولى منها « ولكن لسانه لم يلبث أن انعقد ، وريقه لم يلبث أن جف ، وأخذته رعدة منكرة تصبب على أثرها فى وجهه عرق بارد ..

ثم صرف الوالد ذلك الطفل الشيخ الذى لم يجاوز التاسعة من عمره مشيعا بالسخرية والتحقير . فماذا كان من أمر الأم مع هذا الطفل الضرير المفجوع فى عزة نفسه وصميم شعوره ؟ ..

« خرج صاحبنا من المنظرة منكس الرأس مضطربا يتعثر ، ومضى فى طريقه حتى وصل الى الكرار ــ والكرار حجرة فى البيت كانت تدخر فيها ألوان الطعام ، وكان يربى فيها الحمام ــ وكانت فى زاوية من زواياها القرمة ، وهى قطعة ضخمة عريضة من الخشب كأنها جذع شجرة كانت أمه تقطع عليها اللحم ، وكانت تضع على هذه القرمة طائفة من السكاكين منها الطويل ومنها القصير ، ومنها الثقيل ومنها الخفيف ..

« مضى صاحبنا حتى وصل الى الكرار ، وانعطف الى الزاوية التى فيها القرمة ، وأهوى الى الساطور ، وهو أغلظ ما كان عليها من سكين وأحده وأثقله ، فأخذه بيمناه ، وأهوى به الى قفاه ضربا !.. ثم صاح وسقط الساطور من يديه . وأسرعت أمه اليه ، وكانت قريبة منه لم تحفل به حينما مر بها . فاذا هو واقف يضطرب والدم يسيل من قفاه والساطور ملقى الى جانبه ! .. »

ومرة أخرى نسأل فى تطلع وقلق شديدين :

ماذا كان من أمر هذه الأم مع هذا الطفل الضرير الذى انتهى به جرح كرامته وعزة نفسه الى هذه النهاية الدامية ؟ ..

وسرعان ما يأتينا الجواب بسيطا هادئا صادقا بعيد الدلالة :

« وما أسرع ما ألقت أمه نظرة الى الجرح وما أسرع ما عرفت انه ليس شيئا ذا بال ! .. وما هى الا أن انهالت عليه شتما وتأنيبا ، ثم جذبته من احدى يديه حتى انتهت به الى زاوية من زوايا المطبخ . فألقته فيها القاء ، وانصرفت الى عملها .. »

واننا لنلتقى بصورة هذه الأم نفسها فيما يلى ذلك من كتاب «الأيام» بجزئيه فنشهد لها مواقف تدل على البر والحنان ، ولكنه الحنان الذى يترقرق من وراء لحاء صلب كلحاء شجرة السنط ذات الأشواك ، مهما يكن فى داخلها من عصارة الحياة ! ..

ويشب الطفل الكفيف عن الطوق ويترعرع ويبدع الكثير من القصص الذى يحفل بصور الأمهات ، فأين تقع هذه الصور من صورة هذه الأم التى عرفها أول ما تعرف الى الأمومة ؟ ..

نجد الجواب عن ذلك مثلا عند « أمونة » عندما نفتح كتابه الشهير « المعذبون فى الأرض » ..

« ... وسكينة فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، فيها دعة ولين ، وفيها سذاجة تشبه الغفلة ، وعلى وجهها مسحة من جمال توشك أن تروق الناظرين لولا ما يبدو على الفتاة من الضر ، فالفتاة عارية أو كالعارية

لا تستر جسمها الا أسمال تتكشف هنا وهناك عن حسن أليم ..
وقالت « امونة » لابنتها فجأة فى صوت منكسر :
ـ ألم تنهضى وتتركى البيت بعد أن خرج أبوك الى النهر بساعة قصيرة ؟ ..
قالت الفتاة :
ـ بل قد نهضت وخرجت من البيت ولكنى عدت بعد لحظة ..
قالت « أمونة » :
ـ فانى قدرت ذلك وانتظرت ، ولكن هذه اللحظة طالت ، حتى هممت أن أخرج فى التماسك ، ولكنى ، أكرهت نفسى على البقاء مخافة أن يفطن الينا الجيران ، وما زلت أنتظرك وأنتظرك حتى أسفر الصبح واذا أنت تقبلين مترفقة وتدخلين متلصصة وتندسين فى مضجعك .. فالى أين ذهبت ؟ وماذا كنت تصنعين ؟ ..
وقد سمعت سكينة حديث أمها مرفوعة الرأس فى أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن انخفض رأسها فجأة ، كأنما عجزت الأعصاب والعضلات أن تمسكه فانكب نحو الأرض انكبابا ..
ولبثت الفتاة صامتة لا تقول شيئا ، جامدة لا تأتى حركة .. هنالك تنمرت « أمونة » وظهر فى وجهها شىء من الجد لم يلبث أن استحال الى غضب منكر عنيف .. وقالت لابنتها فى صوت مكظوم :
ـ ستنبئيننى الى أين ذهبت وماذا كنت تصنعين ؟ ..
ثم انحرفت بنصفها الأعلى الى يمين وتناولت عودا يابسا من سعف النخيل كانت تصطنعه فى تقليب الخبز وانضاجه ، ثم استقبلت الفتاة ملوحة بهذا العود اليابس ، وأخذ العود يقع ما بين كتفى الفتاة فى عنف شديد وثبت له كأنما دفعها الى الوثوب لولب فى الأرض ، أو جذبها الى الوقوف سبب فى السقف ..
على ان وقوفها لم يطل ، فقد أخذ العود يصيب من جسمها ما شاءت المصادفة الغاضبة ، واذا الفتاة تجثو وقد جمعت يديها الى وجهها وهى

تتلوى من الألم ، تدافع شهيقا يريد أن ينطلق ويكاد أن ينفجر عنه حلقها؛
ثم يستأثر الغضب « بأمونة » فاذا هى لم تبق امرأة ، وانما استحالت الى « جنيّة » ثائرة وقد ألقت العود من يدها ووثبت بسرعة وخفة ، فكبّت الفتاة على وجهها ، وجمعت شعر البائسة بين يديها ، وجعلت تجذب الفتاة من شعرها فى غير رفق، وتدفع بقدميها وجهها فى غير نظام ، وقد انفجر صوت الفتاة عن صيحة منكرة .. »

فماذا فعلت « أمونة » عندما وصل الأمر بألم ابنتها الى هذا الحد ؟..

« وتلقى « أمونة » نفسها على ابنتها .. وتضغط بيدها على فم الفتاة وتنبئها فى صوتها المكظوم دائما بأنه الموت اذا لم تكظم صوتها ولم تضبط نفسها ولم تنبئها فى هدوء وصدق أين ذهبت ..

« ألا شيء يمكن أن يكف هذه الأم عن قسوتها تلك على ابنتها ؟ ..

« بلى !.. ثمة شيء واحد يكفها عن ذلك ..

« ... هنالك استأنف العود تمزيقه لجسم الفتاة ، ولكن الفتاة قالت لأمها بصوت تكلفت كظمه .. ستكفين يدك عليّ أو أستغيث بالجيران ! قالت « أمونة » وقد سقط العود من يدها : الجيران ؟.. يا للفضيحة !.. يا للعار !.. ثم انحنى أعلاها على أسفلها وجعلت تنتحب غير جاهرة بالنحيب ! .. »

*

وأم ثالثة ، هى « محبوبة » نجدها ونحن نجوس خلال كتاب « المعذبون فى الأرض » أيضا ..

انها الأم التى تسخر أمومتها لقيمة أعلى عندها وأغلى من حنان الأمومة كله . وهذه القيمة قيمة أخلاقية صرف .. فهى تشعر ان الأمومة وظيفة أخلاقية يقيها فيها العرف الاجتماعى الذى نشأت فى ظله . لا تعرف الحنان حيث يدعوها واجب هذه القيمة الأخلاقية الاجتماعية للقسوة فى غير لين وعندئذ تنتفض الأم فاذا بها « جنية ثائرة » على حد تعبير طه حسين نفسه ..

وهكذا تتنوع التكوينات الخلقية الاجتماعية فى بيئة واحدة هى الريف من صعيد مصر . وتتعـدد بواعث الخشيـة والقسوة بين دافع التقوى الدينية ودافع التقوى الاجتماعية . ولكن سلوك القسوة واحد ، وأدواته واحدة ، وفى جميع الأحوال لا نجد لحنان الأمومة موضعه الا مسخرا لرقابة هذه القيمة الأخلاقية العليا وفى خدمتها ..

● الزوج .. ●

فاذا التمسنا صـورة المرأة زوجا وربة بيت فى ذلك الزمن الذى لا يوغل فى القدم الى أكثر من أوائل هـذا القرن العشرين وجدناها على تفاوت صنوفها وظروفها ووضعها الاجتماعى نباتا طبيعيا فيه كل خصائص ما تخرجه أرض الشدائد تلك من نبات ..

فقد تكون الزوج منفردة ببيتها وزوجها أثيرة عنده فى أحيان قليلة ، ولكنها فى الأغلب الأعم زوج بين عديد من الزوجات الضرائر يكدن لها وتكيد لهن ، وهى فى جميـع الأحـوال منفردة أو غير منفردة شىء ضعيف مستكين لا حول لها ولا طول ، للرجل كل الحقوق وليس لها من حق ، له كل المكانة وليس لها من المكانة الا أيسر اليسـير ، فلا سبيل لها فى مواجهة هـذه الشدائد الا أن تستسلم مغلوبة على أمرها حليفة دمعها تلوذ به بمناسبة وغير مناسبة ..

استمع اليه يفيض عليك من تلك الخبرة الفـائرة فى وجدانه وذاكرته عما تركته نساء ريف مصر فى نفسه ، فيقول فى الجزء الأول من كتاب « الأيام » :

« وكل امرأة فى مصر محزونة حين تريد .. وأحب شىء الى نساء القرى اذا خلون الى أنفسهن أن يذكرن آلامهن وموتاهن فيعددن .. وكثيرا ما ينتهى هذا التعديد الى البكاء حقا ! .. وكان صاحبنا أسعد الناس بالاستماع الى اخواته وهن يغنين ، والى أمه وهى تعدد .. وكان غناء اخواته يغيظه ولا يترك فى نفسه أثرا ، لأنه يجده سخيفا لا يدل على

شىء ، فى حين كان تعديد أمه يهزه هزا عنيفا ، وكثيرا ما كان يبكيه .. »

وهكذا كانت الفتيات الآنسات يعرفن الغناء خاليات الى أنفسهن وغير خاليات ، أما الزوجات والنساء فحديثهن الى أنفسهن تعديد كله وبكاء كله . ولا يكون ذلك الا عن نفس لم تجن من قطاف الآمال التى حققها الواقع الا الأسى والعجز وامتناع الحيلة ، وهـذه بعينها صورة المرأة فى مجتمع يضاعف عليها ما يفرضه على الرجل من ألوان العنت الشديد ..

ولقد كانت أمه زوجة مفردة سيدة دارها . وما أقل هـذا النمط من النساء فى تلك البيئة . فذلك هو الاستثناء من القاعدة المطردة ، أن تكثر فى عصمة الرجل الواحد الزوجات من الضرائر ..

وقد تعيش الزوجة أثيرة عند زوجها مفردة فى عصمتـه واذا بها بين عشية وضحاها وقد أدخلت عليها ضرة ، كهذه السيدة المنعمة التى تنحدر من أصل تركى على ما جاء فى كتاب « المعذبون فى الأرض » ..

ثم نجد لحيـاة الضرائر صـورة أدهى وأشأم كلما جسنا فى كتاب « شجرة البؤس » :

« ... فقد كثر نساؤه ، وأخذ ولده يكثرون ، وأخذت النفقة تزداد وتثقل أعباؤها ، وأخذت الحاجات تكثر وتتنوع وتتعقد ، والربح يذوب فى هذه الأسرة الكبيرة كما يذوب الملح فى الماء .. وحياته مطردة مضطربة .. تجارة أول النهار ، ولغو آخره .. ثم العودة الى داره ليقضى بقيـة الليل عند هذه لا تلك من نسائه ، يسمع منها أبغض ما يسمع الرجل من امرأته ، مشكاة من هذه ، ونعيا على تلك ، وعيبا للثالثة ، وثنـاء على نفسها ، ثم الحاحا فى التسوية بينها وبين ضرائرها ، فقد أهدى الى هذه ما لم يهد اليها مثله ، وزعمت تلك انه ترك من النقد كذا وكذا درهما على حين انه يبيت عندها ولا يترك لها شيئا ، وانها لتلتمس المليمـات تشترى بها الحلوى لصبيها البائس فلا تجدها ، فيظل ابنها محروما ينظر الى أبناء الضرائر، وهم فرحون بما فى أيديهم من الحلوى وما فى جيوبهم من ألوان النقل ..

« وعلى هذا النحو تنغص عليه ليلته حتى ينتظر الصبح أشد ما يكون اليه شوقا . فاذا سمع صوت المؤذن أسرع الى وضوئه وصلاته ، يظن ان التقوى هي التى تدفعه اليهما ، وما كان يدفعه اليهما الا الهرب من هذه الحياة البغيضة » ..

وان الزوج ليترحم على زوجته الأولى التى لم يعرف غيرها الى أن ماتت ..

« كانت مباركة لم يحس فى أيامهـا ضيقا ولا ضنكا وكانت حيـاته نعيما متصلا .. أين هو من هذا النعيم ؟ .. أيجده عند زينب هذه التى تقدمت بها السن حتى أخذ وجهها يكلح وتظهر فيه التجاعيد ، وهى مع ذلك تتجمل وتتدلل وتتكلف ما يتكلفه النساء الحسان ، وهو لم ير عندها الا سوء الخلق ، والا هذه الغيرة الطارئة التى أدخلتها فى قلب زوجيه الأخريين . وما له لايكتفى بزوجين اثنتين ؟ .. ثم يصبـح وقد استقر رأيه على أن يفارق زينب فهو يلتمس لذلك الأسـباب والعلل . وأى شىء أيسر من ذلك ؟ .. يكفى أن تلقاه متجهمـة تحسب تجهمها دلالا ، متنكرة تحسب تنكرها تيها ..

« ويكفى أن يدعوها فتبطىء فى الجواب واذا هو ثائر فائر ، يلقى فى وجهها كلمة الطلاق .. وكذلك كانت حيـاته زواجا وطـلاقا ، وطلاقا وزواجا ، واحتمالا لما يقتضيه ذلك من نفقات ، واحتمالا لما تقتضيه كثرة الولد من نفقات أيضا ، واهمالا لهؤلاء الولد الذين يكثرون من يوم الى يوم ، وهو اهمال مصدره كثرتهم من جهـة ، وتنافس أمهاتهم من جهة أخرى ..

فان لم تكن للزوجة ضرائر من الحليـلات الشرعيات ، فالأرجح أن تكون لها ضرائر من العشيقات غير الشرعيات ، كتلك المرأة « زهرة » أم الفتاتين فى قصة « دعاء الكروان » ..

فلا تخلو تلك البيئة ممن خلعن العذار ، ومثلهن الواضح تلك المرأة المـاجنة التى نلتقى بها فى « دعاء الكروان » وكانت امرأة تختصم على

وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة ، يحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميـل الى الفكاهة ظاهر .. حتى اذا أرسلت ضحكتها سمعها من غير شك أبعد من فى الدار مكانة وسمعها من غير شـك من كان خارج الدار ، وانتشر معهـا فى الجو استخفاف واستهتـار ودعابة ودعاء الى المجون حتى اذا فرغت من ضحكتها جرت الهواء الى جوفها جرا هو أشبه بالشهيق المثير !

❋

وبديهى ان المرأة فى جميع هذه الأحوال وما اليها هينة على الرجل ، وشعاره معها ان النساء ناقصات عقل ودين ..

ولسنا نجد خلاصة موجزة لأحوالها مما جاء على لسان « زبيدة » فى « شجرة البؤس » ..

أما وهذا حال المرأة مع الرجل فلا بد أن تعيش بعقلية خرافية تتسق مع هذا التناقض غير المعقول فى وضعها . ولابد أن تؤمن بنوع من القدرية تسيطر على حياتها وحياة الناس وتفرض عليهم هذا النصيب الجائر الذى لا فكاك لها منه ولا حيلة لها فيه ..

وطبيعى أن يكون الايمان بالخرافات والخوارق مسـيطرا على عقول النساء أكثر من سيطرته على عقول الرجال . فأما من نشأت فى رحاب التدين فخرافاتها تتخذ مسوح الدين ، وأما من لم تنشأ فى رحاب التدين فخرافاتها تتجه الى العالم السفلى وما فيه من قوات الجن والشياطين !..

❋

ونجد نمط العقلية النسائية الخرافية المتدينـة فيما يرويه صـاحب « الأيام » فى الجزء الأول ..

وأما حديث الجن وما لهم عند النساء من منزلة طولى فيأتيك نبأه فى « شجرة البؤس » ..

« قالت أم رضوان :

« كنت أخبز فى قريتنا لجارة لنا ذات مسـاء كما أخبز الآن . وكانت

صاحبة الدار « أم عثمان » جالسة معى بين أتراب لها وجارات . وكنا نتحدث كما نتحدث الآن ، واذا امرأة من أهل القرية تدخل علينا منفزعة متفجعة .. فاذا سألناها عما بها ، زعمت لنا أنها خرجت مع صاحباتها آخر الليل يملأن جرارهن ..

« وانهن لعائدات يغنين فى صوت خافت يستأنسن بالغناء من وحشة الليل ، واذا هن يسمعن أصواتا لا يكدن يتبينها ، فيصغين ويمددن أبصارهن فيرين نساء يلطمن وجوههن وهن يتغنين بمثل ما تتغنى به النادبات فيقلن :

يا ساريات فى السحر يسعين فى ضوء القمر
اذا بدا الصبح الأغر فقلن يا « نشر الزهر »
ان أبا يحيى عمر أصابه سهم القدر
فهو صريع محتضر هل لك فيه من وطر ؟ ..

« قالت أم رضوان : ولم تكد هذه المرأة تتم حديثها حتى رأينا « أم عثمان » قد ثارت مولولة ، فنفضت شعرها ، ومزقت ثيابها ، وجعلت تلطم وجهها ، وتضرب صدرها ، ونحن نحاول أن نردها الى الهدوء ونسألها عن أمرها ، ولكنها بعد حين تثوب الى نفسها قليلا وتقول لنا فى صوت يقطعه الشهيق : « أنا « نشر الزهر ! » وعمر أبو يحيى هو أخى ! .. اقرأن تحيتى على زوجى واستوصين بعثمان خيرا ، فلا بد من أن أرى أخى قبل أن يموت وما أرانى أدركه ، ولعلى اعود اليكن والى زوجى وابنى اذا انقضت أعوام العزاء ، فالعزاء عندنا لا يكون فى الأيام ولا فى الأشهر ، وانما يكون فى الأعوام الطوال ! ..

« قالت أم رضوان ، وكدنا نظن بصاحبتنا الجنون ، لكن ما راعنا الا أن رأيناها تقذف نفسها فى التنور ، فلا نرى لها أثرا ولا نسمع لها حسا ، فقد كانت « جنيّة » تمثلت لأبى عثمان امرأة فتزوجها وولدت له ابنه عثمان ، ثم جاءها النبأ ان أخاها يحتضر فأسرعت للقائه قبل أن يموت ، وسلكت اليه أقرب الطرق وهو « التنور » حين يكون ملتهبا ..

« والجنيات يألفن التنور ، ولذلك لا ينبغى أن يحمى « التنور » دون أن يذكر اسم الله عند اشعال النار ، فان ذلك يطرد منه الشياطين ، ويؤذن المسلمات بأنه سيحمى ، فيخرجن منه قبل أن يدركهن شيء من النار ! »

حياة تتسم بالقسوة والضيق والهوان من جميع أطرافها وفى جميع مستوياتها . هذه هى حياة جيل جداتنا حتى أوائل هـذا القرن والجيل الذى سبق مباشرة جيل المتصديات للحياة من أتراب أمهاتنا اللاتى حملن أعباء الصدمة الأولى حين تحطم « القمقم » وانتهى نوم « أهل الكهف » فأتيح للفتـاة أن تخرج للحياة مشوقة الى حقهـا البشرى فى الحرية ، وأقدامها غائرة فى ثرى الماضى المتحجر مكبلة بقيوده الثقال ..

تلك الصـور الزمنية من نساء الماضى القريب البعيد معا ، القريب فى حساب تطورنا السريع البعيد كل البعد فى حساب تطورنا السريع الحاسم وهى صور لو لم يحفظها لنا هذا الأديب الذى رزق حاسة « البعد الثالث » ففطن أشد الفطنة الى العامل الاجتماعى وأثره فى حياة الناس ومصائرهم لكنا ـ أكبر الظن ـ قد فقدنا هـذا التسجيل الحى النادر المبدع فلم يبق له بين يدنا شيء منه يقام له وزن ، فى حساب الفكرة وفى حساب الفن ..

● المتصديات للحياة ●

ان طه حسين الذى عرف جيل المرأة المصرية القديمة فى ريف صـعيد مصر وفى أحياء القاهرة الوطنية معرفة واقعية مباشرة فى أخريات القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين يكاد يختلف أشد الاختلاف عن طه حسين الذى استقبلته أوربا ساعيا اليها فى طلب العلم والثقـافة وفنون الحضارة ، أحدث ما تكون الحضارة ، ثم آفلا الى مصر أسـتاذا فى الجامعة وأديبا مسموع الكلمة ورائدا فكريا يشار اليه بالبنـان ، ليجد المرأة المصرية فى أعقاب الثورة الوطنية ومنذ الربع الثانى للقرن العشرين ، وقد صارت جيلا يختلف أشد ما يكون الاختلاف عن جيـل أمها التى

عرفها وخبرها طه حسين من قبل . واذا هذا التبدل الذى طرأ على جيل المرأة يكاد يجعلها نوعا مستقلا ليس له به عهد من قبل ..

فالجيل السابق عرفه طه حسين بين الصـعيد والقاهرة مذعنا أشـد الاذعان ، مكبلا بأثقل الأغلال التى صاغ فولاذها العرف الموروث منذ عدة قرون ، فليس لها حق بشرى مسـتقل مما يمكن أن يخطر على بال المرء من أنواع الحقوق الظاهرة والباطنة ..

أما تلك المرأة الأخرى ، المرأة الجديدة التى التقى بها طه حسـين فى شىء من العجب والدهش والفرح معا منـذ الربع الثانى للقرن العشرين فالأجدر أن نطلق عليها اسم « المتصدية للحياة » . فاننا نلمس فيها بذرة الكيان المستقل .. بذرة الحرية الباطنة التى تموج وتأبى الا أن تلتمس لنفسها منفذا الى الوجود الخارجى الملموس فى مجالات النشاط الحيوى وأفعال السلوك المحققة للوجود الذاتى النابع من الارادة الباطنة المستقلة

ولا يكون التصدى للحياة فى اصرار واقتحام عند اللزوم شيئا سوى ذلك ، وخصوصا فى ظروف المرحلة الاجتمـاعية الانتقالية التى تأبى أن تسلم للمرأة بحقوق كيانها المستقل كاملة ، بل تنكر عليها هذه الحقوق أشد الانكار وأعنفه فى معظم الأحيان ، فلا تجد المرأة الجديدة مندوحة من الاصطدام العنيف حينا ومن التسلل المراوغ حينا آخر ، ومن الارتطام والتلاحم الذى يفضى الى الاستشهاد دون ما تريده من تحقيق وجودها على النحو الذى شاءته لهذا الوجود ..

ولئن كانت معرفة طه حسين بالجيـل القديم للمرأة معرفة الممارسـة الواقعية المباشرة فى طفولته ويفاعته ، فلم تكن منـدوحة اذن من بروز صور هذه المرأة فى أدبه نابضة بالحياة التى تستمد مصادرها من التجربة المعاشة وعناصرها المكتملة ..

أما هذه المرأة الجديدة المتصدية للحياة فلم يتح لطه حسـين بطبيعة ظروفه الجديدة فى مجتمعه الجديد وطبقته الجديدة ـ فضـلا عن ظروف حيـاته الخاصـة بشخصه وبزواجه ومنصبه ـ أن يعرفهـا تلك المعرفة

الواقعية المباشرة ، وانما يصنع تصور طه حسين لهذه المرأة الجديدة من جيل المتصديات للحياة اطرافا شتى ، فثمة شيء فى هــذا التصور من أشواق طفولته ورواسبها وحنينها ، وشيء من أحلام وجدانه المشــبوب وفطنته اليقظة ، وشيء من تسامي روحه الثائرة وتطلعه ، وشيء من انكاره للواقع البشرى الغليظ ، وشيء من التقــديس والاعزاز لذلك الجنس الآخر الذى تربطه به حوافز الروح والفطرة معا وأواصر المودة العميقة التى تلوح معالمها لاحساســه المرهف فى ملامح ابنته وزوجه ، واخواته وأمه من قبل ..

ولئن اشترك جيل المرأة الجديدة فى خصــلة واحدة هى التصــدى للحياة ، فدوافعهن الى ذلك التصدى ليست واحدة على السواء ، وانما تمتاز كل طائفة منهن عن الطوائف الأخرى بحافز من طبيعة تكوينها ..

فنحن اذن حريون أن نجد فى صورة جيل المتصديات للحياة فى أدب طه حسين نماذج متباينة للجامحات بسطوة البدن والأعصاب ، والمعتدات بقوة الطبــع وشــكيمة الارادة والعزيمة ، والمحلقات بقوة العاطفــة ، والمترفعات عن ذل الاستكانة ..

ولا يكاد يجمع بين هذه الأنماط من النساء فى أدب طه حســين غير انطباع أثر جمال المرأة فى نفسه ، متسللا الى وجدانه أو مقتحما طريقه اليه عن طريق تلك الحاسة المرهفة لديه أشد الارهاف ، وهى التى أشار اليها قديما بشار بن برد حين قال : « والأذن تعشق قبل العين أحيانا ... »

أما طه حسين فأبرع من بشار وأرهف وأشد استقصاء وتعقبا لمسارب هذا الجمال فى نفسه . تكاد تحس نبضات رقته وحنينه المترفق الرقراق حين يقول مثلا : « ولم تكن تمتاز باشراق الوجه ونقائه فحسب وانما كان اشراق وجهها ونقاؤه مظهرا لصورة رائعة بارعة من الجمال والحسن قد أسبغت على جسمها كله ، فكان شيئا رائعا متقنا كأنما صنع فى تمهل وتأنق واناة ، كأحسن ما يتمهل المثــال البارع ويتأنق ويستأنى بعمله فيخرج تمثاله آية فى الروعة وفتنة للعيون والقلوب جميعا .. »

أرأيت كيف أفاد اغفال التفصيلات هنا فيما يتعلق بالملامح والقسمات كى تأتى الصورة مجملة شمولية تطلق خيال القارىء ليستخرج من كوامن هذا الغموض المبهم ما يروق كل متخيل على ما يشتهى ويحب .. وتلك طبقة فى شاعرية الوصف وفنيته يغفل عنهـا الأكثرون من الواصفين . فليس من منهج يقتل الجمال الفنى كما يقتله التحديد الدقيق الذى يكبت الخيال بدلا من اطلاق العنان له فى أوسع الآفاق ..

ولكن طه حسين لا يلم بجمال الوجه ورونق البدن هـذا الالمام الا لينتقل الى مجال الجمال الأنثوى ، ذلك المجال الذى ينفـذ من الأسماع الى القلوب .. !

« وكان صوتها اذا تكلمت « رخصا » عذبا صـافيا ممتلئا لا تكاد الأذن تسمعه حتى يحضر فى النفوس هـذا الوقت القصـير بين انطلاق الفجر فى ظلمة الليـل كأنه السهم ، واشراق الشمس على الأرض حتى تملأها جمالا ونورا .. والذى يترقرق فيه نسيم رقيق عليل ، ويسقط فيه الندى كأنه تحية حلوة ملؤها الحياة والنشـاط قد أرسلتها السماء الى الأرض ، وتستيقظ فيه الطبيعة نشيطة متكاسلة مع ذلك ، تتغنى الطير وتحف الأوراق وتهتف الغصون ويهمس الضـوء الفاتر الى الأرض أن أفيقى وتأهبى فقد أوشك موكب الشمس أن يلم .. !

« كان صوتها يحضر فى النفس هذا كله اذا تكلمت . وكان صـوتها ذاك « الرخص » العذب الصافى يلائم وجهها المشرق النقى ، وخلقهـا الرائع السوى . فكان شخصها أشبه شىء بآية من آيات الموسيقى التى لا تلذ السمع وحده ، وانما تلذ كل ما فى الانسان من ملكات الحس والشعور والتفكير ! »

ولا أظن تصويرا أدبيا نثريا ضارع فى جماله تصـوير ابن الرومى فى الشعر العربى [1] لجمال الصوت ورخامته ووقعه على الحس اللهم الا هذه الصفحة ومثيلاتها من نثر طه حسين الفنى ..

---

(١) يقول ابن الرومى فى « وحيد » المغنية : « صوت فيه وشى وحلى »

فصـــوت المرأة لا يخاطب الأذن وحدها وانما يخاطب حواس اللمس وخلجات الحس ويثير صورا حسية لمسية .. ليس أقلها شأنا وصف الصوت الرخيم بصفات النعومة والبضاضة التى لا تعهد الا فى الملمس وحده . وقد جمع طه حســين ذلك كله حين وصف صــوت هــذه الصبية بأنه « رخص » .. وحين جعل صوتها مرادفا لآيات الفن الموسيقى الأوربى التى لا تلذ الأذن وحدها ــ شأنِ موسيقى الطرب السطحى ــ بل تستثير عن طريق الأذن لذات متعــددة الجوانب والمجالات : « تلذ كل ما فى الانسان من ملكات الحس والشعور والتفكير ! »

ومن هذا التمهيد الموسيقى لوصف المرأة وجمال وقعهــا فى الوجدان المرهف ننتقل الى نماذج المرأة الجديدة فى جيل المتصديات .. نعرض نمطا منها فى اثر نمط كما صــورها طه حسين فى أدبه . متنقلا بتلك النماذج المتباينة فى تصديها للحياة بين ريف مصر وحواضرها ..

● المستهينة ●

تدفعها ضراوة بدنها وأعصابها الى انكار كل قيــد من قيود العرف الموروثة ، لا عن استهانة بهذه القيمة فى نفسها وفى المجتمع جميعا ، مسوقة بسطوة حيويتها القاهرة لها ، فاذا بها قد ألقت « برقع الحياء » سافرة عن طبيعتها الماجنة المتحدية ، لا تقيم وزنا لآداب بيئتها ، ساخرة بما يمكن أن يكون من رأى الناس فى شخصها وسيرتها . وحسبها من دنياها أن تمتهن قيم الجماعة المصونة ، مبتذلة فى ذلك نفسها وسمعتها ..

ومرة أخرى نجد ذلك التصوير السمعى البارع عند طه حسين لوقع تلك المرأة على وجدانه اليقظ اللماح :

« وكان صوتها يحتفظ كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل الى الفكاهة ظاهر .. ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من كان فى الدار مكانا ، وسمعها من غير شك من كان خارج الدار ، وانتشر معها فى الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء الى المجون . حتى اذا

فرغت من ضحكتها جرت الهواء الى جوفها جرا هو أشبه بالشهيق المثير .. ! »

وما أن تنطبع هذه الصورة السمعية فى الوجدان حتى تغنيك عن كل علم آخر بكنه هذا النوع من النساء . فقد تختلف معالم الوجه وقسمات البدن بين ماجنة وماجنة . وقد تخفق لمحة العين واشارة الطرف واتثناءة الجسد فى ترك طابع المجانة فى نفس هذا الانسان أو ذاك . ولكن هذه الصورة السمعية تظل تتردد فى ذاكرتك ما عشت ، وخيالك ينطلق فى اثر هذه الذبذبات الهوائية الجرارة راسما لك أقسى ما يتصوره وجدانك الخاص من سمات المرأة اللعوب المثيرة لحواس الرجال ، المقلقة لحواس النساء ، الداعية بكيانها كله الى الاستهتار بقواعد الحرمات ، حتى كأنها حبالة الشيطان قائمة لا يهدأ لها وسواس ..

وبعد هذا التعميم الذى يصلح نمطا أعلى للمرأة اللعوب ينتقل طه حسين الفنان الروائى الى التخصيص فتعرف منه ان : « اسمها زنوبة » .. وكان تاريخها حافلا بالخطوب والأحداث . كان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس . كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة . وتفتن هؤلاء الشباب الذين كانوا يفدون على المدينة فى فصل الشتاء ليشتغلوا فى معمل السكر . وكانت تفيد من فصل الشتاء لهوا كثيرا ومالا كثيرا وصوتا بعيدا ، حتى اذا تولى عنها الشباب آثرت ظاهرا من القصد ، وتكلفت شيئا من الاعتدال ، وأسدلت على مجونها ودعابتها ستارا رقيقا تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ الى ما وراءه فتدل أصحابها على ما يبتغون ..

« ثم بحثت وبحثت حتى اختارت لنفسها رجلا من الخفراء غريبا عن المدينة وفد اليها منذ حين ، قوى البنيـة طويلا ضخما مخيف الصوت ، ولكنه على ذلك ضعيف النفس ، سيىء الخلق ، مدخول الضمير ، فاتخذته « زنوبة » لنفسها زوجا أو خليلا . وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتنكرها الأخلاق وينكرها الدين .. »

● الجامحة ●

وليست الاستهانة بقيم النفس وقيم العرف انسياقا لضراوة البـدن والأعصاب النوع الوحيد من جموح النساء المتصديات للحياة ، فقد تجمح المرأة متصدية للحياة من غير أن تكون مستهينة بما فيها من قيم ، وانما هى مسلوبة المقاومة أمام الاغراء مساقة بدافع من رغبة وجدانها وفطرتها مع شيء غير قليل من الأسى لما كلفتها هذه الفطرة من الجموح والخروج على الأوضاع ..

وهى مع ذلك لا تملك أن ترد نفسها عن انسياقها ذاك الى قيود العرف التى لا تنكرها وان ضاقت بها شهوة الحياة المركبة فى طبعها ، فهى موزعة النفس بين الجموح والخوف ، بين الانسياق والوجل . لا تهنأ بما اندفعت اليه مشوقة مسوقة ، ولا يحول الوجل بينها وبين المتعة والاطمئنان ..

وهذه هى هنادى ..

تحملها أمها على الرحيل عن المدينة التى زلت فيهـا منسـاقة لاغراء الشباب والجمال والترف عاملة فى بيت ذلك المهندس القاهرى الشـاب الثرى . ولكن هنادى لا تحب الرحيل ولا تحن الى الغرب . وانما تحن الى هذا الشرق الذى تركت قلبها فيه . هنالك فى ذلك البيت الجميـل الذى تحيط به هذه الحديقة الواسعة .. ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس .. فى هذا البيت تركت قلبها ، وهى من أجل ذلك ذاهلة ذهولا متصلا . وهى من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو ترد علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال ..

ولا يتركك طه حسين فى حيرة من أمر هـذا الذهول ، ولا يتركك تذهب الى الظن بأن هذه الصبية من بنات الصـعيد الأقصى ذاهلة عن السؤال والجواب جميعا بما استشعرته نفسها من الندم على زلتها ، كما كان ينبغى أن يكون شعورها لو تقدم بها الزمن الى جيل أمها ..

بل يسرع طه حسين الى نفى ذلك نفيا باتا حاسما على لسـان أختها سعاد فيما ترويه من أمر هنادى :

« كنت أحسبها محزونة لما تورطت فيه من خطيئة .. ولكنى بعـد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسى تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التى تنظر وراءها فترى حبا مضيعا ، وتنظر أمامها فترى خوفا مروعا ، وتود لو استطاعت أن تعود أدراجها الى حيث الحب وما يمكن أن يستتبع ذلك الحب من نعيم أو بؤس ، ومن سعادة أو شقاء » ..

ثم لايتركك طه حسين مرة أخرى تظن للحياء تلك الحرمة لدى الفتاة التى زلت زلتها الكبرى ، ولا لدى أختها التى كانت حرية أن تنقم عليها زلتها تلك وما جرته على الأسرة من بلاء وعار ..

« ولكن هنادى تدفع الى أمام . تدفع الى حيث الخوف والروع ، والى حيث اليأس والقنوط ، تدفع فتندفع .. لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئا ينم على مقاومة أو ممانعة . يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتمحو حظها من الشخصية والارادة محوا .. هـذه القوة التى يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمات » ..

أرأيت الى العرف والى الحياء والى الحرمات كيف تضيق بها لا هنادى فقط بل أختها الصغرى سعاد أيضا وقد رأت من زلة أختها ما رأت ؟

ان دل ذلك على شيء فعلى ان كراهة الحياء وحرمات العرف حين تقف حائلا دون رغبات النفس المتوثبة للحياة شيء مشـاع فى جيـل المرأة الجـديد ، فقبل جيل كانت بشـاعة الزلة لا تترك من النفس مكانا الا للاستفظاع والندم والارتياع ، أما الآن فثمة شيء أولى بالرعاية والايثار. هذا الشيء هو الحب ومناعمه . وفى سبيله يتبدل البغيض غير بغيض ، والفظيع غير فظيع . وتلك علامة الزمن وتبدل الحال من جيل الى جيل فى بيئة العرف والحرمات من صعيد مصر ، التى لا تعدلها سمة أو آية ..

ولذا نرى سعاد بعد ذلك تقول فى صراحة ووضوح :

« أنا أكذب على أختى فأزين لها ما أكره ، وهى لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب على نفسها ، وانما أسلمت نفسها للقضاء ...

واستيقنت ان خير ما فى حياتها قد انقضى منـــذ تركت المدينـــة .. فهى لا تسمع لى ولا تفهم عنى ، وانما هى مشغولة بما تركت من حب .. تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذى أحبته .. »

وهكذا تكون هنادى نمط الفتاة الجـامحة فى بيئة العرف والحرمات والحياء .. يتوزعها الخوف من العقاب ، وهى فى الوقت نفســه لا تؤمن بخطئها وتتمنى لو خلى بينها وبين ما تورطت فيه تستزيد منه . الا ان هذا التمنى لا يصل الى حد الاستهانة بقيود ذلك العرف وسطوته . فهى تنقاد مسلوبة الارادة الى حيث تعلم ان مصـيرا مرا ينتظرها « وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات مخيفة مروعة .. أما هــذه التى تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازا . وأما هذه التى تسمى مارتا فقد شق صدرها شقا . وأما هذه التى تسمى ملزمة فقد يقال انها دفنت حية ولقيت حتفها مختنقة فى التراب . وتتساءل هنادى ما الذى ينتظرنى من ألوان الموت هذه ؟ ! » .. وبهذا ينطوى أمر الجامحة ..

● المعتدة ●

أجل ينطوى أمر الجـامحة ولا يكاد ينطوى ! .. ينطوى أمر الجـامحة هنادى ، حين يطويها الموت صريعة بيد خالها البدوى الذى يتمثل فيه عرف ذلك المجتمع الموروث . ولكن الجيل الذى أنبتها جامحة لا يذهب بمأساتها ومصيرها مذهب الفناء والتلاشى ، وانما هو يمد من أثر هذا المصير وينشره نشرا فى صــورة أخرى معدة له ، ليست صــورة « زنوبة » المستهينة الماجنة ، وليست صورة هنادى الجـامحة المنهزمة مغلوبة على أمرها ، ولكنها صورة سعاد أخت هنادى فى الرمز الفكرى والاجتماعى وقرينة جيلها وبيئتها لا أختها فى واقع الحياة فحسب ..

فسعاد تأبى الرضوخ لقيود ذلك المجتمع الغاشمة القاهرة كما تمردت عليها المستهينة والجامحة من قبل ، ولكنها لا تســتهين ولا تجمح ، ولا يكون تمردها على تلك القيود الموروثة انصياعا لنداء البدن وانسيـاقا وراء الغواية والاغراء ، بل اعتدادا بشـأن كيانها وسريرتها المســتقلة

المتعالية على ارهاب العرف الجائر وعلى سطوة الاغراء القاهر ..

فهى تأبى أن تجعل توجيه مصيرها الى تلك القيود التى تلغى الشخصية والارادة الغاء ، ولا الى تلك النوازع الحسية التى تمحق الكرامة محقا . وبذلك الاعتداد يخرج من جيل المرأة الجديد هذا « الحد القوام » الذى لا يسف ولا يجمح ويأبى أن يبتذل نفسه بالخضوع أو الانسياق مع التيار

وهو نمط فى المرأة يقف على قدم المساواة مع نمط الرجل الحر الذى يكرم على نفسه فيأبى أن يبتذلها لنير الرهبة أو سلطان الرغبة ، وانما هو يجعل زمام أمره بيد ارادته ليختار مصيره عن بينة وعلى الوجه الذى يحقق به وجوده تحقيقا فرديا مستقلا لا يخضع لشيوع الجماعة ولا لشيوع النوع ..

وليس معنى هذا ان « سعاد » المعتدة بنفسها خرجت للحياة من بطن أمها على تلك الصورة ابتداء . وانما هى كانت كسائر بنات بيئتها ثم وعت من درس أختها ما وعت . فاذا هى ترق لأختها فى محنتها وتحنق على ارهاب المجتمع متمثلا فى صورة خالها ، وتحنق أيضا على سطوة الغواية القاسية الساطية متمثلة فى صورة ذلك المهندس الشاب ، ثم مستنكفة لنفسها أن تكون ضحية ضعيفة مسحوقة بين شقى هذه الرحى ..

فالمعتدة اذن أنثى غير ناقصة الأنوثة ، ففيها طبيعة الفراشة التى تستهويها النار ، ولكنها تجمع بين هذه الطبيعة ووعى الانسان البصير المريد الفعال لما يريد ، مستعينة على ذلك بما ركب فى طبع المرأة من قدرة على المناورة والمداورة والمكر النافذ الى غاياته بفطرة لا تحتاج الى جهد ولا الى تعليم ..

حتى اذا بلغت هذه المعتدة المتصدية لاطفاء النار غايتها من استخدام المكر والحيلة ، وهما سلاح المرأة الأكبر فى مواجهة الارهاب والاغراء معا ، استطاعت أن تفل بمكرها وارادتها حديد هذا المغوى ، متمكنة من نفسها مع ان الحب قد تمكن منها ، ولكن الحب عندها على خلاف الشهوة عند غيرها ، عاطفة تسمو بها النفس ولا تبتذل أمامها الكرامة .. وهكذا تثبت

المعتدة ميلاد النمط القويم من المرأة الجديدة المتصدية للحياة ..

● **المترفعة** ●

ويبقى بعد ذلك من المرأة نمط لا يخرج على العرف الجائر رغبة فى الحياة وتصديا لاثبات وجوده وممارسة حقه ، بل هو يترفع بشفافية نفسه فوق الأوضاع الأرضية المألوفة ، لما يجده فى دخيلته من زهد فيها وتعفف عنها ، فيوشك ألا يكون لهذا النوع من النساء المترفعات عن أوضاع الواقع والعرف مكان فى دنيا الناس ..

وتلك هى « خديجة » التى أهدت نفسها الى الموت ايثارا له على نمط من الحياة لا ترتضيه سريرتها الشفافة وان ارتضاه العرف والأخلاق ووجده سائر الناس كريما مرغوبا ..

« وفتيان القرية يتحدثون عن جمال « خديجة » الفاتن ويسرون فى أنفسهم حبا « لخديجة » واعجابا بها وطمعا فيها ، والأمانى تلعب بعقولهم كل ملعب وتسلك بقلوبهم كل سبيل ، ثم يتقدم الخاطب ذات يوم من أسرة لها أرض تزرع غير بعيد من القرية ولها ماشية تخرج من الدار مع الصباح وتعود اليها مع المساء وتغل على الأسرة خيرا كثيرا ..

« والفتى قوى موفور الصحة عظيم النشاط جميل المنظر منطلق اللسان .. وأسرة « خديجة » تسمع أول الأمر ولا تصدق . وما يمنع هذه الأسرة البائسة أن تجد فى هذه الخطبة روحا من الله سيتيح لها رخاء بعد شدة وسعة بعد ضيق ؟.. وقد استقامت الأمور بين الأسرتين ، ولكنها لم تستقم فى نفس « خديجة » ، فهى تمتنع على هذا الزواج وتلح فى الامتناع حتى تثير الريبة فى نفس أبويها .. فما ينبغى أن تصر على هذا الاباء الا أن تكون قد قصرت فى نفسها وفرطت فيما للشرف على الفتاة من حق ..

« وتفزع أمها وتلجأ الى سيدة « خديجة » فلا تزال بالفتاة تلاينها حينا وتخاشنها حينا آخر حتى تختلس منها الرضا اختلاسا ، وهيئت الفتاة لهذا اليوم المشهود منحياتها كأحسن ما تهيأ الفتيات لمثل هذا اليوم

« وفى الليل « ليلة الزفاف » كانت أمها قد انكفأت على وجهها أمام

بيتها الحقير تريد أن تبكى.فلا تجد الدموع خوفا مما ستنكشف عنه ساعة من ساعات هذا الليل حين يدخل الفتى على ابنتها .. ثم تنطلق الزغاريد كأنها سهام من فضة تشق ظلمة الليل الحالكة ، وتسمع طلقات البنادق هنا وهناك ، ويظهر جمع من النساء والصبية قد نصبوا شيئا بشبه أن يكون راية قانية ، وهم يهتفون بألفاظ ينكرها السمع ويمجها الذوق . وامرأة وقاح تهز أم « خديجة » هزا عنيفا وتزجرها زجرا مخيفا وتقول لها فى صوت يسمعه الناس : « أفيقى .. لقد بيضت خديجة وجهك ووجه زوجك » ..

« وتنقضى الليلة كما تنقضى ليالى الأعراس ويقبل النهار منغد ، ولكن « خديجة » لا تبدو للزائرات الا مكرهة على ذلك اكراها ، تسمع منهن كل شيء ولا تقول لهن شيئا ، تحاول أن تمسك دموعها فلا تجد الى امساك الدموع سبيلا ، ويسألنها ما خطبها ؟ .. ومتى رأى الناس فتاة يملأ قلبها الحزن فى مثل هذا اليوم ؟.. ولا يجدن عندها جوابا ، أو قل ان الجواب مستقر فى نفسها ولكنها لا تستطيع أن تبديه ..

« وتعجب النساء ففى كل هذا وفى بعض هذا ما يريب ، ولكنهن رأين الراية القانية ترفع فى ظلمة الليل وبين خفقان المصابيح ! ..

« وتمضى الأيام وقد فقد وجهها الصبوح غير قليل من جماله وبهجته .. وغشيته سحابة مقيمة من حزن رقيق يزيد موقعها فى القلوب حسنا ، وصوتها الرخص العذب الصافى الممتلىء جرت فيه نغمة حزينة متكسرة تجعله أسرع نفوذا الى القلب .. وزوج الفتاة سعيد مغتبط كأحسن ما يسعد الأزواج ويغتبطون .. الى أن ينطلق الفجر ذات يوم .. !

« وفى هذه الساعة الهادئة الحلوة يخرج النساء والعذارى من أهل القرية ساعيات الى النهر متغنيات جمال الحياة ثم يعدن الى القرية صامتات وقد أخذت الكآبة تغشى وجوههن شيئا فشيئا وأخذن يتهيأن لاحتمال أثقال الحياة ما غمرت الشمس قريتهن بنورها ..

« وافتقدت « خديجة » حين تقدم النهار قليلا فلم توجد . وانما

وجدت على شاطىء النهر وفى مكان بعيد من حيث تعود النساء أن يملأن جرارهن جرة مملوءة الى جانبها بعض الحلى . والتمست « خديجة » فى النهر فلم يظفر بها الباحثون » ..

فما خطب هذه المنتحرة التى لم يدنس عرضها ؟ .. ولماذا أهدت الموت الى نفسها وكل ما فى الحياة جدير أن يحبب اليها حياتها ؟ ..

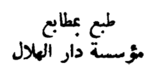
يقول طه حسين على لسان سـيدة « خديجة » السابقة التى تعرف سرها ونجواها : « لقد أكرهت « خديجة » اكراها على الزواج ، ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دنس ، لم يستطع الحب الزوجى أن يغسله فغسله الموت ! » ..

وبهذه المترفعة على طيبات الحياة ومناعمها بنمط فريد نادر من الحرية الباطنة للمرأة ، وهى حرية الوجدان وحرية البدن الذى يأنف أن يبيح ذاته عن غير رغبة خالصة ، ولكن استخدام هـذه الحرية لايبيحه مجتمع ورث القيود عن الماضى السحيق ويسىء الظن بمن تمتنع مثلها على شدة فقرها وتأبى خاطبا ثريا شابا جميلا قويا وتنسبها الى التفريط فى عرضها أو الانشغال بهوى ، وفى هذه الظنون من العار على أهلها ما يهون فى جانبه الموت ..

فهى اما أن تشترى سمعة أبويها وشرفهما ببذل بدنها ووجدانها الجريح عن غير رغبة يوما بعد يوم وليلة بعد ليلة ، واما أن تضيق بهذا الابتذال الجارح لحيائها الداخلى ــ وان كان صائنا لحيائها الخارجى الاجتماعى ــ فتختار أهون الشرّين على نفسها وأخف الألمين .. تختار موتا يريحها بعد أن أبرأت ذمتها ونفت العار عن صفحة أسرتها ..

نمط عال من أنماط الحرية الأنثـوية ، ما كانت لتكتمل نماذج المرأة الجديدة المتصدية للحياة بغيره . وبهذا النمط يكون أدب طه حسين قد جمع صور المتصديات للحياة فأوعى ، وأحاطت بصـيرته النفاذة بهذا التطور الاجتماعى الذى مس المرأة المصرية أشد مما مس غيرها فى ذلك التغير الحاسم بين أواخر القرن التاسع عشر وابان قرننا هذا العشرين ..

فهرس


طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

